

خمس قصص جديدة للكاتب الكبير نجيب محفوظ

خطر يهدد الإنسانية:

الشتاء النووي

متى يتوقف نزيف العقول في العالم العربي؟

الدكتور جلال عبد الله معوض

دراسة يجب أن يقرأها كل العرب الآن

هل الشقاق طبع في العرب؟!

بقلم: ساطع الحصري

ظهر أخيراً عن مركز دراسات الوحدة العربية في بيروت، والذي يشرف عليه العالم العربي الكبير خير الدين حسيب، كتاب «آراء وأحاديث في التاريخ والاجتماع» للكاتب العربي الكبير ساطع الحصري «١٨٧٩ ــ ١٩٦٨». وقد جاء ضمن بحوث هذا الكتاب بحث بالغ الأهمية يجيب فيه الحصري عن هذا السؤال «هل الشقاق طبع في العرب؟»، وقد كتب الحصري بحثه في الأصل على سؤال وجهه إليه سنة ١٩٤٩ الأديب العربي الكبير أحمد حسن الزيات صاحب الرسالة.

والحقيقة أن بحث الحصري وما ورد فيه من المناقشات والآراء يكاد كله يكون موجهاً إلى الأمة العربية في هذه الأيام، ولذلك تعيد «الدوحة» نشر هذا البحث الآن، لكي يقرأه كل عربي في الوقت الذي نتساءل فيه جميعاً بيننا وبين أنفسنا من خلال الأزمات والخلافات العربية التي نعاني منها اليوم نفس السؤال: هل الشقاق طبع في العرب؟!

صديقي الأستاذ...

لقد اطلعت على السؤال الذي وجهتموه إلي، في مقالكم المعنون «هل الشقاق طبع في العرب؟».

فقد أشرتم في المقال المذكور إلى حوادث الشقاق والتنافس والتخاصم التي توالت في تاريخ العرب، واستعرضتم الأحزاب السياسية والفرق الدينية التي ظهرت بينهم، ثم ذكرتم رأي ابن خلدون في هذا المضمار. وفي الأخير تساءلتم: «هل كتب الله على العرب أن يعيشوا أبداً بطبيعة البادية ونفسية الغابة وعقلية القبيلة»؟

فوجب علي أن ألبي طلبكم، فاكتب اليكم ما اعتقده في هذه القضية الهامة. غير أني رأيت من الضروري أن أحاول الإجابة عنه إجابة مباشرة.

ــ ١ ــ

فاسمحوا لي أن اسألكم بدوري: هل تظنون أن الاختلافات التي ذكرتموها كانت من خصائص الأمة العربية وحدها؟

أنا لا أشك في أن جوابكم عن هذا السؤال سيكون بالنفي، لأنكم تعرفون جيداً ــ كما يعرف ذلك كل من يستعرض التاريخ العام ــ أن تواريخ الأمم الأخرى لم تخل من أمثال تلك الاختلافات.

فيترتب على ذلك إذن أن أنقل البحث إلى كمية هذه الاختلافات وشدتها، فأسألكم: هل تعتقدون أن الاختلافات السياسية التي حدثت في تاريخ العرب كانت أكثر وأشد وأعنف من التي تجلت في تاريخ الأمم الأخرى؟

أنا أعرف أن الآراء الشائعة الآن لا تدع مجالاً للتفكير ملياً في هذا السؤال، لأنها تحمل الأذهان على الرد عليه فوراً بالايجاب.

وأعترف بأني أيضاً كنت ــ مدة من الزمن ــ من المتأثرين بهذه الآراء الشائعة، ومن المسلمين بأن تاريخ العرب يشذ في هذه القضايا عن تواريخ الأمم الأخرى شذوذا كبيراً. غير أني بدأت أشك في صحة هذه الآراء الشائعة عندما أخذت أتعمق في دراسة التاريخ العام، وازددت شكاً فيها كلما تغلغلت في هذه الدراسة، إلى أن أصبحت أعتقد اعتقاداً جازماً بأنها لا تتفق مع الحقائق التاريخية الثابتة أبداً، لأنها لا تقوم على مقارنات شاملة، بل تستند إلى استقراء ناقص جداً.

إننا ننفعل، ونتألم، ونغضب.. عندما نقرأ أخبار الاختلافات التي حدثت في تاريخ العرب.. ولا سيما عندما نتتبع نتائج هذه الاختلافات ونطلع على كيفية تضاؤل سلطة الخلافة، وتشتتها بين سلطات السلاطين وملوك الطوائف العديدين.

إننا ننفعل ونتألم من هذه الأخبار والحوادث التاريخية، لأننا نقيس أحوال القرون الماضية بمقاييس الأزمة الحاضرة... ولا نكلف أنفسنا عناء البحث في التاريخ العام بحثاً شاملاً، لكي نعرف ما إذا كانت تلك الأحوال من الأمور التي تشذ فيها



ساطع الحصري



ابن خلدون





شارلمان

الأمة العربية عن سائر الأمم، أو كانت من الأمور الطبيعية التي تتساوى فيها جميع الأمم في بعض الأطوار من تاريخها.

فيجب علينا قبل كل شيء، أن نطلق أذهاننا من ربقة هذه الآراء الشائعة، لندرس هذه القضايا من جديد، بنظرات علمية بحتة، مع استقراء الحوادث التاريخية استقراءاً تاماً.

فلنبدأ أولاً بقضية الاختلافات الدينية. ولنستعرض ماحدث منها في أوروبا، طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة.. نجد أنها لم تكن قط أقل تنوعاً ولا أخف عمقاً مما حدث في العالم العربي خلال الأزمنة المذكورة، إن لم تكن أكثر تنوعاً وأشد عنفاً منها..

احصوا المذاهب المختلفة التي نشأت في الغرب منذ ظهور المسيحية في مختلف البلاد الأوروبية خلال القرون المذكورة.. استعرضوا الخلافات الدينية والمذهبية التي حدثت بين الدول وبين الكنائس من جهة، وبين الكنائس من جهة، وبين الكنائس المختلفة من جهة أخرى.. استقصوا أخبار الحروب الأهليه والدولية التي نجمت عن هذه الاختلافات الدينية في مختلف أقسام البلاد الأوروبية، حتى في فرنسا التي تظهر الآن أكثر تباعداً عن الاهتمام بالأمور الدينية من جميع بلاد العالم. قلبوا صحائف التاريخ التي سجلت أعمال محاكم التفتيش من جهة، وحياة المذاهب الدينية من جهة أخرى.. فإنكم تضطرون إلى التسليم بأن الاختلافات الدينية التي حدثت في البلاد الأوروبية كانت ــ بوجه عام ــ أوسع نطاقاً، وأكثر

• إن حدوث التفرقة والشقاق في الماضي لا يمنع اتحادنا في المستقبل

• كانت فرنسا أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة، ورغم ذلك ظلت مسرحاً لشتى أنواع الحروب في القرون الماضية

تنوعاً، وأشد عنفاً من التي حدثت في العالم العربي.

وأما الاختلافات السياسية، فأمرها يحتاج إلى بحث أشمل، وتفكير أعمق: فيجب علينا أن نلاحظ قبل كل شيء: أن العرب انتشروا ــ بعد الهجرة النبوية ــ بسرعة خارقة، في بقاع واسعة جداً من القارات الثلاث المعلومة قديماً. ففتحوا خلال قرن واحد، بلادا أوسع بكثير مما فتحه الرومان خلال ثمانية قرون.

تصوروا الاتساع الهائل الذى وصلت اليه الدولة العربية في أوائل القرن الثامن للميلاد.. تتبعوا حدود تلك الامبراطورية التي كانت تمتد من ساحل بحر المحيط الاطلسي إلى شواطئ نهر السند وسهول كشغر، ومن سفوح همالايا إلى جبال البرنس والألب، ومن باب المندب إلى جبال القافقاس. وتذكروا في الوقت نفسه بساطة وسائط المناقلة والمواصلة ووسائل الحروب والسيطرة التي كانت معلومة ومستعملة في تلك العصور.. ثم قولوا لي: كيف كان يمكن أن تبقى تلك السلطنة المترامية الأطراف مصونة من مغبة الانقسام مدة طويلة من الزمن، بالرغم من اختلاف الشعوب الكثيرة التي دخلت تحت حكمها، وضآلة الوسائط التي كانت تضمن اتصال هذه العاصمة بتلك الثغور.

قولو لي: أية سلطنة من السلطنات التي يذكرها التاريخ القديم والوسيط استطاعت أن تسيطر على مثل هذه البقاع المترامية الأطراف، مدة أطول من التي سيطر عليها العرب، دون أن تتعرض إلى اختلافات وانقسامات؟

لا ننس أن امبراطورية اسكندر الأكبر ــ في القرون الأولى ــ تجزأت بعد موت مؤسسها، مع أنها كانت أصغر بكثير من الامبراطورية العربية. كما أن امبراطورية شارلمان ــ في القرون الوسطى ــ لم تسلم من الانقسام بعد موت عاهلها، مع أنها كانت قليلة الاتساع جداً بالنسبة إلى اتساع الدولة العربية في أواخر عهد الأسرة الأموية، أو أوائل عهد الأسرة العباسية.

ولا ننس أن انقسام السلطنات والامبراطوريات الكبيرة وانحلالها إلى اقطاعيات صغيرة كانت من الأمور الطبيعية المألوفة في جميع أنحاء العالم المعروف في القرون الأولى والوسطى.

ـ ٢ ـ

ولذلك أعود وأسألكم مرة أخرى: كم أمة من

دراسة يجب أن يقرأها كل العرب الآن

الأمم التي عرفها التاريخ كانت أقل اختلافاً وأكثر اتحاداً من الأمة العربية من الوجهة السياسية؟

اليونان؟.. ولكن التاريخ يشهد شهادة صريحة على أن هذه الأمة لم تتحد سياسياً في يوم من الأيام.. كانت كل مدينة من المدن اليونانية الكثيرة مملكة قائمة بذاتها، دولة مستقلة عن غيرها. وهذه الحالة كانت تبدو لليونانيين طبيعية وضرورية، حتى أن كبار مفكريهم كانوا يحبذون هذه الحالة، وكانوا يشاركون الرأي العام في هذا المضمار. وقد قال أفلاطون: إن عدد المواطنين في الدولة — أي الجمهورية — يجب ألا يزيد على خمسة آلاف. وقال أرسطو إن الدول يجب أن تكون صغيرة حتى يستطيع جميع أفرادها أن يعرف بعضهم بعضاً معرفة مباشرة.

في الواقع إن هذه المدن المستقلة — أي هذه الدويلات الصغيرة — كانت تتفق وتتحالف من حين إلى حين، لدرء الخطر الخارجي الذي يحدق بالجميع. غير أن هذا التحالف كان لا يلبث أن ينفصم وينحل من جراء تنافس المدن الرئيسية على زعامة الحلف.

ومن المعلوم أن أشهر وأهم هذه المحالفات تكونت عند هجوم الميديين على بلاد اليونان. غير أن هذه المحالفة أيضاً لم تعمر طويلاً، بل انحلت وزالت قبل أن يمضي على تكوينها عقدان من السنين!

وقد انقضى تاريخ اليونان السياسي بالمنافسات والمنازعات التي قامت بين أثينة واسبارطة وكورنت. ومن المعلوم أن هذه المنافسات أدت إلى حدوث عدة حروب دامية بين مختلف المدن اليونانية، كان أشهرها الحروب التي عرفت باسم حروب البلوبونيز!

ولا ننس أن هذه الحروب التي اشترك فيها معظم المدن اليونانية، هي التي أدت إلى تحطيم الأسطول الاسبارطي من جهة، وإلى تدمير أسوار أثينة من جهة أخرى.

ولقد حدثت هذه المنافسات والمحاربات بين تلك الدويلات، مع أن مساحة البلوبونيز — مع شبه جزيرة آتيكا — كانت أقل من مساحة بعض المديريات في مصر، والمحافظات في سوريا، والمتصرفيات في العراق. ومع أن المسافة التي تفصل أثينة عن اسبارطة لا تختلف كثيراً عن المسافة التي تمتد بين القاهرة والاسكندرية، وتقل كثيراً عن التي تفصل دمشق عن بغداد، وتتضاءل تماماً أمام المسافات الشاسعة التي تفصل بغداد عن قرطبة ولا سيما بلخ عن لشبونة.

إن هذه المئات من الدويلات اليونانية التي تقاسمت هذه الرقعة الصغيرة من الأرض ظلت متفرقة متنافسة، متخاصمة، ولم تجتمع تحت إدارة واحدة إلا عندما دخلت تحت حكم دولة أجنبية.

ترون أيها الأساتذة، أن الأمة اليونانية لم تكن قط في حالة تحسد عليها من هذه الوجهة.

وأما الرومان، فلا شك في أنهم امتازوا بين أمم التاريخ القديم بالاتحاد والانتظام. والامبراطورية التي أسسوها عاشت مدة أطول من مثيلاتها بوجه عام.

غير أنه يجدر بنا أن نلاحظ أن هذا الامتياز نتج عن توافر عدة عوامل وأوضاع مساعدة لم تتيسر لغيرها أبداً.

أولاً: أن السلطنة الرومانية تكونت بتدرج عظيم، وهذا التدرج ساعد على رسوخ الأوضاع الجديدة واستقرارها مساعدة كبيرة.

ثانياً: أن الامبراطورية الرومانية شملت جميع سواحل البحر الأبيض المتوسط. ولا حاجة إلى القول بأن روما كانت في نقطة مركزية من هذا البحر، فقد ساعد ذلك كثيراً على اتصال العاصمة بمختلف أقسام السلطنة عن طريق البحر بسرعة وسهولة، بالنسبة إلى وسائط النقل والمواصلة المعلومة في تلك العصور القديمة.

ثالثاً: أن السلطنة الرومانية لم تتباعد عن السواحل كثيراً، ولم تتغلغل في الأقطار القارية أبداً. إنها لم تسيطر على جزيرة العرب ولا على مابين النهرين، فمعظم أقسام العراق، وجميع بلاد ايران وخراسان، وماوراء النهر والافغان ظلت خارجة عن حوزة السلطنة الرومانية، وذلك قلل إلى حد كبير مشاكل الحكم التي تلازم السلطنات المترامية الأطراف.

إن اجتماع هذه الأسباب الأساسية هو الذي ساعد على اطالة عمر الامبراطورية الرومانية بالنسبة إلى ماكان معتاداً في القرون الأولى والوسطى.

ومع كل هذا يجب ألا ننسى أن هؤلاء الرومان أيضاً لم يسلموا من آفات الاختلاف والتنافس: استعرضوا تاريخ روما بنظرة فاحصة، ولاحظوا كم من المنازعات قامت بين مختلف الطبقات الاجتماعية، حتى في مدينة روما نفسها، وحتى في عهد الجمهورية! وكم من الحروب الداخلية نشبت بين القواد في عهد الامبراطورية! وكيف أصبحت الجيوش ذات الكلمة النافذة في تنصيب الأباطرة! وكيف كانت الغلبة والكلمة العليا في هذا الأمر تارة إلى الجيوش المرابطة في أسبانيا، وطوراً إلى الجيوش المرابطة في سوريا، وتارة إلى الجيوش المرابطة في أفريقيا! وكيف أصبح الوصول إلى العرش رهن النجاح في مؤامرات لا تعد ولا تحصى!

وإذا لاحظتم كل ذلك اضطررتم إلى التسليم بأن الامبراطورية الرومانية لم تعش سالمة من الاختلافات، بل إنما عاشت بالرغم من الاختلافات، وأما أخلاف الرومان القدماء، فلا ننس أنهم عاشوا متفرقين مدة لا تقل عن خمسة عشر قرناً.

وإذا تركنا السلطنات القديمة جانباً، وانتقلنا إلى الدول المعاصرة لنا، وتتبعنا أحوالها الماضية — طوال القرون الوسطى وخلال النصف الأول من القرون الأخيرة — وصلنا إلى نتائج مماثلة لما ذكرناه آنفاً.

ولنأخذ فرنسا مثلا، فقد كان من المعلوم أنها أسبق الدول الأوربية إلى الوحدة السياسية الكاملة، والتماسك القومي المتين، ولكنا إذا استعرضنا أحوالها خلال القرون التي ذكرناها آنفاً وجدناها بعيدة عن الوحدة كل البعد، ومسرحاً لشتى أنواع الخلافات والحروب.

أنا لا أود أن أطيل الحديث في هذا الموضوع، ولذلك أكتفي بنقل كلمة كتبها مؤرخ فرنسا الشهير «أرنست لافيس» لتلخيص تلك الأحوال، قال المؤرخ:

«لقد مضى عهد من التاريخ كانت فرنسا فيه شبيهة بماكدونيا الحالية، منقسمة إلى أجزاء كثيرة، متخالفة متنابذة، متنافسة، متخاصمة. وقد وجب أن تسيل الدماء مدراراً حتى تلتحم هذه الأقسام المختلفة؛ فتصل فرنسا إلى وحدتها الحالية...»

هذه كانت أحوال فرنسا التي سبقت جميع الدول الأوربية في طريق الاتحاد. وأما إذا أنعمنا النظر في تواريخ الدول الغربية الأخرى، فنجد فيها أيضاً أحوالاً مماثلة لذلك تجلت بمقياس أوسع، وبشدة أعظم، واستمرت مدة أطول.

لابد من أن تتذكروا — في هذا الصدد — أن ألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ثلاثمائة دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي، وكانت لا تزال منقسمة إلى تسع وثلاثين دولة قبل ثمانين عاماً فقط!

إن اتحاد هذه الدول لم يتم إلا بعد جهود كبيرة وتضحيات عظيمة، وهذه الجهود قد اجتازت مرات عديدة أطوار فشل أليمة.

ولهذا كله أستطيع أن أقول بكل تأكيد: إننا كلما توسعنا وتعمقنا في دراسة تاريخ الدول الأوروبية، ازددنا يقيناً بأن معالم الاختلاف والانقسام فيها لم تكن قط أقل من التي تجلت في تاريخ العرب بوجه عام.

إني أقول هذا بكل تأكيد، مع علمي بأنني أخالف بذلك آراء الكثرة الساحقة من الكتاب والباحثين.

وقد فكرت ملياً في الأسباب والعوامل التي حملت الرأي العام على التباعد عن طريق الصواب في هذه القضية الهامة، واعتقد أنني وصلت إلى معرفتها بكل وضوح:

إن مراكز رؤيتنا لتاريخ العرب تختلف ــ بوجه عام ــ عن مراكز رؤيتنا لتواريخ الأمم الأخرى.

فنحن ننظر إلى تواريخ الأمم الأخرى عن بعد، نظرة اجمالية، فندرك خطوطها الأساسية العامة دون أن نتعمق في تفاصيلها الفرعية. ولكننا ننظر إلى تاريخ العرب من قرب نظرة تفصيلية، فنطلع على كثير من تفاصيله دون أن نحيط علماً بخطوطه الأساسية.

وأستطيع أن أقول: إن موقفنا تجاه التاريخ العام موقف رجل يتفرج على الجبل من السهل البعيد.

وأما موقفنا تجاه تاريخ العرب، فهو موقف رجل في قلب الجبل ويتغلغل في وهاده.

ومن المعلوم أن الجبال تتألف عادة من وهاد ووديان، ومرتفعات ومنخفضات، وهضاب ومنحدرات، فلا تبدو عالية شامخة، إلا لمن ينظر إليها من بعيد، ويدرك شكلها العام دون أن يتبين خطوطها الفرعية المعقدة.

إن تواريخ الدول الأوروبية تبدو لنا جبالاً مرتفعة شامخة، لأننا ننظر إليها بنظر المؤلفين الأوروبيين، ومن الخارج ومن البعد. فلنغير موقفنا منها ونظراتنا إليها، وذلك بالتغلغل فيها، نر عندئذ أنها مؤلفة من وهاد ووديان بالرغم من منظرها الخارجي العام.

وأما تواريخ الدول العربية، فتبدو لنا مجموعة مرتفعات ومنخفضات مشوشة ومعقدة، لأننا ننظر إليها بنظر الاخباريين القدماء، ومن داخلها، فلنغير موقفنا منها، ولننظر إليها من بعد ــ نظرة تسمو على التفرعات ــ فنرى عندئذ أنها أيضاً مرتفعة شامخة، وبالرغم مما فيها من وهاد ووديان.

يجب علينا أن نضع هذه الحقيقة نصب أعيننا على الدوام، وأن نسعى لتوحيد نظرتنا إلى صحائف التاريخ القومي والتاريخ العام، ولنعدل عن استعمال نظارات مكبرة للعيوب في الأولى، ومصغرة للعيوب في الثانية، كما اعتدنا إلى الآن.

وعندما نفعل ذلك نفهم حق الفهم أن الأحكام الشائعة بيننا على تاريخ العرب، إنما هي وليدة نظرات خاطئة، ومقارنات قاصرة. ولهذا السبب كانت في حاجة شديدة إلى التصحيح والتقويم بوجه عام.

وأما ماذكرتموه عن رأي ابن خلدون في هذه القضية، فهو أيضاً في حاجة إلى انعام النظر. فقد نقلتم الفقرات التالية، من مقدمة هذا المفكر العظيم:

«والعرب أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض، للغلظة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة، فقلما تجتمع أهواؤهم. من أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصبغة دينية، من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة».

أنا أعرف أن ابن خلدون أبدى هذا الرأي في مقدمته المشهورة، ولكني أرى من الضروري أن نفطن جيداً إلى ما يقصد من كلمة العرب الواردة في هذه الفقرات، ثم نبحث عن نصيب رأيه هذا من الصحة والصواب.

من الأمور التي يجب أن تبقى نصب أعيننا على الدوام ـ حين نقرأ مقدمة ابن خلدون ونستشهد بها ــ أن مؤلفها كان يقصد من كلمة «العرب» العربان بوجه خاص وفقاً لما هو متعارف بين العوام ــ ولم يقصد قط أفراد الأمة العربية بوجه عام، كما نفهمها ونتصورها نحن الآن.

«إن أهم أسباب نكباتنا هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم روح العصر وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي»

إنني سردت الأدلة الكثيرة التي تبرهن على ذلك برهنة قاطعة في عدة مقالات نشرتها في بيروت وبغداد. وفي فصل خاص من الدراسات التي كتبتها عن مقدمة ابن خلدون، ولا أرى لزوماً إلى إعادة تلك البراهين والأبحاث في هذا المقام. ولكن لما كانت الدراسات المبحوث عنها قد نفدت، رأيت أن أنقل هنا نموذجين من البراهين المسرودة فيها، وقد انتخبت أحدهما من القسم الأول من المقدمة، والثاني من القسم الأخير منها، قلت:

فلنلاحظ الفصل الذي يقول فيه ابن خلدون «إن العرب إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب» ولننعم النظر في الأدلة التي يذكرها لتعليل رأيه هذا:

«فغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتقلب، وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له. فالحجر مثلاً إنما حاجتهم إليه اثافي للقدر فينقلونه من المباني فيخربونها عليه، ويعدونه لذلك. والخشب إنما حاجتهم ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه». (ص ١٤٩).

ومن البديهي أن مدار البحث هنا لا يتعدى البدو الذين يعيشون تحت الخيام. ولا مجال للشك في أن ابن خلدون عندما كتب هذه العبارات وقال «لا يحتاجون إلى الحجر إلا لوضع القدور. ولا إلى الخشب إلا لنصب الخيام» لم يفكر قط في أهل دمشق أو القاهرة، ولا بسكان تونس أو فاس. إنما قصد أعراب البادية وحدهم.

وقال: في الفصل الأخير من المقدمة «وقد كنا قدمنا أن الصنائع من منتحل الحضر، وأن العرب أبعد الناس عنها. وصارت العلوم لذلك حضرية، وبعد العرب عنها وعن سوقها» (ص ٥٤٤).

يلاحظ أن ابن خلدون يذكر هنا كلمة العرب مرتين مقابلاً لكلمة الحضر، بشكل لا يترك مجالا للشك في أنه يقصد منها البدو على وجه التخصيص ويخرج من نطاق شمولها الحضر على الاطلاق. إني أرى من الضروري أن ألفت الانظار إلى موضع الفقرات الآنفة الذكر من أبحاث المقدمة: إن تلك الفقرات مستخرجة من الفصل السابع والعشرين من الباب الثاني، وعنوان الباب المذكور هو: «العمران البدوي والأمم الوحشية والقبائل ومايعرض في ذلك من الأحوال». وذلك أيضاً يدل على أن ما جاء في هذه الفقرات ينصب على الذين يعيشون في حالة البداوة، ولا يشمل الذين يعيشون في المدن. ومن المعلوم أن أحوال المدن والدول تكون موضوعات البابين الثالث والرابع من المقدمة والفقرة الآنفة الذكر لا تدخل في نطاق البابين المذكورين.

وبناء على كل ما تقدم يحق لنا أن نعبر عن رأي ابن خلدون في هذه القضية وفق أسلوب كلامنا الحالي ــ بالعبارات التالية: «أن العرب ــ عندما كانوا في حالة الفطرة والبداوة ــ لم يستطيعوا أن يؤلفوا دولة ويؤسسوا ملكاً، إلا عندما تأثروا بدين أو ولاية تزيل عنهم التحاسد والتنافس، وتحملهم على الانقياد والاجتماع».

ومن الغريب أن كلمات ابن خلدون في هذا المضمار ــ عندما تفرغ في هذا القالب ــ تصبح موافقة تمام الموافقة للنظرية التي توصل إليها علماء الاجتماع في العصر الحاضر عن منشأ الملك بوجه

دراســـة يجب أن يقـــرأها كـل العـــرب الآن

عام : لأن أصحاب هذه النظرية يقولون : إن الممالك لم تتكون في بادئ الأمر إلا بفضل المعتقدات الدينية.

إن الأبحاث التي قام بها عدد كبير من العلماء والمفكرين، مستندين إلى المعلومات التي جمعوها عن أحوال الأقوام البدائية من جهة، وعن تواريخ الدول القديمة من جهة أخرى قد أوصلتهم إلى هذه النظرية. فقالوا : إن تكون الجماعات السياسية الكبيرة والممالك العظيمة، في القرون القديمة، لا يمكن أن يفسر إلا بتأثير الاعتقادات الدينية، على اختلاف أنواعها وأطوارها فالاعتقاد بقوى خارقة للعادة ــ من الاعتقاد بالقوى السحرية إلى الايمان بالقوة الالهية ــ هو الذي مهد السبل إلى تكون الجماعات الكبيرة واستقرار الحياة السياسية في أطوار البداوة والهمجية.

وقد كتب الباحث الانجليزي المشهور «فرايزر» كتاباً ضخماً ضمنه أمثلة وبراهين كثيرة، تدل على أن الملكية نشأت من الاعتقادات السحرية : كان الناس يخضعون للملك، لاعتقادهم بأنه يتمتع بقوة سحرية، وكانوا يرون من الطبيعي أن يخلفه ابنه، لاعتقادهم بأن هذه القوة السحرية تنتقل منه إليه.

وقد برهن المؤرخ الفرنسي المشهور «فوستل دو كولانج» ــ في كتابه المدينة القديمة ــ أن الحياة السياسية عند اليونان والرومان أيضاً قامت على بعض الاعتقادات والعبادات.

وقد لاحظ جميع المؤرخين أن الاعتقادات الدينية لعبت دوراً هاماً في سياسة دول القرون الأولى. والاعتقادات الدينية السياسية اجتازت مراحل عديدة ومتنوعة. الملك إله... الملك ابن الإله... الملك من نسل الآلهة... الإله يتقمص جسد الملك... الإله ينفخ في الملك شيئاً من روحه... الإله يمد الملك بإلهاماته... هذه أشكال مختلفة ــ وأطوار متتالية ــ من الاعتقادات التي كانت تربط الملكية بالدين، وتساعد على جمع طوائف كبيرة من الناس تحت إدارة واحدة في تلك القرون القديمة.

أنا لا أرى هنا مجالاً لذكر الأمثلة والبراهين والنصوص التي تؤيد هذه النظرية. ولذلك سأكتفي بالاشارة إلى كتاب (تيارات التاريخ العالمي العظيمة) الذي نشره أخيراً «جاك بيرين» استاذ التاريخ في جامعة بروكسل. تصفحوا المجلد الأول من هذا الكتاب القيم، (وهو المجلد الذي يلخص التطورات التاريخية التي حدثت في العالم منذ القدم حتى ظهور الاسلام) : تجدوا في كل فصل من فصوله تقريباً بعض الأبحاث التي تنم عن الترابط المتين الذي كان قائماً في تلك العصور القديمة بين تطور الحوادث السياسية وبين تقلب المعتقدات الدينية.

لاشك في أن الحروب كانت تلعب دوراً أساسياً في توسع الممالك وتكون الامبراطوريات : فإن ملك قطر من الأقطار يستولى على مدن وأقطار أخرى بقوة السلاح، ويوسع حدود ملكه عن طريق الفتوح العسكرية. غير أن نتائج هذه الفتوح ماكانت تدوم وتستقر، إلا إذا دعمها شيء من التفاعل والتزاوج والتلاقح بين معتقدات البلاد الفاتحة، وبين معتقدات البلاد المفتوحة. وهذا التفاعل كان يأخذ أشكالاً مختلفة : تارة كان الاعتقاد ينتشر بأن آلهة جميع تلك البلاد لا يختلف بعضهم عن بعض إلا بالأسماء، فكان يصبح الملك ممثلاً لآلهة البلاد الفاتحة والمفتوحة على حد سواء. وطوراً كان يتولد الاعتقاد بأن إله الملك الفاتح هو الإله الأكبر. وأما آلهة البلاد المفتوحة فهي من أتباع ذلك الإله الأعظم... وعلى كل حال كانت هذه المعتقدات المتنوعة ــ تساعد إلى حد كبير على خضوع أهالي البلاد المفتوحة للحكم الجديد خضوعاً نفسياً : فكانت تقلل أو تزيل الحاجة إلى استعمال القوة والقسوة لادامة ذلك الخضوع.

ولا أرى حاجة إلى القول بأن أمثال هذه المعتقدات الدينية السياسية ماكان يمكن أن تدوم بعد انقضاء عهود الوثنية القديمة. ومع هذا أرى من الضروري أن أشير إلى نظرية «سياسية دينية» سادت على الأذهان في أوروبا ــ في عهد تكوين الممالك ــ حتى القرن الثامن عشر : وهي النظرية القائلة بأن الملوك يحكمون بتفويض من الله. ومما لا مجال للشك فيه أن هذه النظرية كانت بمثابة «الاصداء الأخيرة» لتلك المعتقدات القديمة التي شرحناها آنفاً.

وخلاصة القول : إن الأبحاث التاريخية والاجتماعية تدل دلالة قاطعة على أن خضوع الناس إلى أحكام السلطات، لم يتيسر في بادئ الأمر ــ إلا بفضل المعتقدات الدينية.

ويظهر من ذلك ــ بكل وضوح ــ أن ماقاله ابن خلدون في مقدمته المشهورة، عن العرب في طور البداوة، لا يختلف عما يقوله العلماء والمفكرون المعاصرون عن الأمم القديمة بوجه عام.

فنستطيع أن نقول ــ بكل تأكيد ــ إن تاريخ العرب لا يشذ عن تواريخ سائر الأمم، من هذه الوجهة أيضاً.

ــ ٣ ــ

بعد هذه النظرات الانتقادية التي وجهناها إلى المقدمات التاريخية، يجدر بنا أن نرجع إلى السؤال الأصلي، لنرى : هل الشقاق طبع في العرب؟

إن المقارنات التي قمنا بها آنفاً بين تاريخ الأمة العربية وبين تواريخ الأمم الأخرى من وجهة الشقاق، تسهل علينا الاجابة عن هذا السؤال إجابة مبنية على قياس صحيح واستقراء تام :

إن الشقاق وليد الأنانية. والأنانية طبع غريزي في الانسان، وجماح هذه الأنانية لا يكبحها إلا التربية الاجتماعية المتينة، والتشكيلات الحكومية القوية، والنزعة المثالية الفعالة. والايمان الديني أو القومي أو الوطني العميق.

ففي كل أمة من أمم الأرض، وفي كل دور من

● لماذا نسينا أن ألمانيا كانت منقسمة إلى أكثر من ٣٠٠ دولة ودويلة حتى أوائل القرن الماضي؟

● غير صحيح أن تواريخ الدول العربية عبارة عن مرتفعات ومنخفضات مشوشة معقدة، فهي مرتفعات شامخة رغم مافيها من وهاد ووديان!

● علينا أن نسعى لتوحيد نظرتنا إلى صحائف التاريخ القومي، ولنعدل عن استعمال النظارات المكبرة لعيوبنا!

في العــدد القــادم



حمد عبدالعزيز الكواري

مندوب قطر الدائم في هيئة الأمم المتحدة يكتب بمناسبة مرور ٤٠ عاماً على تأسيس هيئة الأمم المتحدة

أدوار التاريخ يظهر أناس تتغلب في نفوسهم الأنانية على العوامل التي ذكرناها آنفاً ، ولكن الرأي العام من جهة ، والقوانين الموضوعة من جهة أخرى ، تعاقب هؤلاء وتعزلهم عن المجتمع بصور شتى ووسائط متنوعة ، وتجعلهم عبرة للآخرين ، فتحول بذلك دون استفحال هذه الأنانية وانتشارها بين الناس.

غير أنه يأتي أحياناً في كل أمة من أمم الأرض بعض الأدوار من التاريخ ، تضعف فيها هذه القوى الوازعة ، فتنفلت الأنانيات عن عقالها ، وتتضاءل تأثيرات الرأي العام فيها ، فتقل سلطة الحكومات عليها ، وكل ذلك يؤدي إلى ازدياد الشقاق وانتشار الخلاف بين الناس.

هذا ماحدث ، ومايحدث ، وماسيحدث ، في كل أمة من الأمم ، وفي جميع أدوار التاريخ.

وليس في طباع العرب ما يجعلها شاذة عن سائر الأمم في هذا المضمار.

هذا هو جوابي ، ياصديقي الأستاذ ، عن السؤال الذي وجهتموه إلي :

لا يوجد في طباع الأمة العربية مايجعلها شاذة عن سائر الأمم في أمر الاتفاق والانشقاق.

يجب علينا أن نعرف ذلك حق المعرفة ، كما يجب علينا أن نعتقد اعتقاداً جازماً ، بأن طبائع الأمم لا تبقى على وتيرة واحدة على مر العصور. وقد صدق من قال : «إن من يتوهم الاستقرار في طبائع الأمم ، كمن ينشد البقاء في الموجات التي تحدث على سطح الماء عندما ترمي حجراً فيها». فإن الماضي لايقيد الحاضر تقييداً مطلقاً. وتحقق الوحدة والاتفاق في الماضي لايكفي لدرء أخطار التفرقة والشقاق في الحاضر ، كما أن حدوث التفرقة والشقاق في الماضي لايمنع الاتحاد في المستقبل.

فيجب علينا أن نتخلص من نزعة الانشغال بالماضي كثيراً ، وأن نقلع عن الالتفات إلى الوراء دائماً فلايجوز أن نحاول تبرير مساوئنا الحالية بنقائص أسلافنا الأقدمين ، ولا أن نسعى لالقاء مسؤولية نكباتنا على عاتق تاريخنا القديم ، ولا يسوغ لنا ــ على وجه خاص ــ أن نستسلم إلى دواعي الخور والكسل ، وأن نتقاعس عن الكفاح والعمل ، بحجة أن الحالة الحاضرة نتيجة حتمية لطبائع الأمة ولمجرى تاريخها العام.

لاريب في أن حالتنا الحاضرة سيئة للغاية ، والنكبات التي منينا بها أخيراً كانت في منتهى الفظاعة ، كما أن الأخطار التي تهدد مستقبلنا عظيمة جداً.

غير أنه يجب علينا أن نعلم العلم اليقين أن أسباب ذلك لاتعود إلى طبائع أمتنا ، ولا إلى ماضينا البعيد ، بل انما تعود إلى أخطائنا نحن ، وإلى أحوال ماضينا القريب. إنني لن أحاول في هذا المقام أن أحلل وأسرد الأسباب التي أدت إلى نكباتنا الأخيرة واستوجبت فشلنا الأليم ، ولن أبحث عن الأشخاص الذين يجب أن يعتبروا مسؤولين عن هذا الفشل وتلك النكبات. ومع هذا سأقول بلا تردد : أن أهم الأسباب ــ في نظري ــ هو بقاؤنا بعيدين عن تفهم وتمثل روح العصر الذي نعيش فيه ، وتقصيرنا في التسلح بسلاح العلم الحقيقي.

غير أني أرى أن هناك سبباً آخر ربما كان أبعد أثراً وأشد خطراً من كل ذلك ، هو ضعف ايماننا بقضايانا القومية ، وعدم اقدامنا على معالجة تلك القضايا بعزم وحزم.

إننا لم نستجمع قوانا المادية والمعنوية ، ونحشدها لتحقيق هدفنا الأسمى ، بل إننا عملنا بتراخ وتردد ، بدون عزم قوي وتنظيم متين وايمان عميق ، فأضعنا بذلك فرصاً كبيرة وانتهينا إلى فشل ذريع.

ومهما يكن الأمر ، يجب علينا أن لانقطع الأمل في النجاح في المستقبل وأن لا نتأخر عن إعادة الكرة بإيمان أعظم ، إذ يجب علينا أن ننسى أنه مامن أمة وصلت إلى الكمال الذي تنشده إلا بعد أن اجتازت عقبات كثيرة ، وذاقت مرارة الفشل مرات عديدة ، واضطرت إلى تضحيات كبيرة.

إن الأمم الحية الوثابة تتعظ بالنكبات ، فتندفع إلى العمل وتواصل الكفاح بحرارة أشد وعزم أمتن ، كما أنها تغضب من الفشل وتستفيد من دروسه فتعيد الكرة لتضمن النجاح ولو بعد حين.

وأستطيع أن أقول. إن الايمان القوي العميق بإمكانات أمتنا ، والعمل الحازم المتواصل لتحقيق غايتنا ، والاستعداد التام للكفاح مصحوباً بروح التضحية الحقيقية ، ومدعوماً بالأمل الذي لايقهر...

هذه هي أهم مايترتب علينا من واجبات بعد هذه النكبات.

أقول هذا وأنا ألمح معالم الخور والقنوط بادية على معظم الوجوه ، وهمسات الشك والاعتراض منتشرة في كل الجهات... وكأني أسمع سلسلة أسئلة اعتراضية تقابل ماقلته آنفاً : ألاتدرك هول النكبات التي نزلت بنا أخيراً؟ أفلا تلاحظ فظاعة الاختلافات التي تهز كيان جامعة الدول العربية هزاً عنيفاً؟ ألا تشعر بالأخطار التي صارت تهدد مستقبلنا في عقر دارنا؟..

نعم إني أدرك وأشعر وألاحظ كل ذلك إدراكاً تاماً وشعوراً عميقاً وملاحظة دقيقة ، وأتألم من كل ذلك ألماً شديداً.

ومع هذا أرى من حقي أن أسأل بدوري : ألم تبتل أمم كثيرة بنكبات مثل هذه ، بل وأشد منها؟ فهل كانت نكبة بروسيا وألمانيا بعد واقعة ينا ــ مثلاً ــ أقل هولاً وفظاعة من نكبتنا الحالية؟ ومع ذلك ألم يستطع الألمان أن يتخلصوا من آثار تلك النكبة؟

وهل كان فشل مؤتمر فرنكفورت في ألمانيا ــ قبل قرن واحد من يومنا هذا ــ أقل خطراً من فشل مجلس جامعة الدول العربية هذه السنة؟ ألم يقل بعض الساسة ــ عقب انحلال المؤتمر المذكور ــ «إن الألمان فقدوا حتى قابلية الدفاع عن أنفسهم؟» ألم يتساءل بعض الكتاب عندئذ قائلين : «أين هي ألمانيا؟ هل لها وجود في غير مخيلة الشعراء وأحلام بعض رجال السياسة؟» ومع كل ذلك ، ألم تتحقق وحدة ألمانيا في حياة من حضروا مؤتمر فرنكفورت الفاشل؟

وبناء على هذه الملاحظات أقول بلا تردد : لا يجوز لنا أن نترك مجالاً لتسرب الخور والقنوط إلى أنفسنا. ويجب علينا أن نعلم علم اليقين : أن النكبة لاتصل إلى حدها الأقصى إلا عندما تثبط العزائم ، كما أن الفشل لايصبح تاماً إلا عندما يؤدي إلى التقاعس عن مواصلة العمل والكفاح..

فعلينا أن نحذر كل الحذر من العمل على زيادة النكبة واتمام الفشل بالاستسلام إلى القنوط والخور...

ساطع الحصري

ابن فضلان.. رائد الفضاء المنسي

ابن فضلان يتحدث عن قرار خطير :

لما نمي إلى سمعي أن أمما غير عربية ستنجح في المستقبل في غزو الفضاء والوصول إلى كوكب القمر ، وستتباهى بما أنجزته ، صحت غاضبا آسفا : « ياللعار ! واخجلاه ! » .

واتخذت قراراً عاهدت نفسي على تنفيذه غير آبه للتضحيات مهما كانت جسيمة ، فإذا كان الأجانب سيصلون إلى القمر فإني سأحاول الوصول إلى المريخ حتى أخرس أي لسان يجرؤ على التفاخر ، وأثبت أن العرب خير أمة ، ولذا فقد امتطيت ناقتي ، وصحت بها آمراً : « سيري في الفضاء » .

فأطاعت أمري بلا تردد ، وانطلقت تمشي في الفضاء في رحلة دامت أشهرا عانيت فيها الكثير من العناء والأهوال والأخطار ، ولكني لم أتذمر أو أندم ، فأية مشقة تبدو تافهة إذا ما قورنت بالهدف السامي الذي سأظفر به في النهاية ، وهو الحفاظ على السمعة الحضارية للعرب .

اللحظات التاريخية :

بمشيئة الله الخالق ، العلي ، القدير ، الواحد ، الماجد ، الغني ، المغني ، الحي ، القيوم ، القهار ، الغفار ، السميع ، البصير ، الوهاب ، الرزاق ، الفتاح ، الخافض ، الرافع ..

بعونه تعالى جل جلاله ، وصلت إلى كوكب المريخ ، وما أن وطأت قدماي أرضه حتى تحلق حولي عدد كبير من رجال الشرطة والجمارك ، وكلموني ، فإذا لغتهم عربية فصحى تخلو من الأخطاء الشائعة ، ففرحت كأني الشاعر أدونيس وقد بلغه نبأ فوزه بجائزة نوبل للبحوث الزراعية ، ولكن فرحي كان سريع الرحيل إذ انهالت علي أسئلتهم غزيرة صارمة :

« من أنت ؟ » .

« من أين أتيت ؟ » .

« لماذا جئت إلى بلادنا ؟ » .

« ماذا لديك من سلع محظورة ؟ » .

فأجبت عن أسئلتهم باسهاب ، مؤكدا إني قد أتيت من كوكب الأرض ، ومن الأرض العربية بالذات ، سائحا صديقا لا مستعمراً غازياً ذا نيات توسعية استيطانية ، وليس معي سوى ناقتي والثياب التي أرتديها ، فحملقوا إلي بريبة ، وفتشوني تفتيشا دقيقاً ، وحتى فمي فتشوه طويلا .

بعدئذ ، صادر رجال الجمارك ناقتي غير مبالين باحتجاجي ، قائلين إن قوانين البلاد تحظر استيراد البضائع الأجنبية ، حماية للصناعة المحلية ، ودعما لاستقلال البلاد الاقتصادي ، ثم استولى رجال الشرطة على معظم ما في جيوبي من مال ، قائلين لي إني لن أحتاج إلى مثل هذا المقدار من المال إلا إذا كنت أزمع انفاقه على أفعال مشبوهة مخالفة للقوانين ، فلم أنطق بكلمة ، واكتفيت بالابتسام .

وظللت محافظا على رباطة جأشي عندما انتزع رجال الجمارك ثيابي عن جسمي ، مؤكدين أنها أيضا تعد من السلع الأجنبية المحظورة ، ولكني قلت لهم بصوت متهدج خافت متوسل : « كيف سأسير في الطرقات ؟ ماذا سيقول الناس علي ؟ » .

فضحكوا بسخرية ، وقالوا لي : « سيظنون أنك رياضي » .

فقلت لهم وأنا أقف أمامهم خجلا شبه عار : « أنا رياضي ! من سيصدق أني رياضي وأنا هزيل عجوز وعظم بلا لحم ؟ » .

فلم يأبه أحد لقولي ، فقلت صابراً : « لا حول ولا قوة إلا بالله » .

ولكن ما جرى لم يثبط عزيمتي ، وسارعت إلى البدء بجولتي الاستطلاعية في أرجاء كوكب المريخ ، متلهفا على الاطلاع على معالمه ومعرفة أية حياة يعيشها أناسه .

رجال المستقبل الوضاء :

ولما كنت من المعتقدين أن من يعرف أطفال الحاضر يعرف رجال المستقبل ، فقد عنيت أولاً عناية خاصة بمعرفة أحوال الأطفال الذين يعيشون على سطح المريخ .

وأبهجني أنهم يكنون تقديرا عميقا للفن ، ويبيعون كتبهم المدرسية ليشتروا بثمنها بطائق لدخول دور السينما التي تعرض أفلاما مكتظة بالمسدسات والقتلى والنساء العاريات .

وقد لاحظت أن للأطفال أسلوباً مرحاً في التعبير عن براءتهم ، وهذا الأسلوب يتجلى عملياً في رجمهم نوافذ البيوت بالحجارة وشنق القطط واحراق الكلاب حية .

وإذا لعب هؤلاء الأطفال ، تبادلوا شتائم مبتكرة تنم عن ثقافة أصيلة شاملة .

وأعجبت ببسالتهم عندما علمت أن كل واحد منهم يحمل في جيبه سكينا تذبح جملا بضربة واحدة .

العلم في الصغر :

ودخلت احدى المدارس ، فإذا تلاميذها هم الناس الذين ولدتهم أمهاتهم أحراراً ، بعضهم نائم ، وبعضهم يرقص ، وبعضهم يقامر ، وبعضهم يمتحن المعلمين ، وأي معلم لا يجيب عن سؤال ما يضرب حتى يبكي ، فشهقت ، ولم أدر إن كانت شهقتي استنكاراً أو دهشة أو اعجاباً وتقديراً .





بقلم : زكريا تامر

غرائب الحياة الثقافية :

وكان من البديهي أن أطرح أسئلة كثيرة حول الحياة الثقافية ، فعلمت أن الأدباء ثلاث فئات : الفئة الأولى تتألف من أدباء طاعنين في السن ، يؤمنون أن الأدب المبدع الأصيل لا ينتجه إلا من كان يحمل لقب دكتور ، وينتمي إلى أسرة ثرية ذات حسب ونسب .

والفئة الثانية تضم أدباء يعتبرون النتاج الأدبي وسيلة للشهرة الاجتماعية ، ولنشر صورهم بأوضاع مغرية جذابة .

أما الفئة الثالثة فأدباؤها يملكون دكاكين يبيعون فيها بأسعار لاتزاحم شتى الأفكار والقيم والمبادىء والشعارات .

والنقاد أيضا هم ثلاث زمر : زمرة تنتقد الكتب نقداً مراً من غير أن تقرأها ، وزمرة تمتدح الكتب قبل أن يكتبها مؤلفوها ، وزمرة ثالثة متقيدة بالحكمة القائلة إن السكوت من ذهب ، مع أن النقاد كافة يحبون الذهب والفضة والحديد والتنك .

والتلفزيون في كوكب المريخ ذو وجود فعال مؤثر ، ويقدم برامج متنوعة ترمي إلى تبيان محاسن الجنرال زعيم البلاد ، وفتنة المذيعين والمذيعات .

كما أن المسرح هناك نوعان ، مسرح جاد ذو جمهور نائم نوما عميقا ، ومسرح يستجدي ويهرج ويقدم لمشاهديه بسخاء لحماً عارياً وكلاماً طالعاً نازلاً .

أقوال بغير أفعال :

والكلام في كوكب المريخ مقدس والفعل محتقر منبوذ مطارد ، فإذا كان قد قيل قديما إنه إذا تم العقل نقص الكلام ، فإن كثيرين من مثقفي المريخ يعارضون هذا القول بازدراء ، ويعتقدون أن العقل ينقص إذا نقص الكلام .

السلطة الرابعة :

وسألت بفضول عن أوضاع الصحافة ، فقيل لي إن الصحافة سلطة ثانية لا سلطة رابعة ، وإن الصحافيين أحرار كالغيوم ، فصرخت بحماسة : « الله أكبر ! » .

واشتريت جريدة تتألف من ثماني صفحات ، وبادرت إلى قراءتها ، فوجدتها تشتمل على الآتي :

الصفحة الأولى : الأخبار السياسية للجنرال الذي يحكم المريخ وصوره .

الصفحة الثانية : أخبار الجنرال الاجتماعية وصوره .

الصفحة الثالثة : أخبار الجنرال الرياضية وصوره .

الصفحة الرابعة : أخبار زوجة الجنرال وصورها .

الصفحة الخامسة : أخبار أقارب الجنرال وصور الجنرال .

الصفحة السادسة : أخبار أقارب زوجة الجنرال وصور الجنرال .

الصفحة السابعة : أخبار وفيات المواطنين وصور الجنرال .

الصفحة الثامنة : بريد القراء وصور الجنرال .

وقد قرأت بريد القراء باهتمام بالغ ، فإذا به يشتمل على التالي :

رسالة من شاب : « أنا أفكر في القيام بعمل مناوئ للقانون والنظام أذهب بعده إلى السجن علني أرتاح . وحتى مهما تعذبت فلسوف أرتاح أكثر من سجن البيت ، فسجن الدولة لاشك أرحم » .

رسالة من قارئ : « شد انتباهي لدي استماعي إلى الاذاعة شاعر ألقى قصيدة شاملة عن قصة نضاله وجهاده في سبيل الحصول على رخصة قيادة سيارة ، وكيف أصابه الاخفاق والاحباط المرة تلو المرة ، وأخيرا كتب الله له النصر وفاز بها » .

رسالة من حائرة : « قيل لي إني إذا قرأت شعراً حديثاً زال الشحم المتراكم على جسمي ، فهل هذا صحيح ؟ » .

رسالة من قارئ يعنى بالشؤون السياسية : « بشطحة قلم واحدة من جنرالنا المعظم وزعيمنا الملهم ، تحولت الصحراء إلى سهل أخضر ، والجفاف إلى ماء ، والحرارة إلى اعتدال ، والتخلف إلى رقي ، والجهل إلى علم » .

رسالة بلا توقيع : « هل صحيح أن الشرف حينما يتسخ يغسل ؟ » .

وأفلتت أصابعي الجريدة كأنها قنبلة موشكة على الانفجار ، واشتريت مجلة أدبية فكرية ، فإذا غلافها تحتله صورة لراقصة ترتدي ما يشبه الثياب ، فتعجبت ، وفكرت في ذلك النهج الفريد الذي تتبعه المجلة ، وخلصت إلى الاقتناع بأن الرقص في كوكب المريخ غير منفصل عن الأدب والفكر .

ثم اشتريت مجلة أخرى فنية ، وكان غلافها مزيناً بصورة رجل طويل عريض ضخم ، مفتول العضلات ، وله وجه يشبه وجه رجل قتل ألف طفل وامرأة ، فقلت لمن حولي متسائلا : « من هذا ؟ أهو ملاكم أم مصارع ؟ » .

فقيل لي إنه مغن مشهور ، فغمرني رعب خفي ، دفعني إلى التساؤل سراً : إذا كان هذا المغني فكيف سيكون القاتل ؟

ولكنـي لـم أتـراجـع ، وطـردت رعـبـي ، واستأنفت جولتي العلمية الاستطلاعية .

حملة الملاعق :

ومشيت في الطرقات ، فتنبهت إلى أن المطاعم كثيرة لا يحصى عددها ، ومزدحمة دائما بروادها ، فكأن حمل الملاعق واجب انساني خطير ، وكأن التهام الطعام مساهمة فعالة في بناء حضارة جديدة .

بعضهم يأكل بنهم ودونما توقف أو راحة ، فتضخمت المعد حتى صارت الأجسام مجرد معد فقط ، ويحلو للناس أن يقضوا الساعات الطوال في التحدث عما تساقط في بطونهم من طعام ، مسهبين في وصف الشكل والمحتوى والرائحة والنكهة والكمية .

ولابد من الاشارة إلى أن الخبز المخصص لمحدودي الدخل لا يخلو من غرابة وطرافة ، وهو المسؤول عن ازدياد عدد الناس الذين يقصدون عيادات أطباء الأسنان .

فضائل السيوف والرماح :

ودخلت إلى مقهى شعبي ، وجلست بجوار طاولة يجلس إليها عجوز وشاب يلعبان النرد .

بعد دقائق ، خاطبت العجوز والشاب ، وقلت لهما إني غريب وأرغب في معرفة شيء عن أحوال البلاد ، وقلت لهما : « أي نوع من أنظمة الحكم هو السائد في البلاد ؟ » .

فتبادل العجوز والشاب النظرات الحائرة ، ثم تكلم العجوز قائلا لي : « نظام حكمنا لا مثيل له في الأرض والفضاء » .

وتحدث العجوز مطولاً مقرظاً مادحاً حتى بح صوته . فبدا الحنق فجأة على وجه الشاب ، وقال للعجوز : « لماذا لا تختصر ؟ » .

والتفت إلي ، وقال : « أنا سأجاوب عن سؤالك وباختصار شديد ، الحكم في بلدنا لمن يملك قوة أكثر . ولهذا يعامل الناس كأنهم أسرى لاحقوق لهم » .

فغادرت المقهى مسرعا وأنا أحمد الله لأن الأرض العربية تملك سيوفا ورماحا ، ولا تملك دبابات ومدافع .

كلام الجنرال :

ونمي إلي أنه سيقام حفل جماهيري سيخطب فيه الجنرال ، فهرعت إلى الحفل مفعما بالأشواق إلى سماع ماسيقوله .

وقد تكلم الجنرال طوال ست ساعات كي يقول إن الحرية بلا قيود وضوابط ليست سوى فوضى تخدم مصلحة أعداء البلاد ، فأحسست أني لم أغادر وطني العربي لحظة واحدة ، فخلعت حذائي ، وركضت حافيا في الفضاء ، عائدا إلى الأرض .

ولما وصلت إلى بيتي ، تنهدت بأسى ، وقررت ألا أكتب حرفاً عن رحلتي الرائدة ، تاركا للأجيال القادمة مهمة الدفاع عن السمعة العربية .



بقلم : عصام شريح

ظاهرة النازية منتعشة هذه الأيام فى الكيان الصهيونى ، حيث أخذت الكهانية ، وهى صنو النازية ، بالتصاعد ، والانتشار بشكل ملفت للنظر ، وأحد الأعمدة التى تقوم عليها الكهانية النازية ، هو تنقية الكيان الصهيونى من العرق الأجنبى غير اليهودى أي الجنس العربى ، والقذف بالعرب إلى خارج هذا الكيان .

ويقول « ألوف هوربين » الباحث الاسرائيلى في مؤسسة « فان لير » بالقدس المحتلة ، « إن الدعوة لطرد العرب من اسرائيل » ، لم تعد تصدم الكثيرين من الشبان الاسرائيليين ، كما تقول صحيفة « يديعوت أحرونوت » الاسرائيلية في استطلاع للرأي أجرته فى الشهر الماضي : « إن الكهانية تنتشر بين الشباب من جميع الاتجاهات والطبقات ، وبين المتدينين والعلمانيين ، وبين اليهود الشرقيين والغربيين على حد سواء ! ! »

كما تشير استطلاعات أخرى للرأي إلى أن عشر الاسرائيليين يؤيدون أفكار الحاخام مئير كهانا النازية ، كما قال ٤٢٪ من طلاب المدارس فى اسرائيل الذين تتراوح أعمارهم ما بين ١٥ ـــ ١٨ عاماً ، إنهم يؤيدون أفكار كهانا .

وقد تظاهر أتباع الحاخام مئير كهانا بمدينة العفولة مؤخرا ، واصفينه بملك اسرائيل ، وبالمسيح (أي مخلص الشعب اليهودى من الاضطهاد والنفي) ! وفى الآونة الأخيرة ، كان هذا النازي الصهيونى ، يتحدث ذات يوم إلى صحفي أمام مبنى الكنيست بالقدس المحتلة ، عندما مرت مجموعة من ضباط الجيش الاسرائيلي ، كانت تقوم بجولة تدريبية ، وقد تعرف النصف الأخير من الصف على الحاخام كهانا ، فرفعوا قبضاتهم فى الهواء للاعراب عن تضامنهم وتأييدهم له ، ثم هتفوا بصوت واحد : « كهانا .. كهانا » وقد رد الحاخام النازي عليهم بالتلويح بقبضته عاليا في الهواء . (شعار حركة « كاخ » التى يتزعمها كهانا : هو قبضة مرفوعة إلى أعلى) . ويقول كهانا نفسه واصفاً الشعبية المتزايدة لحركة « كاخ » إن الوقت يعمل لصالحه ، وتوقع أن يفوز حزبه بما يتراوح ما بين ١٠ ـــ ١٥ مقعداً فى الكنيست القادم ، فى مقابل مقعد واحد في الكنيست الحالي يحتله هو نفسه .

النازية الهتلرية والنازية الصهيونية

وفي الواقع فإن تصاعد شعبية الحاخام مئير كهانا وحركته المسماة « كاخ » ومعناها « هكذا .. قبضة مرفوعة في الهواء تعبيراً عن القوة والبطش » لا يمكن فصلها عن واقع الكيان الاسرائيلى والحركة الصهيونية ، اللذين قاما على أسس عنصرية ونازية بحتة .

فالنازية الهتلرية ، قامت على قاعدة صفاء العرق ونقاء السلالة ، وكان الفيلسوف الألمانى « هيغل » بأفكاره العنصرية ، الوحي لهذه النازية وخلاصة أفكاره بهذا الصدد « أن لكل شعب فكرته التي تكون روحه الخاصة ، وهذه الروح الخاصة لشعب ما ، إن هي إلا مرحلة في عمر الجنس البشرى ، وقد تكون قوية إلى حد أنها تكون ممثلة للجنس البشرى في فترة ازدهارها وانتشارها ، فإذا كانت الروح اليونانية ، ثم الرومانية ، قد مثلت الروح العالمية في فترة ازدهارها ، فإن الحضارة الجرمانية ، الكامنة في روح الشعب الألمانى ، هي التى تمثل هذه الروح العالمية في الجيل الجديد ، ولذلك فإن الشعب الألماني ، يحمل عبء الحضارة الانسانية بأسرها ، وعليه أن يقود الشعوب الأخرى . وقد أعجب هتلر بهذه النظرية ، كما تأثر بالنظرية العرقية القائلة بتفوق الرجل الأبيض ، وبضرورة الحفاظ على الصفاء الدموي للجنس الأبيض ، كما قرأ كتاب الكونت « دي غوبينو » ـــ « عدم التوافق بين الأجناس » ، وكذلك ما كتبه « تشمبرلن » حول ضرورة سيادة « المدنية الأوروبية » على المدنيات الأخرى ، باعتبارها وليدة الجنس الآري ، وسيطرتها وسيادتها تتمان عن طريق الحفاظ على نقاء الدم الآري ! ! ، ومن هذه الفلسفات العنصرية خرج هتلر بنتيجة مؤداها أن الجنس الآري (الجرمائي)

كان وما يزال أصفى الأجناس البشرية وأن من حقه بل من واجبه ، أن يسود الأجناس الأخرى ويقود البشرية في تطورها ويحمي الحضارة وميراث المدنية ، ويصل هتلر إلى نتيجة أخرى في كتابه «كفاحي» ، تقول «بأن الآري ما يزال يحمل المشعل الذي ينير الطريق أمام البشر ، فإذا توارى الآري ، فسيسود الظلام ، وتنهار الحضارة الانسانية في بضعة قرون» .

وإذا كانت هذه هي الخطوط العامة للفلسفة النازية ، فإن النازية الصهيونية لا تختلف في الواقع في نظرتها الشاملة لليهود وسيادتهم ، بل ما تزعم أنه «حقهم الإلهي في السيادة على البشر» عن صنوها النازية الهتلرية . فاليهود بحسب الفلسفة الصهيونية هم شعب الله المختار ، وبقية الشعوب «الغوييم» يحتلون المرتبة الثانية في الإصطفاء الالهي المزعوم ، واليهود مخلوقون من العرق الإلهي كما يدعي كتاب التلمود ، أما بقية البشر ، فمخلوقون من نطفة حصان أو كلب ، وهذا الوضع يضعهم في مرتبة العبيد لليهود .. الخ هذه التخرصات التي ما أنزل بها الله من سلطان .

وفي خضم هذه الآراء الصهيونية النازية ، تصعد اليوم إلى واجهة الأحداث في الكيان الصهيوني ، حركة نازية منظمة ، هي «حركة كاخ» التي يتزعمها النازي الارهابي الحاخام مئير كهانا ، فما هي الكهانية النازية هذه ؟؟

أفكـــار كهانـــا

على الرغم من أن الحاخام مئير كهانا قد أصبح ظاهرة وأفكاره تياراً في الكيان الصهيوني ، فإن آراءه تتسم بالتبسيط والحدة والمغالاة والقطع ، وهذه في الواقع سمات الفكر النازي تماماً ، إلا أن أهم ما يميز أفكار الحاخام كهانا وحركته «كاخ» عن الحركات الفاشية ، وبالتالي يضعها في خانة النازية ، هو ما تنادي به هذه الافكار من صفاء الجنس اليهودي وطهارة العرق .

فعندما يقترح كهانا سن قانون جنائي يقضي بالحكم بالسجن خمس سنوات على كل فتاة يهودية تتزوج غير اليهودي ، فإنه يكون بذلك قد تجاوز الحد ما بين الفاشية العادية ، والنازية المنهجية .

ولرسم صورة أكثر دقة للنازية الكهانية الصهيونية ، تلخص أفكار كهانا العنصرية المتطرفة بما يلي :

• بالنسبة للعرب : لابد من طردهم سواء من أراضي عام ١٩٤٨ ، أو الأراضي المحتلة في عام ١٩٦٧ ، وفي ذلك يقول كهانا : إنه إذا أصبح رئيسا للحكومة أو وزيراً للحرب ، فلسوف يذهب الى العرب ، ويقول لهم إرحلوا في مقابل تعويضات مالية ، فإذا رفضوا الرحيل ، فإن اليهود سيجبرونهم على ذلك بالقوة ، وذلك عن طريق وضعهم في عربات الماشية !! بعد منتصف الليل !! والقذف بهم خارج ما يسميه «بحدود إسرائيل» ، ويضيف كهانا : وعندما يتم إخراج العرب ، فإن ما يطلق عليه إسم «أرض إسرائيل» ستتطهر من التلوث الأجنبي ، وأكثر من ذلك يطالب كهانا العرب بأن يقبلوا بأن يكونوا عبيداً «لإسرائيل» ، مستشهداً في ذلك بالحاخام «موسى بن ميمون» الذي قال : «عليهم (أي العرب) أن يكونوا في الدرجة السفلى ، وأن لا يرفعوا رؤوسهم في وجه إسرائيل ، وإنما يجب أن يكونوا خاضعين لها» !! ، وانطلاقا من هذا القول ، فإن الحل المرحلي بالنسبة للوجود العربي في الكيان الصهيوني ، كما يتصوره كهانا ، هو القبول بالعبودية «إنه يتوجب على كل عربي يريد البقاء في إسرائيل أن يقبل العبودية» ويبرر الحاخام كهانا أفكاره هذه بقوله «إن العرب لن يستطيعوا الوقوف «للنشيد الوطني الاسرائيلي» ، وترديد أشواق اليهود ، إنهم لن يستطيعوا التعايش في دولة لها قوانين لا تنطبق إلا على اليهود ...» ، وإذا بقي العرب في «إسرائيل» ، فإنهم سيلدون أطفالا ،

• دعوة إلى طرد العرب من أراضي ١٩٤٨ والأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧

• العرب يتوالدون بسرعة سوف تؤدي إلى أن يصبحوا أغلبية في الأراضي المحتلة ... ويصبح اليهود الأقلية

وسيصبحون ٣٠٪ من مجموع السكان ، وتدريجياً ستصل نسبة العرب إلى ٤٠٪ ثم يصبحون الأكثرية الساحقة ، ودون أن يحتاج العرب لخوض أية حرب ضد اليهود ، فإنهم سيتمكنون من تحويل «إسرائيل» من دولة يهودية إلى دولة عربية . ويضيف كهانا : «إن هذا هو الاحتمال الأول ، أما الاحتمال الثاني ، فهو جوابي أنا .. نقل العرب إلى خارج «اسرائيل» .

• بالنسبة لأرض فلسطين المحتلة ، والأطماع الصهيونية التوسعية في بقية الأرض العربية ، يقول كهانا بكل وضوح : «إن أرض إسرائيل تمتد من الفرات إلى النيل ، وسنحررها بالتأكيد» ، ويضيف بكل تبجح : «إن الاسرائيليين ليسوا محتلين لأرض فلسطين .. فلمدة أربعة آلاف سنة كانت هذه الأرض يهودية !! .. إنها الأرض التي سار عليها إبراهيم واسحق ، إنها أرض التوراة !! وهي الأرض التي رعى عليها داوود غنمه !!» ويزعم أيضا : «في التوراة لم يعط يهوه (اله اليهود) هذه الأرض لشعبه المختار فحسب ، بل إنه أمر اليهود بأن يعيشوا عليها ، لأن اليهودية دين يرتكز على الأرض !!» .

• وبالنسبة للديمقراطية ، يقول الحاخام كهانا بكل صراحة ، إن الديمقراطية التي هي مذهب سياسي غربي ، تتناقض كلياً مع الصهيونية : «لقد قلت مليون مرة إن الديمقراطية الغربية كما نعرفها ، لا تتلاءم مع الصهيونية ، فالصهيونية وجدت من أجل إقامة دولة يهودية ، والصهيونية تعلن أنه ستكون هناك دولة يهودية ذات أغلبية ساحقة من اليهود ، أما الديمقراطية فتقول : كلا .. إذا كان العرب أغلبية ، فلهم الحق في تقرير مصيرهم بأنفسهم .. وفي ظل الديمقراطية ، فإن للعرب الحق في التمتع بحقوق سياسية موازية لحقوق اليهود السياسية ، وهذا يعني بدوره أن للعرب حق أن يلدوا أطفالاً ، وأن يصبحوا بالتالي أكثرية السكان .. ولكن أمن «أرض اسرائيل» ، وقدر الشعب المختار ، لايسمحان بوجود عربي أجنبي فيها .. ويضيف كهانا : «لكل هذا ، فإن الديمقراطية والصهيونية تقفان على طرفي نقيض ، وأنا أقول بوضوح : إنني أقف إلى جانب الصهيونية ، وأنني أريد «دولة يهودية» وليس «برتغال» ناطقة باللغة العبرية !!» .

• بالنسبة لعدد الإسرائيليين الذين يؤيدون كاهانا ، يقول الحاخام العنصري النازي : «إن الغالبية العظمى من اليهود في «اسرائيل» ، يفكرون بما أقول ، ولكن لا توجد لديهم الشجاعة لإعلان ما يؤمنون به» . ويضيف أنه عندما انتهت الجلسة الافتتاحية للكنيست الحالي صافحني معظم أعضاء الكنيست وشدوا على يدي ، ولقد أصبت بدهشة فعلاً ، من عدد اليهود الذين يؤيدونني سراً على ما أصرح به علناً !!» .

• وبالنسبة للسلام في المنطقة ، يقول كاهانا : «لن يكون هناك سلام أبداً بين العرب واليهود ، وإذا بقي العرب في هذه البلاد (فلسطين المحتلة) ، فإنهم سيطردون اليهود إلى الخارج ، أما إذا طردنا العرب خارجاً ، فسيكرهوننا من الخارج ، وأنا أفضل جاراً حاقداً من بعيد ، على جار حاقد من قريب ، وإذا أراد عدونا أن يحولنا إلى قلعة محاصرة ، فليكن ذلك ، وربما كان ذلك صعباً لكن اليهود وجدوا الحياة صعبة لسنين عديدة ، وهذا الذي يحدث ليس عرضياً ، بل إن يد «يهوه» هي التي تحرك الأحداث وتوجهها ، ولقد إختارنا «يهوه» شعبه الخاص ، فلا يمكننا أن ننحدر إلى الأسفل !» .

قوانين كهانا النازية

يصل الحاخام مئير كهانا ذروة عنصريته وحقده على العرب ، بمشاريع القوانين التي وضعها ، تمهيدا لمطالبة الكنيست بتثبيتها وإقرارها والعمل بها كقوانين اسرائيلية نافذة المفعول ، ويقول النائب الاسرائيلي في الكنيست

ميخائيل ايتان «إن مشاريع القوانين التي وضعها عضو الكنيست مئير كهانا ، تتطابق مع قوانين نيريمبرغ النازية ضد اليهود» . فمشروع القانون الأول الذي أطلق عليه الحاخام كهانا إسم «قانون الجنسية الإسرائيلية ، وتبادل السكان يهوداً وعرباً» يذكر المرء «بقانون جنسية الرايخ» الذي سن بتاريخ ١٩٣٥/٩/١٥ في ألمانيا النازية ، والقانون الثاني للحاخام كهانا يطلق عليه اسم «قانون منع الاندماج بين اليهود وغير اليهود ، وقدسية الشعب اليهودي» !! ، وهو يذكر «بقانون حماية الدم الجرماني والشرف الألماني» الذي سن في نفس التاريخ السابق ، ومن الواضح هنا أن مشاريع القوانين التي وضعها الحاخام كهانا هي كما يقول النائب الاسرائيلي ميخائيل إيتان ، «وثيقة نازية كتبت في إسرائيل» ، ويعرب عن قلقه من هذه الوثيقة ، ولكن ليس بسبب التمييز العنصري والبلاء الصهيوني الذي تصبه على رؤوس المواطنين العرب في وطنهم وبلادهم ، وانما لأن «ملايين اليهود في المهجر ، يعيشون بسبب الحاخام كهانا في خطر دائم ، خشية أن يقوم صنو لكهانا يطالب بمعاملة يهود تلك الدول ، بمثل ما يطالب به كهانا من معاملة لغير اليهود في إسرائيل» ، مثل الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتي وبريطانيا وغيرها ، والمقارنة المنشورة على الصفحة المقابلة التى وضعها النائب ايتان توضح التطابق بين صهيونية كهانا ونازية هتلر :

دليل «كاخ» اليومي

على الرغم من أن حركة «كاخ» لا تملك حتى الآن ايديولوجية مكتوبة بشكل منهجي ، باستثناء الأفكار التي يطرحها الحاخام مئير كهانا هنا وهناك في خطبه وتصريحاته ومحاضراته ، فإن الحركة تملك مع ذلك رؤية تكتيكية واضحة ومبرمجة وهادفة ، وقد دونت في كتيب صغير يحمل عنوان «الطريق إلى النصر» ، وهو دليل يومي يستخدمه الأعضاء النشيطون في حركة «كاخ» ، ويشتمل الدليل على تعليمات وتوجيهات تدور حول كيفية استخدام أجهزة الاعلام بصورة صحيحة ، وكيفية تسيير الفروع المحلية للحركة ، واستغلال جهات وأوساط في المدن المختلفة ، لتحقيق أهداف «كاخ» ، إضافة إلى توجيهات حول الأساليب التي يمكن أن تؤدي إلى اكتساب أعضاء في الكنيست ، أو إقامة علاقات معهم لاكتساب تأييدهم لمطالب الحركة .

وقد جاء في مقدمة الكتيب أو الكراس ما يلي : «منذ سنوات عديدة وحركة «كاخ» تعرب عن آراء يألفها قسم كبير من الإسرائيليين ، ولكن الوقت قد حان لترجمة التماثل الكامن في قلوب عشرات الألوف من الاشخاص إلى نشاط يومي ، يؤدي إلى إعتراف واسع بعدالة نهج الحركة ، ولهذا السبب ينبغي على كل نشيط أن يستغل وقته بصورة ناجحة جداً» .

ويمكن تلخيص المنهج التكتيكي لحركة «كاخ» بما يلي :

١ ــ الفروع المحلية للحركة : ينبه «الدليل اليومي» إلى أهمية العمل بنشاط في المدن الصغرى والمستوطنات لاكتساب جماهيرها إلى صف حركة «كاخ» ، وخاصة في مواسم الانتخابات ، لكن على النشيطين من أعضاء الحركة ، أن يتحركوا في جميع المناسبات وليس في المواسم الانتخابية فقط كما تفعل الأحزاب الأخرى عادة . أما الموضوعات التي يجب تناولها مع الجمهور ، فيجب أن يتحاشى مثيروها الخوض في القضايا الايديولوجية الشائكة ، والتركيز في جميع الندوات والمناقشات المنزلية وغيرها ، على قضايا محددة ، وقريبة من عقول وقلوب المستوطنين ، مثل البطالة الناجمة عن العمالة العربية كما في مستوطنة «بيت شيمش» ، والمعاملة المهينة لليهود التي تصدر عن جنود قوات الطوارىء الدولية العاملة في جنوب لبنان ، كما هو حاصل في مدينة طبريا ، حيث يتردد هؤلاء الجنود الدوليون على المدينة ، ومعاناة اليهود الفلاشا في أثيوبيا باثارة هذا الموضوع أمام أقربائهم من طائفة يهود أثيوبيا بمدينة صفد ، كذلك ينبغي على النشيطين من أعضاء «كاخ» وضع طاولة في مكان بارز في كل مدينة ومستوطنة وذلك لمرة واحدة في الاسبوع ، بهدف جمع التواقيع على عريضة تتضمن مطالبة الحكومة أو الكنيست أو السلطات الأخرى بتطبيق عقوبة الاعدام بحق الفدائيين الفلسطينيين ، أو إظهار معارضة لبعض برامج التليفزيون .. الخ .. وينبغى كذلك أن يكون على الطاولة إعلان آخر ، يدعو صاحب التوقيع إلى القيام بنشاط خلال الأيام القريبة القادمة ، مثل التظاهر تأييداً لمطالب حركة «كاخ» ، والقاء محاضرات ، وعقد ندوات منزلية ، ويتوجب أن تكون الطاولة مزينة بشعارات الحركة بشكل جيد ، ومن المفضل أن يقف دائماً أمام الطاولة شاب وفتاة . ثم ينبغي توزيع مطبوعات ومواد إعلامية على جميع الذين أخذت تواقيعهم على العرائض والبيانات بشكل فوري ، والطلب إلى هؤلاء أن يتبرعوا بالأموال للفرع المحلي للحركة بهدف وصول الفرع إلى استقلال مالي كامل ، وربط الجمهور بالحركة في المدينة أو القرية ، انطلاقا من الشعور الذي يتملك المتبرعين من أن أموال فرع حركة كاخ في مدينتهم أو مستوطنتهم هي أموالهم . كما يتوجب على النشيطين من أعضاء الحركة ، أن يكونوا على اتصال مستمر مع البلدية ، والاعراب عن رأيهم في كل موضوع مطروح ، وينبغي المبادرة أحيانا إلى القيام بنشاط مقبول لدي البلدية والسواد الأعظم من الجمهور ، مثل استضافة الجنود من الجيش الاسرائيلي ، وإعلان التأييد والدعم ليهود الاتحاد السوفيتي وأثيوبيا . ويطالب الكراس الأعضاء النشيطين في الحركة ، بالقيام بجولات على البيوت «الطرق على الأبواب» ، مرة في الشهر ، لجمع التواقيع على عرائض وجمع تبرعات مالية من هؤلاء ، ثم المبادرة إلى الاتصال بالصحف المحلية والمراسلين الصحفيين ، لتغطية أي حدث يقع في المدينة أو المستوطنة أو على المستوى الاسرائيلي ككل .

أما بالنسبة «لليسار» الاسرائيلي ، ويقصد بهذا اليسار العرب بشكل عام ، والعرب المنضوين تحت لواء حزب «راكح» ، يضاف إليهم اليساريون الاسرائيليون ، وبصورة أدق الليبراليون الاسرائيليون ، فإن منهج حركة كاخ يطالب أعضاء الحركة ، بتجاهل هؤلاء أحياناً ، وتسفيه آرائهم أحيانا أخرى ، حيث يقول الكراس المذكور :

«أما مناقشة اليساريين ، فأمر غير جائز على الاطلاق ، وينبغي مقاطعتهم بجواب قصير : إنكم أعضاء في منظمة التحرير الفلسطينية ، إنكم فاشيون ، إنكم عنصريون .. الخ» ، أما الهدف من وراء إلصاق هذه التهم بهذه العناصر ، فهو أولاً عدم هدر الوقت في نقاش لا ينتظر الوصول منه إلى نتيجة مفيدة ، وثانيا إكتساب متعاطفين محتملين إلى جانب حركة كاخ ، من المقترعين في الانتخابات لحزبى «الليكود» و«هتحياه» ومن التدينيين .

بيد أن الكتيب ، لا ينسى تذكير أعضائه ، والنشيطين منهم بصورة خاصة ، بضرورة الامتناع عن ارتكاب أي مخالفة للقانون والتشاور مع المحامين في كل حالة يبرز فيها تخوف من إحتكاك مع رجال الأمن ، وكل ذلك بهدف بناء هيئة قوية لحركة «كاخ» في كل مدينة في الكيان الصهيوني ، كما يذكر الكتيب أعضاء الحركة بان الفوز في الانتخابات ، هو من نصيب الذين يمتلكون فعاليات أكبر أو نشيطين أكثر ، وهؤلاء يظهرون في حلبة الأحداث عندما يكون هناك عمل ملفت للانتباه ، ويقتضي إظهار الحماسة .

٢ ــ وسائل الاعلام : وبالنسبة لوسائل الاعلام ، يوصى الكتيب أعضاء (كاخ) بمتابعة الاحداث السياسية عن كثب ، وذلك عن طريق قراءة كل عضو نشيط في الحركة ، لصحيفة يومية واحدة على أقل تقدير ، والاستماع الى ثلاث نشرات إخبارية على الاقل ، والى شريط الأسبوع في الاذاعة ، ومشاهدة برنامج «مباط» الاخباري في التليفزيون كما يوصى بأن يكتب الأعضاء النشيطون في «كاخ» رسالة في الأسبوع موجهة لهيئة التحرير في احدى الصحف الاسرائيلية ، دون أن يشير إلى هويته الحزبية ، ومن الأهمية بمكان الإكثار من هذه الرسائل لشرح موقف كاتبها من الانتخابات العامة القادمة ،

وكيف أنه سيدلي بصوته في الانتخابات القادمة لحركة «كاخ» بدلا من أحزاب الليكود وهتحياه وموراشا، على أن يعلل تحوله هذا عن تلك الأحزاب لصالح «كاخ» بحدث واقعي، ويوصي الكراس أيضا بالتركيز في كتابة هذه الرسائل، على الصحف التالية: «يديعوت أحرونوت»، «هآرتس»، و «جيروزاليم بوست»، وعلاوة على هذه الصحف، ينبغي نشر رسائل أو مقالات في الصحف المحلية الصادرة في المدينة أو المستوطنة، كلما لاحت فرصة لذلك.

أما الاذاعة، فمن واجب أعضاء حركة «كاخ» النشيطين: المشاركة في البرامج الاذاعية التي يتصل فيها المستمعون بالأستوديو، واستغلال هذه البرامج لبث دعاية لصالح الحركة، مثل استغلال «برامج التعارف» بحيث يتم الاتصال بالأستوديو لتوجيه سؤال إلى الشاب أو الفتاة حول ما إذا كانا مستعدين للزواج من عربي، أو إثارة بعض «الجرائم الجنسية التى إرتكبها العرب ضد اليهود!!». أما برنامج الاذاعة المعروف «بيننا وبين أنفسنا» فهو البرنامج الأكثر أهمية لأعضاء «كاخ»، ومن المهم أن لا يكشف المتصل بالبرنامج عن هويته الحزبية كعضو في حركة «كاخ»، وانما يطرح موضوعاً إجتماعيا أو إقتصاديا مثل إضراب المعلمين أو غيره من الموضوعات المشابهة.

وبالنسبة للتليفزيون، فينبغي الإكثار من الرسائل إلى أسرة التحرير أو المشرفين على إدارته ضد اعتماد التليفزيون سياسة التمييز بين الأحزاب، وارفاق ذلك بالأمثلة، ولأن التليفزيون الاسرائيلى لا يجد منافسة من محطات أخرى، فإن من المهم الإكثار من المطالبة بإقامة تليفزيون تجاري في رسائل موجهة لأعضاء الكنيست، وخاصة الأعضاء منهم في أحزاب الليكود وهتحياه والأحزاب الدينية، وإذا صدر عن أي عضو كنيست رد فعل ايجابي على الرسائل الموجهة إليه بصدد التليفزيون التجاري أو غير ذلك من القضايا السياسية والاجتماعية، فينبغي توجيه رسالة شكر وتأييد له، لأن الهدف هو تغيير رأي هذا النائب. أما رسائل النقد الموجهة للنواب، فينبغى أن تتسم بالتهذيب حتى وإن صيغت عباراتها بشكل لاذع. ومن المهم أن تستهل الرسالة بالإعراب عن تعاطف كاتبها مع هذا النائب والاشارة إلى أنه منحه صوته في الانتخابات الماضية، ويستحسن إضافة عبارات التهنئة على مبادرة ايجابية قام بها عضو الكنيست هذا في الماضى كما تنطبق هذه المواصفات على المكالمات الهاتفية مع أعضاء الكنيست، وينبغى القول دائما «إنك تتكلم باسم هيئة صغيرة، حتى وإن كان أعضاؤها أنت وزوجتك فقط». (أنظر الملف ــ المجلد الثاني ــ العدد ٣)

على أيه حال، فان الحاخام كهانا الذي اكتفى برسم الاطار التكتيكي العنصرى النازي لحركة أو حزب «كاخ» والذي يشبه النازية حتى بحركة التحية «قبضة مرفوعة في الهواء» تعبيراً عن القوة والعنف، ليس بحاجة إلى عقيدة، لأن الصهيونية النازية الحاقدة هي بحد ذاتها عقيدة «كاخ». وما يميز الصهيونية الكهانية النازية عن حزب العمل أو حتى الليكود، هو أن الكهانية تتكلم بوضوح ودون مواربة، وبعيداً عن لغة الدبلوماسية، ومتعرجات السياسة، بيد أن الحاخام كهانا، إنما يمثل بأفكاره النازية التفكير الصهيوني الأصيل والرسمي. فيما يحاول الكهانيون الآخرون من أمثال شمعون بيريس وأريئيل شارون وإسحق شامير وإسحق رابين وغيرهم من قادة «اسرائيل» اخفاء حقيقتهم الكهانية النازية، وراء ستار من دخان السياسة والدبلوماسية الكاذب، وقد شهد شاهد من أهلهم عليهم، حيث قال الصحفي والسياسى «الليبرالى» «يوري أفنيرى»: «إنني أعرف بأن الحاخام كهانا لا يتكلم باسمه فحسب، وإنما بإسم أولئك الذين يجلسون على قمة أحزاب العمل والليكود وهتحياه والمفدال، أولئك الذين يؤيدون ويدعمون كهانا في جميع تصرفاته وتصريحاته فلقد بحثوا عن شخص يقوم عنهم بهذه الأعمال القذرة، فوجدوه في شخص كهانا. ويبقى أن نقول إن الكهانية هى أعلى مراحل الصهيونية النازية، وهي مغامرة غير مأمونة العواقب، ولكنها لابد منها للصهيونية، في ظل المآزق الخانقة التي.. نعيشها منذ سنوات؟

عصام شريح

مقارنة بين الكهانية والنازية

قانون كهانا	القانون النازي
١ ـ تقام شواطىء منفصلة للاستحمام لليهود، ولغير اليهود، ويعاقب بالسجن لمدة ستة أشهر، كل من يتواجد في الشاطيء المخصص لأبناء الشعب الآخر.	١ ـ يحظر على اليهود الدخول إلى حمامات السباحة العامة، وفي أماكن الاصطياف والمنتجعات، يجب الفصل بين اليهود وغير اليهود، ولهذا السبب يجب تخصيص فنادق وبنسيونات منفصلة للنزلاء اليهود.
٢ ـ لا يمكن لغير اليهودى أن يعين في منصب سلطوي في «دولة اسرائيل» ولا يستطيع غير اليهودي: التصويت في انتخابات الكنيست أو أية هيئة رسمية وشعبية أخرى. وعلى غير اليهودى أن يتعهد بدفع الضرائب والقبول بالعبودية، وإلا فإنه سيطرد بالقوة من «اسرائيل».	٢ ـ لا يمكن لليهود أن يصبحوا مواطنين في الرايخ، وليس لهم حق الاقتراع السياسى، ولا يمكنهم تولي مناصب عامة.
٣ ـ لا يحق لغير اليهود أن يسكنوا ضمن حدود منطقة القدس.	٣ ـ الشقق المؤجرة لليهود في كل من برلين وميونخ لا يعاد تأجيرها لهؤلاء دون إذن خاص..
٤ ـ محظور على الرجال والنساء اليهود في «اسرائيل»، التزاوج مع غير اليهود، سواء كان ذلك في «البلاد» أو في الخارج، ولن يعترف مطلقا بمثل هذا الزواج المختلط.	٤ ـ محظور على المواطنين الألمان ذوي الدم الألماني أو ذوي الدم القريب منه، التزاوج مع اليهود، وأي زواج عقد خلافا لهذا القانون، هو زواج باطل، حتى لو عقد في الخارج.
٥ ـ محظور على اليهود واليهوديات من «مواطنى اسرائيل»، إقامة علاقات زواج كاملة أو جزئية من أي نوع كان، مع غير اليهود، وينطبق هذا الحظر على أي علاقات خارج إطار الزواج أيضا، ويعاقب بالسجن لمدة سنتين كل من يخالف ذلك كما يعاقب بالسجن لمدة خمس سنوات، غير اليهودي الذي يقيم علاقات زواج مع يهودية.	٥ ـ محظور على الألمان (ذوي الدم الالماني أو القريب منه) التزاوج مع اليهود. كما أنه لا يحق لليهود أن يستخدموا في منازلهم، خدماً من الألمانيات تقل أعمارهن عن ٤٥ عاماً.
٦ ـ جميع مؤسسات التعليم في «أرض اسرائيل» تكون منفصلة لليهود، ولغير اليهود.	٦ ـ محظور على التلاميذ اليهود أن يتلقوا العلم في مدارس ألمانية، ومسموح لهم بذلك فقط فى مدارس يهودية.
٧ ـ تلغى المصايف، وجميع المؤسسات المختلطة في «اسرائيل».	٧ ـ يمنع إشتراك تلاميذ وتلميذات من غير العرق الآري (الجرماني)، من زيارة بيوت الشباب الالمان.

لماذا لا نحتفل بالعيد الذهبي لصدور كتاب "حياة محمد"؟

بقلم: حافظ محمود


محمد حسين هيكل


معروف الرصافي


طلعت حرب

كنت قد اقترحت فى حديث إذاعى أن تحتفل المحافل الفكرية ، عربية واسلامية ، خلال سنة ١٩٨٥ بالعيد الذهبى ــ أى بمرور خمسين عاماً ــ على ظهور كتاب « حياة محمد » الذى صدر للدكتور محمد حسين هيكل سنة ١٩٣٥ فكان أول كتاب من نوعه يغير موازين الفكر الذى كان سائراً فى الجيل الجديد على الساحة الثقافية العربية فى تلك المرحلة .

كانت جامعة القاهرة قد أخذت طابعها الرسمى سنة ١٩٢٥ ، وكانت أبرز كليات الجامعة فى تلك المرحلة هى كلية الآداب التى كانت تعكس على الساحة الفكرية فلسفات طه حسين ومصطفى عبدالرازق ومنصور فهمى وغيرهم من نوابغ الأساتذة الجدد الذين كانوا يحاولون ، داخل الجامعة وخارجها ، فتح ثغرة بين تلال الجليد الفكرى بحركة مقاومة عمادها الفلسفات المعاصرة ، وكانت هذه المحاولة البريئة فى أصولها والجريئة فى بعض ماتفرع عليها ، قد أوجدت تياراً من الصراع الظاهر أو المستتر بين الفكر القديم وبين الفكر الجديد ، وفى هذا الصراع اختلفت بعض المفاهيم التى استثمرها بعض المفكرين المحدثين لكى يظهروا بأفكارهم على الفكر القديم ، كما استثمرها بعض دعاة أو رعاة الفكر القديم ليدقوا ناقوس الخطر على الأصالة الفكرية من الأفكار التى كانوا يسمونها « الأفكار الوافدة » ليصرفوا النظر عما بها من حتميات التطور .

ولقد بلغ هذا الصراع مبلغاً ذهب فيه خيال الناشئة ، وربما غير الناشئة أيضاً ، الى تقسيم المفكرين مدرستين : مدرسة إيمانية تصون قيم التراث والتاريخ ، ومدرسة إلحادية تبشر بالفلسفات الجديدة التى نشرها غلاة الفكر الأوربى المعاصر تحت مظلة حضارة القرن العشرين .

ولقد امتدت هذه المعركة الفكرية ، بطبيعة الحال ، من القاهرة الى حواضر الوطن العربى الكبير ، وكان الشباب المقبل على التعليم ، بحكم تكوينهم ، مع ماسمى بالمعاصرة ، مما جعل المنصفين يتخوفون على المستقبل الفكرى أو القيمى للمغالين من هؤلاء الشباب .

قصة كتاب

يومئذ أشعل كاتب فرنسى هذه الموجة فنشر كتاباً بلغته الفرنسية عن « حياة محمد » ، وكانت



د . هيكل والشيخ مصطفى عبد الرازق



محمد مصطفى المراغي



جان جاك روسو



بدايات هذا الكتاب مشجعة ، مما حفز الدكتور محمد حسين هيكل الى ترجمة بعض الفصول الأولى من هذا الكتاب للنشر في جريدة « السياسة الأسبوعية » ، ثم مالبث أن تبين في الفصول التالية أن المؤلف الفرنسي قد أصيب بالشطط عن إدراك طبيعة التاريخ المحمدي ، وأدرك هيكل بحاسته الاسلامية أن هذا التاريخ بحاجة الى عرضه عرضاً علمياً موضوعيا يوقف تيار هذه الظنون الأجنبية . فتحول من ترجمة الكتاب الفرنسي الى نقده نقداً موضوعيا ، ومن خلال هذا النقد الموضوعي تجمعت لدى الدكتور هيكل أصول كتابه عن « حياة محمد » .

لماذا الإحتفال ؟

ويظهر كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل سنة ١٩٣٥ أخص أركان المدرستين اللتين أشرنا اليهما أنهما على طريق المصالحة بين القديم والجديد الذي تتقابل فيه الأصالة مع المعاصرة ... وما إن بدأ الدكتور هيكل بنشر فصول كتابه بجريدة « السياسة الأسبوعية » حتى انهالت عليه أسباب التشجيع ، فطلعت حرب زعيم مصر الاقتصادي إذذاك يعلن له استعداد « مطبعة مصر » وهي إحدى شركات بنك مصر لطبع هذا الكتاب . والناشرون يعرضون خدماتهم على المؤلف ، وقمم الأزهر الشريف تسانده ، وكان أكبر مظهر من مظاهر هذه المساندة أن الامام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ المراغي تولى بنفسه كتابة المقدمة لهذا الكتاب .

ولقد كانت هذه كلها هي حيثيات اقتراحي بالاحتفال بالعيد الذهبي لكتاب « حياة محمد » لأن هذا الكتاب كان نقطة تحول عن مخاطر الاندفاع وراء بعض الفلسفات الحديثة الوافدة بلا تمحيص إلى إقامة فكر عربي اسلامي متجدد لا يغمط حقاً لقديم أو جديد صالح ، وأحسب أن هذا المعنى كان سبباً في أن تقبل مني جامعة الأزهر فكرة هذا الاحتفال تحت رعايتها مما أتوقع أن يتم ، باذن الله ، في الخريف القادم .

المصالحة بين القديم والجـــــديد

ولعل في مقدمة الدلائل على أن ظهور كتاب « حياة محمد » للدكتور هيكل سنة ١٩٣٥ لم يكن مجرد نشر كتاب جديد قيم ، إنما كان بداية حركة فكرية عربية جديدة تجمع بين الأصالة والمعاصرة ، أن قادة الفكر في مصر وشقيقاتها قد سارعوا إلى متابعة هذا الطريق الذي بدأه هيكل فاذا بطه حسين يصدر كتابه « على هامش السيرة » وإذا بالعقاد يصدر كتابه « عبقرية محمد » وإذا بأعلام الفكر العربي في كل مكان يساهمون في هذه الحركة المباركة .

وعلى أثر ظهور كتاب « حياة محمد » دعي مؤلفه الدكتور هيكل لزيارة السعودية ، وبينما كان الرجل في دار النبوة بالمدينة المنورة ، هداه الله لفكرة كتابه الاسلامي الثاني ، الذي أسماه « في منزل الوحي » . وكان هذا الكتاب فتحاً جديداً في حياة الدكتور هيكل نفسه ، فمن عوائده بنى لنفسه منزلاً جميلاً بعد طول معاناة مع الزمن ، مما جعله يفكر في تسمية هذا المنزل باسم « منزل الوحي » ، ثم تعارضت هذه الفكرة مع تواضعه العلمي وحسه الإيماني فعدل عن هذه الفكرة ، ورأى خيراً منها أن يستأنف المسيرة في تحديث التاريخ الاسلامي ، فأخرج كتاب « الصديق أبوبكر » ثم كتاب « الفاروق عمر » . وكان معتزماً أن يتم تحديث سير الراشدين لولا أن الأحداث السياسية التي كان يعيشها مع جماهير الوطن العربي حملته على أن يضع موسوعته السياسية التي أسماها « مذكرات في السياسة المصرية » في ثلاثة أجزاء موسعة ظهر الجزء الثالث منها بعد وفاته .

● الشيخ المراغي يتحمس لكتاب حياة محمد ويقدمه للقراء

● كتاب في منزل الوحي نجح نجاحا رائعا وعاد على مؤلفه بثروة مكنته من بناء بيت كبير

لماذا لا نحتفل بالعيد الذهبي لصدور كتاب حياة محمد؟

مع هذا فإننا نقف في هذا الكتاب السياسي أمام ذات القيم التي نلاحظها في كتبه الإسلامية ، فلقد أرخ لأحداث السياسة في عصره بدقة لا تخلو من النقد الذاتي حتى لشخصه وللحزب الذي انتمى إليه ثم تولى رياسته . وتلك روح جديدة لم نجدها في مذكرات أي سياسي آخر ، لسبب بسيط : هو أن العقلانية كانت تطغي على ما عداها من الأغراض السياسية .. وتلك هي ألمع نقطة في تاريخ الدكتور هيكل الذي لم تؤثر كل مناصبه على عقلانيته .

قلعة ثقافية

وفي تحليل شخصية الدكتور هيكل المفكر نجد أن هذه الشخصية قد تبلورت منذ أصدر كتابه « ثورة الأدب » في أواسط العشرينات . فأنت تقرأ في هذا الكتاب كاتباً أكثر نضجاً من مؤلف قصة « زينب » ومن مترجم « اعترافات جان جاك روسو » ... وفي رأيي أن قصة « زينب » التي اعتبرها النقاد فتحاً لباب الرواية المصرية أو العربية الحديثة ليست إلا صيحة للنقد الاجتماعي من جانب مفكر شاب مستنير يريد الاصلاح كما كانت ترجمته لكتاب « اعترافات جان جاك روسو » صرخة من صرخات هذا النقد استناداً إلى ما جاء في اعترافات روسو من تعرية صريحة لمن كانت تحيطهم الهالات .

أما كتاب « ثورة الأدب » فكان بمثابة النداء الذي وجهه الدكتور هيكل لبناء قلعة فكرية جديدة تصد الأعاصير عما في الماضي والحاضر من نقاء فكري لا يلوثه شطط ولا جور .

وربما كانت الأفكار التي عاشها الدكتور هيكل في إعداد كتاب « ثورة الأدب » ذات دخل كبير في اصدار جريدة « السياسة الأسبوعية » في الثالث عشر من شهر مارس سنة ١٩٢٦ . وهي الجريدة الثقافية الخالصة للفكر الجديد الذي يحترم جانب الثقافة وحده في الفكر القديم بل ربما كانت « السياسة الأسبوعية » هي التي روجت لمعاني « الثقافة » الواضحة التي كانت غير منضبطة الوضوح من قبل ، فالتف حولها الجيل الفكري الجديد من الشباب الذين حيرهم الماضي فوجدوا فيها أنفسهم . وظهر من بينهم طلائع الفكر المحدثون أمثال نجيب محفوظ وغيره من الطلائع الذين صاروا أعلاماً .

ولقد كانت لنهضة « السياسة الأسبوعية » أسبابها . ومن هذه الأسباب أنها كانت أول جريدة ثقافية لها مراسلون في جميع أنحاء الوطن العربي الكبير : فاستجاب هذا العالم معها فكنت تقرأ على صفحاتها شعر شاعري العراق العظيمين . الزهاوي والرصافي ، وشعر ونثر أديب سورية جميل مردم ، وتحقيقات المفكر السوري الجليل سامي الكيالي ، وغيرهم من قادة الفكر العربي في المشرق والمغرب . فلا غرابة في أن يكون توزيعها خارج مصر موازياً لتوزيعها داخل مصر حوالي ستين ألف نسخة في مرحلة العشرينات التي كان أكبر أرقام توزيع الصحف فيها لا يتجاوز العشرين ألف نسخة .

وكان من أمجاد جريدة « السياسة الأسبوعية » برياسة تحرير الدكتور هيكل أنها هي التي دعت إلى انعقاد أول مؤتمر للأدباء العرب . وهو المؤتمر الذي انعقد بالقاهرة في شهر مايو سنة ١٩٢٧ تحت عنوان « مهرجان شوقي » . وقد أشار سعد زغلول إلى هذا المعنى في كلمته التي ألقيت في افتتاح هذا المهرجان الفريد الذي اشترك فيه قادة الفكر من كل أنحاء العالم العربي بالاجماع .

لقد كانت هذه الجريدة الثقافية الهيكلية مدرسة تركت بصماتها على الأجيال الفكرية التالية . ولقد أخطأ الدكتور هيكل ، وربما اضطراراً ، حينما أدخل عليها مادة السياسة الحزبية تحت وطأة الظروف السياسية العنيفة التي مرت بمصر في الثلاثينات . ومع هذا الخطأ فقد تركت هذه الجريدة للأجيال التالية مسلسلات هيكل وطه حسين والمازني وغيرهم في عالم الفكر الحر .

ولما كنت من تلاميذ هذه المدرسة فقد كان لزاماً علي أن أضع هذه الصورة على حقيقتها أمام الأجيال الصاعدة ليبحثوا فيها عن تاريخ الفكرة الثقافية العربية لعل فيها ما يتسلحون به فكرياً لمستقبل فكري أفضل .

حافظ محمود

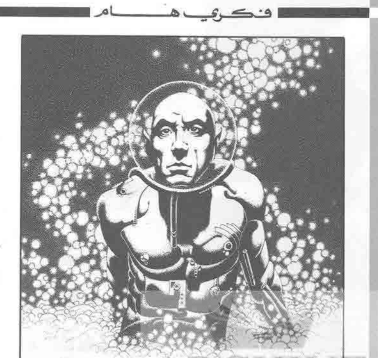
الدكتور محمد حسين هيكل في سطور

- ولد محمد حسين هيكل في التاسع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٨٨٨ ببلدة « أبو الشقوق » باقليم الدقهلية بمصر .
- أتم تعليمه العام بمدينة المنصورة عاصمة الاقليم ، ثم التحق بمدرسة الحقوق بالقاهرة . وتخرج فيها سنة ١٩٠٩
- حصل على الدكتوراه في الحقوق من جامعة باريس ١٩١٢ على رسالة موضوعها « الدين المصري العام » فكان أول من نال الدكتوراه في بلاده .
- رفض الوظائف الحكومية ، وعمل محامياً ، لا في القاهرة بل في المنصورة عاصمة اقليمه .
- تولى كرسي الاستاذية في مادة « القانون الدستوري » بالجامعة المصرية القديمة في سني الحرب العالمية الأولى .
- أسس مع صفوة من زملائه في أعقاب الحرب « الحزب الديمقراطي » ثم اندمج هذا الحزب الشبابي مع غيره في تنظيمات ثورة ١٩١٩ بمصر .
- تولى رياسة تحرير جريدة السياسة عند صدورها في نهاية اكتوبر سنة ١٩٢٢ ... وكان أحد أعضاء هيئة الصياغة بلجنة وضع الدستور المصري الذي صدر في ١٩ ابريل سنة ١٩٢٣ .
- أصدر جريدة « السياسة الأسبوعية » عن « شركة السياسة في ١٣ مارس سنة ١٩٢٦ » .
- عين عضواً بمجلس الشيوخ سنة ١٩٣٦ .. وفي سنة ١٩٤٢ تولى زعامة المعارضة بالمجلس .. وكان في نفس الوقت عضواً بمجمع اللغة العربية .
- عين وزيراً للدولة أول يناير سنة ١٩٣٨ ثم اختير وزيراً للمعارف .
- في ٩ يناير سنة ١٩٤٢ انتخب رئيساً لحزب الأحرار الدستوريين فكان أول من تولى رياسة الحزب بالانتخاب .
- تولى رياسة مجلس الشيوخ ١٩٤٥ – ١٩٥٠ وفي هذه الفترة عقد بالمجلس أول اجتماع لوفود البرلمانات العربية لتشكيل الاتحاد البرلماني العربي ، ثم اختير رئيساً لمؤتمر الاتحاد البرلماني الدولي في إحدى دوراته ، وهي الدورة التي انعقدت بمصر .. وكان في نفس الوقت رئيساً لوفد مصر لدى الأمم المتحدة . ومن أشهر أعماله فيها مشروع « إعادة تدوين الأخلاق الدولية » ومشروع « إعادة النظر في المعاهدات غير المتكافئة » وقد حاربت دول الاستعمار هذين المشروعين بضراوة .
- في ١٧ يونيو سنة ١٩٥٠ صدر المرسوم الملكي بعزله من رياسة مجلس الشيوخ بسبب حمايته لاستجواب الحكومة في قضية « الأسلحة الفاسدة » .
- توفي في الثامن من شهر ديسمبر سنة ١٩٥٦

أشهر مؤلفاته هي :

- قصة « زينب » وقد أخرجتها السينما المصرية إخراجين وأحرز الاخراج الثاني جائزة مهرجان السينما العالمي في برلين الغربية .
- ترجمة « اعترافات جان جاك روسو »
- تراجم مصرية وغربية .
- عشرة أيام في السودان
- في أوقات الفراغ
- في منزل الوحي
- ثورة الأدب
- حياة محمد « طبع ست عشرة طبعة »
- الصديق أبو بكر
- الفاروق عمر
- مذكرات في السياسة المصرية
- قصة « هكذا خلقت »

فكري هام



حقيقة الانتحار الذي تندفع إليه البشرية!

● شتاء بارد قارس، ومجاعة لاتعرف الرحمة!

في هذا العام ١٩٨٥ يكون قد مرت أربعون سنة على مأساة مدينتي هيروشيما ونجازاكي اللتين ضربتا بقنبلتين ذريتين منذ أربعين سنة . وعلى الصفحات التالية تقدم الدوحة ملفاً فكرياً هاماً يتناول في الجزء الأول منه قصة « الشتاء النووي » الذي يمكن أن تتعرض له الحياة على الأرض بعد قيام أي حرب نووية محتملة ، والذي سوف يؤدي إلى برد قارس ومجاعة شاملة وينتهي بالقضاء على كل البشر وكل مظاهر الحياة من نبات وحيوان .. وفي الجزء الثاني من الملف دراسة عن الآثار الطبية لأي حرب نووية حيث ينتهي البحث الطبي إلى نفس النتيجة وهي أن الحرب النووية معناها انقراض الحياة البشرية فوق الأرض ، فهل يتعلم البشر من هذه الحقائق المثيرة المؤلمة .. قبل أن تقع الكارثة ؟! وهل تشهد السنوات القادمة يقظة حقيقية للضمير والعقل فتتوقف جهود الدمار لتتحول إلى جهود من أجل حماية الحياة وحل مشاكل الإنسان ؟!

هذا هو السؤال .



الشتاء النووي

خطر يهدد الإنسانية

بقلم: الدكتور عامر شيخوني

اقتربت سفينة الفضاء من كوكب المريخ وازداد النشاط في مركز المراقبة الأرضية وازداد الحماس .. فقد اقترب حلم الانسانية القديم من التحول إلى حقيقة واقعة . انشدت أنظار المراقبين إلى شاشات التصوير وهم يشاهدون لأول مرة سطح هذا الكوكب الصديق الذي طالما حلم العلماء والكتاب بزيارته ومشاهدته عن كثب .. والآن هاهي سفينة الفضاء تقترب منه وترسل إلى الأرض صوراً تليفزيونية عن تفاصيل سطحه الغريب .. وفجأة .. ظهرت غمامة هائلة من الغبار كادت أن تغطي سطح الكوكب بكامله ، وحجبت وراءها تفاصيل سطح المريخ وتضاريس أرضه الحمراء الجافة . ضاعت فرصة نادرة طال انتظارها .. وفتر الحماس وبردت الهمم في حين تابعت سفينة الفضاء إرسال نتائج دراساتها وقياساتها .. لدى دراسة هذه القياسات لاحظ العلماء انخفاضاً ملحوظاً في درجة حرارة سطح المريخ تحت غمامة الغبار في حين ارتفعت حرارة الأجواء العليا من سمائه ..! وقد فسرت هذه التغيرات بأن هذه السحابة الهائلة من الغبار قد قامت بامتصاص أشعة الشمس وحرارتها فارتفعت حرارة الأجواء العليا من سماء المريخ ، في حين حجبت أشعة الشمس وحرارتها عن الوصول إلى سطح الكوكب فانخفضت حرارته . كانت هذه الملاحظة من أوائل الدراسات التي لفتت نظر العلماء إلى أهمية الغبار في طبقات الجو .

في شهر آذار ـ مارس ـ من سنة ١٩٨٢ استيقظ بركان سانت هيلين في أمريكا ، وأطاح انفجاره بالثلث الشرقي من الجبل القديم وأحاله إلى سحابة كبيرة من الغبار .. انتشرت سحابة الغبار بسرعة فوق القسم الشمالي الغربي من الولايات الأمريكية وتحول النهار إلى ليل في المناطق المجاورة للبركان حيث حجب الغبار الشمس واضطر الناس هناك إلى استعمال الأنوار الكهربائية في عز الظهر . وهنا أيضاً لاحظ العلماء انخفاضاً شديداً في درجة الحرارة على سطح الأرض في تلك المناطق ، واضطر الناس لاستعمال التدفئة وارتداء الألبسة الثقيلة في عز الربيع .! ترسب الغبار على سطح الأرض خلال أيام قليلة وعادت أشعة الشمس الدافئة إلى إنعاش الحياة من جديد .وسجل العلماء ملاحظة أخرى أشارت إلى عمق التغير الذي يحدثه الغبار في درجة الحرارة على سطح الأرض . بعد ذلك بشهر واحد انفجر بركان آخر في المكسيك : وفي هذه المرة تابع العلماء قياساتهم لدرجات الحرارة وانتشار الغبار في طبقات الجو . ولاحظوا أن هذا الغبار البركاني الدقيق قد انتشر حول الكرة الأرضية بكاملها خلال ثلاثة أسابيع فقط ! وثارت أسئلة جديدة محضة : ماذا سيحدث إذا تجمعت كميات كبيرة من الغبار والدخان في طبقات الجو على مر الزمن بسبب تلوث البيئة والصناعة ، ما الذي سيحدث على سطح الكرة الأرضية من انخفاض في درجة الحرارة إذا طرأ ما يسبب انتشار كميات كبيرة من الغبار في طبقات الجو ؟ بل ما الذي سيحدث إذا قامت حرب نووية وشبت حرائق هائلة في كافة أرجاء المعمورة وعم الدخان والغبار في الجو وحجب عنا الشمس ؟ هل ستنخفض درجة الحرارة على سطح الأرض وتتحول الفصول إلى شتاء مستمر ؟ وكم سيدوم هذا الشتاء النووي الخطير ؟

نتائج الحرب النووية

كانت أكاديمية العلوم الملكية السويدية تتابع دراساتها النظرية عن تأثير الانفجارات النووية على طبقات الجو العليا ، وتركز بشكل خاص على التغيرات في تركيز غاز الأوزون فيها . وقبل أن تنتهي دراساتهم هذه بأشهر قليلة قرروا دراسة التغيرات في كمية الدخان في طبقات الجو العليا نتيجة الحرائق الواسعة المدى التي يتوقع حدوثها في أية حرب نووية . وعندما استخدموا الطرق النظرية والحسابية ذاتها فوجئوا بالنتائج ... فقد أظهرت حسابات الكومبيوتر أن حدوث حرب نووية في أوربا ستؤدي إلى حرائق شديدة في مساحات واسعة تكاد تساوي مساحة أسكندنافيا بكاملها .. وأن هذه الحرائق الهائلة ستنتج كميات ضخمة من الدخان الذي يمكن أن ينتشر بسرعة في طبقات الجو فوق أوربا وأمريكا وروسيا .. وأن هذا الدخان الكثيف سيحجب أشعة الشمس ويؤدي إلى

● ألف مليار دولار يصرفها العالم كل سنة على الأسلحة النووية

● مخزون الأسلحة النووية يصل حالياً إلى ١٥٠٠٠ «ميجاطن» يكفي تفجير مائة منها للقضاء على الجنس البشري

انخفاض شديد في معدل درجات الحرارة إلى ماتحت درجة التجمد لفترة قد تستمر ستة أشهر كاملة من الشتاء القارس ..!

إثر تزايد الحديث عن «الشتاء النووي» في الأوساط العلمية المهتمة بدراسة الطقس والبيئة ، قامت وكالة الفضاء الأمريكية في سان فرانسيسكو بدراسة هذه الظاهرة. وهنا أيضاً قام جهاز الكومبيوتر بحساب كافة الاحتمالات النظرية الممكنة والنتائج التي يمكن أن تترتب على حدوث حرب نووية يتم خلالها تفجير ثلث الاحتياطي العالمي من الأسلحة النووية (وهذا ما يقدر الآن بحوالي ٥٠٠٠ ميجاطن) . أظهرت هذه الدراسات أن حرباً نووية على هذا المستوى ستؤدي إلى حدوث حرائق هائلة في المدن والغابات ومناطق البترول .

وأن هذه الحرائق ستنتج كميات ضخمة من الدخان الذي سيرتفع بتأثير الحرارة إلى طبقات الجو العليا ويحجب أشعة الشمس عن سطح الأرض بحيث لا يصل إلينا أكثر من واحد بالمائة من الطاقة الشمسية التي تصلنا الآن ..! وأن هذا سيؤدي إلى انخفاض معدل درجة الحرارة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية إلى ماتحت الصفر.. وأن هذا البرد الشديد سيستمر حوالي ستة أشهر كاملة من الشتاء المعتم القارس ...!

إثر انتشار نتائج هذه الدراسات في الأوساط العلمية ، قامت أكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو سنة ١٩٨٢ بدراسة تفصيلية مشابهة درست خلالها نتائج حدوث حرب نووية عالمية .. وتوصل العلماء الروس أيضاً إلى أن الدخان الناتج عن الحرائق الهائلة التي ستنشب في أوربا وأمريكا سيؤدي إلى انخفاض معدل درجة الحرارة في النصف الشمالي من الكرة الأرضية حوالي ١٥ إلى ٥٠ درجة مئوية تحت الصفر..! وأن هذا الشتاء النووي القارس سيستمر فترة ثلاثة إلى ستة أشهر كاملة !..

أثارت هذه النتائج المتماثلة قلق العلماء في كافة أنحاء العالم ، وتصدت بعض الآراء لانتقاد هذه





الدراسات والطعن في استنتاجاتها ، وخاصة من الأوساط السياسية التي أقلقها هذا الخطر الجديد الذي يكمن وراء استعمال الأسلحة النووية .. إذ يبدو الآن وللمرة الأولى في تاريخ العالم أن خطر استخدام السلاح لقهر العدو في الحرب لن يكون محدوداً في مجال التدمير ، ولن يكون محدوداً في منطقة استعمال الأسلحة ، بل سيمتد ليشمل مناطق كثيرة من العالم .

وإذا كانت هذه الحسابات النظرية صحيحة فإن استعمال الأسلحة النووية على نطاق واسع قد يكون بمثابة انتحار شامل للجنس البشري بما يسببه من تغيرات خطيرة في الطقس قد تكون وخيمة العواقب على كافة الأرجاء دون تمييز بين محايد أو مغلوب أو منتصر ..! وهكذا . بالنظر إلى أهمية هذه المشكلة في تحديد استراتيجية السياسة الدولية ، كلفت الحكومة الأمريكية المركز القومي لأبحاث الطقس في ولاية كولورادو بدراسة ظاهرة الشتاء النووي بشكل مفصل ودقيق .

ويعتبر هذا المركز من أكثر مراكز أبحاث الطقس تقدماً في العالم وأكثرها تجهيزاً بالعقول الالكترونية وأجهزة القياس الحديثة . قام العلماء في مركز الأبحاث هذا برسم دراسة مفصلة أخذت في اعتبارتها وجود المحيطات والشواطئ وخطوط الطول والعرض وتغيرات الرياح والتيارات البحرية في برنامج دقيق استخدم فيه الكومبيوتر وكمية هائلة من المعلومات عن معدل درجات الحرارة في كافة أرجاء العالم . درس العلماء في هذا البرنامج النتائج التي يمكن أن تنشأ عن حرب نووية يتم خلالها تفجير ثلث الاحتياطي العالمي من الاسلحة النووية ، وافترضوا أن هذه الحرب ستنشأ في فصل الصيف .. وكانت النتائج مذهلة في برودتها ..! فقد توصلوا إلى ان مثل هذه الحرب ستؤدي فعلاً إلى انخفاض معدل درجات الحرارة إلى حوالي ١٥ درجة مئوية تحت الصفر وخاصة في أوربا ، وأن هذا الشتاء النووي سيبدأ تقريباً في اليوم الثامن من الحرب ، وأنه سيستمر من ثلاثة إلى ستة أشهر بحسب المنطقة الجغرافية من العالم ..! وأن النصف الشمالي من الكرة الأرضية سيتأثر أكثر من النصف الجنوبي بسبب أن الحرب ستحدث غالباً في الشمال الأكثر سكاناً والأكثر تناقضاً . ولكن هذا لن يكفل الحماية لسكان النصف الجنوبي من الأرض لأنهم سيتأثرون أيضاً خلال اسبوعين أو ثلاثة حالما ينتقل الدخان في طبقات الجو العليا عبر خط الاستواء ويحجب الشمس عن جنوب الكرة الأرضية أيضاً ! كما قدروا أن الاختلاف الكبير في درجات الحرارة بين اليابسة والماء في المحيطات سيؤدي إلى عواصف ورياح عاتية ستغمر الشواطئ وتغرقهابالمطر والثلج والعواصف الرعدية الهائلة .. ولعل أكثر مايثير الاهتمام في نتائج هذه الدراسة هو أنهم عندما أعادوا حساباتهم ودرسوا النتائج المحتملة لاستعمال واحد بالمائة فقط من الأسلحة النووية الموجودة الآن في العالم واستخدام هذا المقدار في قصف المدن بشكل خاص فقد توصلوا إلى أن الشتاء النووي الذي يمكن أن ينتج سيماثل في شدته وطوله الشتاء النووي الذي يمكن أن ينتج عن استخدام ثلث الاحتياطي العالمي من الأسلحة النووية .!

التقرير المخيف

اهتم علماء البيئة في جامعة كورنل في نيويورك بهذه النتائج بشكل خاص . ودرسوا احتمال التغير الذي يمكن أن يحصل في البيئات المختلفة في العالم تحت ظروف الشتاء النووي . وكان تقريرهم مخيفاً في نتائجه واستنتاجاته ..! فقد قدروا أن انخفاض معدل درجة الحرارة إلى ماتحت درجة التجمد . وحجب أشعة الشمس مدة ثلاثة أو ستة أشهر سيؤدي إلى القضاء على المحاصيل الزراعية وعلى النباتات بشكل عام ..! واستطاعوا اثبات ذلك في دراسات مخبرية قاموا خلالها بتعريض النباتات الزراعية المختلفة إلى ظروف البرودة وقلة الضوء التي يتوقع حدوثها في الشتاء النووي .. وبالفعل فقد ماتت هذه النباتات خلال أيام قليلة ..! وهذا يعني القضاء على المحاصيل الزراعية وعلى النباتات ، إنه يعني المجاعة الشاملة .. لأن موت النباتات يعني موت الحيوانات التي تعتمد عليها ..

وهكذا لن يكون خطر الاشعاع النووي هو الخطر الوحيد الذي سيتعرض له الإنسان الذي سينجو من الفناء أثناء الانفجار النووي ، بل سيتعرض هذا الإنسان أيضاً إلى البرد القارس وإلى المجاعة الشاملة القاتلة ..!

وعند قراءة تقرير علماء البيئة في جامعة كورنل عن الشتاء النووي يخطر للمرء أن النجاة من المجاعة آنذاك قد تكون ممكنة باللجوء إلى المحيطات حيث يتوفر الغذاء في الأسماك والحيوانات البحرية ، أو باللجوء إلى الغابات الاستوائية حيث يتوفر الغذاء في الفاكهة والنباتات وحيوانات الغابة .. إلا أن التقرير يتابع رسم الصورة الباهتة البشعة لمستقبل الانسان بعد الحرب النووية .. فقد توصلوا في دراساتهم إلى أن برودة الشتاء النووي وحجب أشعة الشمس ونورها عن الوصول إلى سطح هذا الكوكب بسبب الدخان في طبقات الجو سيؤدي إلى القضاء على الكائنات الحية المجهرية الدقيقة الموجودة في المحيطات والتي تشكل الحلقة الأولى في سلسلة الغذاء في الماء .

وهذه الكائنات الدقيقة تعتبر مصدر الغذاء الرئيسي للحيوانات والنباتات البحرية الأكبر منها مثل صغار السمك والرخويات المختلفة التي تعمر البحار .. وتشكل هذه الكائنات البحرية بدورها مصدر الغذاء للكائنات البحرية الكبيرة .. وهكذا تتابع سلسلة الحياة في الماء بدءاً من نور الشمس .. ! فاذا تم القضاء على الكائنات البحرية الدقيقة بسبب عدم توفر ضوء الشمس فإن هذا سيؤدي تدريجياً إلى القضاء على الحياة البحرية كما نعرفها اليوم .. ولن تستمر المحيطات في كونها مصدراً كريماً للغذاء لا يعرف النضوب ..!

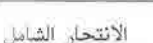
هذا بالاضافة إلى أن الأعاصير والعواصف الهائلة التي ستشمل الشواطئ والبحار بسبب الاختلاف الكبير في درجات الحرارة بين اليابسة والماء ستجعل اللجوء إلى المحيطات أمراً مستحيلاً آنذاك .

الغابات والديناصورات

وماذا عن الغابات الاستوائية الوفيرة الخيرات الغنية بالفاكهة والألوان ؟ تظهر دراسات البيئة أن هذه النباتات الوارفة الظلال الضخمة الأشجار لاتمتد في الحقيقة على تربة غنية كما يظن المرء للوهلة الأولى ، بل تعتمد على وفرة الرطوبة والأمطار وضوء الشمس في تلك المناطق بالاضافة إلى امكانية هذه النباتات والحيوانات في الاستفادة من بعضها بكفاءة خارقة . وقد توصل علماء البيئة عملياً إلى إدراك مدى رقة وحساسية الغابات الاستوائية عندما حاول الانسان استعمار غابات الأمازون في البرازيل ظناً منه أن تحت هذه الغابات الوارفة تربة خصبة لابد وأنها ستنتج محاصيلاً زراعية رائعة .. وبعد أن قطعت الأشجار ومسحت الغابات اتضح أن سماكة التربة تحتها لاتزيد عن بضعة سنتيمترات ، وأن هذه التربة ليست غنية وغير صالحة للزراعة التقليدية ..! ولذا يعتقد علماء البيئة في جامعة كورنل بأن الشتاء النووي سيؤدي إلى تغيرات خطيرة في درجة الحرارة والرطوبة والرياح وكمية الأمطار في المناطق الاستوائية ، وأن هذه التغيرات ستؤدي بدورها إلى القضاء على هذه الغابات الحساسة بكل مافيها من فاكهة وغذاء ..!

توصل علماء المستحاثات مؤخراً إلى تفسير الغياب المفاجئ للديناصورات عن سطح الأرض ..! فمنذ ملايين السنين كانت الديناصورات الجبارة تسيطر على الأرض ، وكانت هذه الزواحف الكبيرة تعيش على النباتات في وقت كانت فيه الغابات الهائلة تملأ الأرض .. وكانت

بعض هذه الزواحف حيوانات لاحمة تتغذى بأكل الحيوانات الأخرى ولا يكاد ينجو أحد من بطشها وجبروتها .. وخلال فترة قصيرة نسبياً من عمر الأرض المديد إختفت كل هذه الحيوانات العملاقة واختفت معها كل النباتات الضخمة ..! ولدى دراسة الحفريات والمستحاثات دراسة مستفيضة دقيقة لاحظ العلماء أن طبقة من التراب الناعم المتجانس يبلغ سمكها حوالي ثلاثة سنتيمترات تغطي بقايا هذه الحيوانات الضخمة ، وأن كل أثر للديناصورات اختفى بعدها ..! وكان التفسير الذي توصل إليه العلماء أخيراً في سنة ١٩٨٠ أن الأرض قد تعرضت في تلك الفترة القديمة من تاريخها إلى قصف متتابع من النيازك الهائلة على نطاق واسع ، وأن هذا القصف القادم من الفضاء قد أدى إلى تصاعد كميات كبيرة من الغبار إلى طبقات الجو العليا ، وأن هذا الغبار قد حجب ضوء الشمس ودفئها عن سطح الأرض فترة طويلة يصعب تحديدها .. إلا أن هذا الحجب كان كافياً لحدوث شتاء بارد طويل ماتت خلاله مساحات ضخمة من غابات الأرض ونباتاتها ، ومن ثم قضى على الحيوانات التي تتغذى عليها ، وعلى الحيوانات اللاحمة فيما بعد ... وفي فترة المجاعة الشاملة يتم القضاء أولاً على الحيوانات الكبيرة التي تحتاج إلى كميات كبيرة من الغذاء كالديناصورات التي غابت عن الوجود بسبب هذا « الشتاء الفضائي » ..! فقد ترسب الغبار تدريجياً بفعل جاذبية الأرض وغطى بقايا الحيوانات والنباتات الميتة .. وعادت أشعة الشمس تغمر بدفئها الأرض وتنعش الحياة من جديد .



والآن .. بعد أن عرفنا ماعرفناه عن احتمالات القضاء على الحياة تحت ظروف الشتاء النووي .. لايتمالك الانسان إلا أن يتساءل : هل سيقضي الانسان على وجوده وربما وجود الحياة ذاتها على سطح هذا الكوكب ؟ إن تفجير واحد بالمئة فقط من الأسلحة النووية الموجودة الآن في العالم يمكن أن يلقي بالأرض في سبات بارد طويل من الشتاء النووي .. شتاء بارد معتم سيقضي على الانسان والحيوان والنبات .. وربما أتى بعده ستار من الغبار والدخان يغمر الأرض فوق بقايا جنسنا البائد كما غمر الديناصورات الضخمة من قبلنا .. وتعود الحياة من جديد .. بأشكال جديدة ربما تكون أكثر منا نجاحاً وذكاء وحكمة .

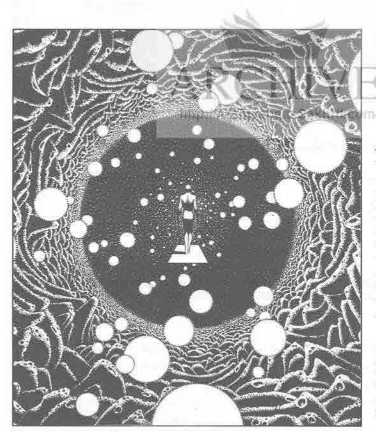
ولنتأمل قليلاً في هذه الأرقام : يصرف العالم الآن حوالي ١٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠ دولاراً كل عام على الأسلحة النووية ، ويعمل حوالي ثلث علماء الأرض في أبحاث ودراسات تتعلق بهذه الأسلحة الفتاكة .. ويبلغ مخزون العالم من الأسلحة النووية حوالي ١٥٠٠٠ ميجاطن يكفي أن يفجر الانسان منها ١٠٠ ميجاطن للقضاء على الجنس البشري .. ولنفكر قليلاً فيما يمكن أن يحدث لحضارة الإنسان من تقدم وازدهار فيما لو صرفت هذه الأموال ووضعت هذه العقول والخبرات في خدمة الانسانية ..!

نقف الآن أمام فترة تاريخية حاسمة من تاريخ وجودنا .. فقد بلغت قدرة الانسان حداً يمكنه من القضاء على نفسه وإبادة جنسه وربما إبادة كثير من المخلوقات على اليابسة وفي البحار والمحيطات ... وفي الحرب النووية لن يكون هناك غالب أو مغلوب أو متفرج محايد .. بل سيكون انتحاراً شاملاً .. وسيشمل البلاء كل العالم ويهددنا جميعاً بالفناء في دمار الانفجارات النووية وفي إشعاعاتها القاتلة ، ثم في شتاء بارد مظلم طويل ومجاعة لاتعرف الرحمة .

سألني علامة حلب صديق والدي المرحوم خيرالدين الأسدي ذات يوم : هل تدري سبب تغير الطقس هذه الأيام ؟ فكما ترى لم يعد الشتاء شتاءاً ولا الصيف صيفاً .. قلت : لا . وظننت أنه سيكرر لي تلك النغمة المعهودة التي يحبها كبارنا بأن كل شئ كان أفضل في زمانهم مما هو عليه الآن في زماننا حتى الطقس والفصول والسماء ..! ولكنه قال بصوته الخافت البطيء : إنها تلك الانفجارات النووية التي يقوم بها الروس والأمريكان . وصمت . كان ذلك قبيل وفاته سنة ١٩٦٧ كما أعتقد . لم نكن نعلم حينها أي شئ عن الحروب النووية أو عن الشتاء النووي ..

وربما صدر ذلك التعليق منه عن احساس العليم أوحدس المتمرس الحكيم . وتابعت السير وحدي في الشارع الطويل . كانت الشمس تقترب من المغيب وتغطي السماء في الأفق البعيد بألوان زاهية واحمرار هادئ جميل وتغمرني بدفئها الربيعي اللطيف . أكاد أحس ببراعم العشب الصغيرة تحاول جاهدة أن تمد رؤوسها بين ذرات التراب كي تنعم بدورها بهذا الدفء والنور الحنون .. ورائحة الأزهار الذكية والأرض الندية تملأ المساء بالأمل ... وتذكرت قوله تعالى في كتابه الكريم : « واتقوا فتنة لاتصيبين الذين ظلموا منكم خاصة » صدق الله العظيم .

عامر شيخوني



على اللوحة الرخامية التى تتصدر مقابر ضحايا هيروشيما حفرت هذه العبارة منذ اربعين عاماً «ناموا فى سلام .. لأن هذا الجرم لن يتكرر مرة أخرى».
ترى هل مازال العالم وفيا بوعده أم أن هذه الرغبة الوقتية تحولت الآن إلى تهديد ؟ !

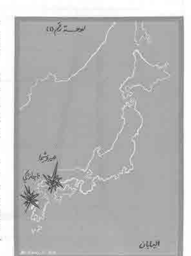
في ذكرى مرور ٤٠ سنة على ضرب هيروشيما ونجازاكي بالقنابل الذرية

ناموا في سلام فالجريمة لن تتكرر مرة أخرى

هذا ما كتبوه بعد مذبحة ١٩٤٥ ولكن الخطر يطل على العالم من جديد في هذه الأيام

بقلم: الدكتور سامي عزيز

تشير تقارير الأكاديمية القومية للعلوم «بواشنطن» إلى أن تعرض الولايات المتحدة الأمريكية لهجوم نووي في حدود ٦٥٠٠ ميجاطن سوف يعرض ٤٦ مليون أمريكي إلى جرعة اشعاع تعادل ١٠٠ «راد» .. وفي ضوء الدراسات التي أجريت على هيروشيما وناجازاكي (لوحة رقم ١) يتوقع الخبراء أن تصل نسبة الوفيات إلى ٢٨,٠٠٠ سنوياً ولمدة ٢٥ عاماً نتيجة الاصابة باللوكيميا (سرطان كريات الدم البيضاء) أومايعادل ٧٠٠,٠٠٠ خلال المدة كلها ويمثل الأطفال ١٦٠,٠٠٠ من اجمالي وفيات اللوكيميا .



خريطة توضح موقع مدينتي هيروشيما وناجازاكي

التأثير المباشر

يؤكد العلماء أن ٥٠٪ من الطاقة التى تنتج عن الأسلحة النووية الحديثة (١٠ ميجاطن مثلا) تكون في صورة ارتفاع شديد في الضغط .. وهذا الارتفاع في الضغط يتدفع من مركز الانفجار في جميع الاتجاهات بسرعة قد تفوق سرعة الصوت .. وتستطيع موجة الضغط أن تنتقل إلى مسافة ستة أميال (١١ كيلومترا) في نحو ٣٠ ثانية ويبلغ خلالها معدل الضغط ٣ طن لكل متر مربع . وبالمقارنة نجد القنبلة التى القيت على هيروشيما باليابان أحدثت ضغطاً مكافئاً ولكن لمسافة ميل واحد فقط. ونتيجة لهذا الارتفاع الهائل في الضغط تتحطم الأجسام الخشبية والزجاجية ومعظم الهياكل الخرسانية وتتحول إلى قذائف ذات سرعة عالية مما يتسبب في وفاة نحو ٥٠٪ من السكان الموجودين داخل نطاق دائرة نصف قطرها ستة أميال ... وهذه المنطقة يطلق عليها عادة « المنطقة المميتة » وتبلغ مساحتها اكثر من ١٠٠ ميل مربع . ونظراً لليونة أجسام الأطفال بالمقارنة إلى البالغين نجد اصابتهم نسبيا تمثل أعلى المعدلات . وتتبع موجة الاختلال في الضغط هبوب رياح ذات سرعة عالية مما يزيد من معدلات الاصابة والموت وتتسبب هذه الرياح في انتشار النيران التي لابد وأن تتبع الانفجار النووي .

حرارة الانفجار النووى

تخرج ٣٥٪ من طاقة الانفجار النووي في صورة حرارة (طاقة حرارية) وهنا تقترب درجة الحرارة من درجة حرارة الشمس . أى مايعادل ملايين الدرجات المئوية .

فعند انفجار قنبلة هيروشيما مثلا ارتفعت درجة الحرارة خلال ٣ ثواني إلى مايعادل درجة حرارة الشمس ، وإلى مسافة ٢ ميل من مركز الانفجار ، ونتيجة لذلك احترقت اجزاء الجلد المكشوفة لكل آدمي موجود على مسافة ٢ إلى ٣ ميل من مركز الانفجار .

وتقدر الأبحاث أن انفجار قنبلة ١٠ ميجاطن سوف تحدث حروق من الدرجة الثالثة بنسبة ٥٠٪ لكل آدمي موجود على مسافة ١٠ إلى ١٥ ميلا من مركز الانفجار . ويمكننا أن نقول أن ٩٠٪ من حالات الوفاة النووية التى حدثت بعد انفجار قنبلة هيروشيما وناجازاكي ترجع إلى التأثير الحراري واختلال الضغط الذى صاحب الانفجار .

الاشعاع المصاحب

أما الجزء المتبقى من طاقة الانفجار ويقدر بنحو ١٥٪ فيخرج على صورة اشعاع متأين . وهذا الجزء من الطاقة مسئول عن ١٠٪ إلى ٢٥٪ من الوفيات التى تحدث فيما بعد ، وتنصف هذه الوفيات ينتج عن الاشعاع ومايسببه من حروق وموت للخلايا وخاصة خلايا النخاع الشوكى والجهاز العصبي

● ماهو التأثير المباشر للانفجار النووي؟
● إلى أي مدى ترتفع درجة الحرارة وقت الانفجار النووي؟

والجهاز الهضمي خلال الأيام القليلة التى تلى الانفجار (تصل جرعة الاشعاع من ٦٠٠ إلى ٢٠٠٠ راد) والمعروف أن تعريض الجسم البشري إلى ٤٥٠ راد لمدة ٣٠ يوما تعتبر جرعة مميته بنسبة ٥٠٪ في حين أن جرعة ٦٠٠ راد تعتبر مميته بنسبة ٩٥٪ .. أما الأطفال فتعتبر جرعة ٢٥ إلى ١٠٠ راد ذات آثار جانبية خطيرة لذلك فالشخص البالغ السليم عند تعرضه لجرعة ٢٠٠ راد لا يصاب بأى ضرر في حين أن هذه الجرعة نفسها تعتبر مميته في الأطفال وصغار السن .

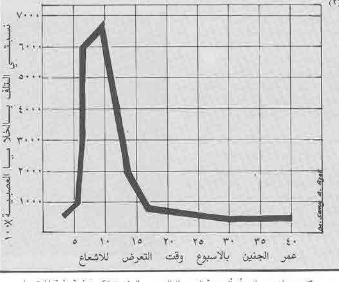
التأثير المبكر

في الأسابيع القليلة الأولى التى تلى الهجوم النووي ... تحدث ايضا بعض الوفيات من أثر الاشاعات المتبقية التى تصل قوتها من ١٥٠ إلى ٤٥٠ راد وتعرف « بالجرعات تحت المميتة » أو « الجرعات المتوسطة » وايضا نتيجة لانتشار الأوبئه والأمراض المعدية وسوء الصرف الصحي ، والمعروف أن تعرض النخاع العظمى والغدد الليمفاوية للاشعاعات يتسبب فى حدوث : نزيف (نتيجة نقص الصفائح الدموية) ، وتسمم دموي ، واضطراب الجهاز المناعي للجسم . لذلك فالشخص الذى تعرض للاشعاع يكون عرضة للموت لمجرد تعرضه للانفجارات المتوسطة وحدوث بعض الاصابات والحروق . وحتى لوعاش فهو عرضه للاصابة بالعديد من الأمراض المعدية كالملاريا والكوليرا والتيفود والالتهاب السحائي وغيرها من الأمراض التى تنتشر نتيجة تراكم الجثث وسوء الصرف الصحي . كما أن التقرحات التى تحدث بطول الجهاز الهضمي نتيجة التعرض للاشعاع تعرضه للاصابة بالتسمم الدموى وحدوث اسهال وقيء متكرر وفقدان للشهية واضطراب الجهاز الهضمي عامة ، لذلك تتميز المرحلة المبكرة للانفجار النووى بانتشار حالات الجفاف وسوء التغذية ، بالاضافة إلى التأثير السيكولوجي الخطير الذى ينعكس على كل من عاش لحظات الانفجار النووى من هلع ورعب .

التأثير المتأخر

يشمل التأثير المتأخر للانفجار النووى العديد من المشاكل التى غالبا ما تنتهى بالوفاة وأهمها السرطانات كاللوكيميا وسرطان الثدى فى الإناث وسرطان الغدة الدرقية خاصة بين من كانوا أطفالاً وقت حدوث الانفجار النووي بالإضافة إلى التغيرات الوراثية الخطيرة التى قد تمتد آثارها إلى العديد من الأجيال التى تعقب الانفجار النووى . ويهمنا هنا أن نؤكد أن معظم التقارير التى لدينا حالياً هي حصيلة الدراسات التي أجريت على سكان هيروشيما وناجازاكي ، إلا أن هناك بعض المحاولات الاجتهادية لتقدير الآثار التى قد تنتج عن استخدام الأسلحة النووية الحديثة مع الفارق الكبير طبعاً فيما تحتويه من كميات هائلة من النيترونات ، وبالتالى قد يكون الدمار اكثر بكثير مما نتصور .

وتعتبر الدراسة التى قامت بها « الوكالة الامريكية لدراسة آثار القنبله الذرية » التى تأسست سنة ١٩٤٦ بتكليف من « الأكاديمية القومية للعلوم » بواشنطن من أكبر الدراسات التى اجريت على سكان هيروشيما وناجازاكي .. تشمل الدراسة ٨٢٫٠٠٠ نسمة يمثلون من عاشوا بعد القاء القنبلة وكانوا على مسافة ٢٠٠٠ متر من مركز الانفجار وتم مقارنتهم بمن كانوا على مسافة ٢٥٠٠ إلى ١٠٫٠٠٠ متر من مركز الانفجار ، ويمكن تلخيص هذه الدراسة فى النتائج الآتية :



يؤكد «بلوت وميلر» أن أنسجة الجهاز العصبي للجنين تكون في قمة قابليتها للتلف إذا ما تعرضت للاشعاع في الفترة من ٦ : ١٦ أسبوعاً من عمر الجنين

التأثير الاشعاعي على الأجنة

تم دراسة تأثير الاشعاع على المواليد الذين تعرضوا للإشعاع الذرى وهم أجنة ، وكما يبدو من الجدول رقم (١) أنه تم تقسيم الحوامل إلى مجموعتين على الأساس الآتي :

المسافة بالكيلومتر بين مركز الانفجار ومكان تعرض الحامل للاشعاع .

وجود أو عدم وجود آثار التسمم الاشعاعي على الحامل كالحروق ونزيف اللثة والقئ والاسهال .

ويبدو من الدراسة أن نسبة وفيات المواليد اجماليا بلغت ٤ر٤٩٪ في المجموعة الأولى ، التى كانت على مسافة صفر إلى ٢ كيلو متر من مركز الانفجار ، والتى ظهرت عليها علامات الاشعاع .

أما نسبة الوفيات في المجموعة الثانية التى كانت على مسافة ٤ إلى ٥ كيلومترات من مركز الإنفجار ، فبلغت اجماليا ٢ر٦٪ ، أى أنها أقل من المجموعة الأولى سبع مرات .

من هنا نستطيع أن نقول أن نسبة الوفيات في المواليد تتناسب مع جرعة الاشعاع التى تعرضت لها الأم أثناء حملها ، وبالاضافة إلى ذلك وجد انخفاض ملحوظ في معدلات الطول والوزن بين أطفال هيروشيما وناجازاكي بالمقارنة إلى ذويهم في مناطق أخرى من اليابان لم تتعرض للاشعاع .

ولكن ...

تعرض الجنين للاشعاع الذرى ... هل يؤدى إلى التخلف العقلي ؟

تشير الدراسة التى أجراها «بلوت وميلر» على أن ١٦١٣ر١ من أطفال هيروشيما وناجازاكي تعرضوا للاشعاع وهم أجنة في أرحام أمهاتهم ، وتم تتبع حالتهم حتى بلغوا ١٧ سنة ... فتبين أن غالبيتهم غير قادرين على اجراء العمليات الحسابية البسيطة أو التحدث بطريقة طبيعية ، أو العناية بأنفسهم ، وتفيد الدراسة أن نسبة التخلف العقلي في ناجازاكي تزيد ١٢ مرة عن المعدل الطبيعى في المناطق التى كانت على مسافة ٣٠٠ إلى ٥٠٠٠ متر من مركز الإنفجار ولم تزد قوة الاشعاع فيها عن ٥٠ راد .. أما المناطق التى تعرضت إلى ١٠٠ راد فإن نسبة التخلف العقلي زادت بمعدل ٥٢ مرة عن المعدل الطبيعي ، وقد وجد أن ٢٨ من بين ٣٠ طفلاً متخلفاً يعانون من صغر حجم الدماغ .

ويؤكد «بلوت وميلر» أن أنسجة الجهاز العصبي للجنين تكون في قمة قابليتها للتلف اذا ما تعرضت للاشعاع في الفترة من ٦ إلى ١٦ اسبوعاً من عمرها (لوحة رقم ٢) .

كما تبين «لوود» في دراسة أخرى أن ١١ من بين ٢٤ مولوداً لأمهات كن على مسافة ٢٠٠ر١ متر من مركز الانفجار في ناجازاكي يعانون من صغر حجم الدماغ ، ولكن اثنين فقط من بينهم يعانيان من التخلف العقلي .

وتشير الدراسات إلى أن أقل جرعة لحدوث التخلف العقلي هى ٢٥ ـــ ٥٠ راد .. أما الجرعات من ١٠ إلى ٥٠ راد فتحدث صغر حجم دماغ المولود ، وهذا يفسر لنا السبب في حدوث حالات بها صغر حجم الدماغ دون التخلف العقلي .

● الإشعاع النووي .. كيف يؤثر على أجهزة الجسم المختلفة؟

● هل تكون أجيالنا القادمة متخلفة عقليًا أم مصابة باللوكيميا وكتراكت العين؟

التأثير الاشعاعي على المولود

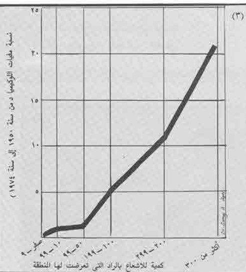
(١) اللوكيميا : تشير الدراسات إلى ارتفاع نسبة حدوث مرض اللوكيميا (سرطان كريات الدم البيضاء) بنوعيه الحاد والمزمن بين سكان ناجازاكي وهيروشيما الموجودين حاليا . وتؤكد الأبحاث أن حدوث اللوكيميا من عدمه يتوقف على مقدار جرعة الاشعاع (لوحة رقم ٣) كما وجد أن معظم من أصيبوا باللوكيميا كانوا دون العاشرة وقت الانفجار (لوحة رقم ٤) إلا أن اعراض المرض لم تبدأ في الظهور إلا بعد خمس سنوات من وقت التعرض للاشعاع .

(٢) سرطان الغدة الدرقية وغيرها : العديد من السرطانات وجدت بين من عاشوا من سكان ناجازاكي وهيروشيما وبمعدلات تفوق المعدل الطبيعى .. وأهم هذه السرطانات : سرطان الغدة الدرقية ، سرطان الثدى في الإناث ، سرطان الرئة ، سرطان المعدة . وتظهر هذه السرطانات عادة بعد مرور ١٥ ـــ ٢٥ سنة من وقت التعرض للاشعاع ، كما تبين أنها تكثر بين من كانوا أقل من ١٩ سنة وقت الانفجار .

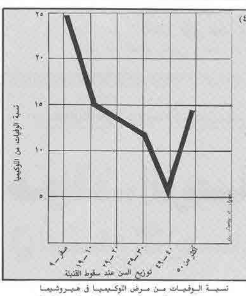
وعند دراسة سرطان الغدة الدرقية في ناجازاكي وهيروشيما اتضح أن نسبته تفوق ١٢ مرة المعدلات الطبيعية ، وعادة يبدأ المرض في الظهور بعد مرور ١٥ سنة من التعرض للاشعاع ، وغالبا ما يصيب من كان عمرهم أقل من ٩ سنوات وقت الانفجار ، كما ينتشر في كل من تعرض لجرعة اشعاع مقدارها (٥٠ راد) وهو عادة أكثر انتشارا في الاناث عن الذكور .

أما سرطان الثدى فيزيد بمقدار ٦ مرات عن المعدلات الطبيعية ، وخاصة في الإناث اللاتى كن في سن ١٠ ـــ ١٩ سنة وقت حدوث الانفجار ، وعادة ما يبدأ في الظهور بعد مرور ٢٠ سنة من الإنفجار .

(٣) نسبة الوفيات عامة : تشير الدراسات التي قام بها «مورياما وجيرالنك» إلى



نسبة وفيات اللوكيميا في هيروشيما وناجازاكي من سنة ١٩٥٠ إلى سنة ١٩٧٤ بالمقارنة إلى كمية الاشعاع بالمواد التي تعرضت لهـا المنطقة



نسبة الوفيات من مرض اللوكيميا في هيروشيما وناجازاكى بالمقارنة إلى السن وقت سقوط القنبلة

ارتفاع معدل الوفيات بين من تعرضوا لجرعة اشعاع تزيد عن ١٠٠ راد أو أكثر .. وتجدر الاشارة الى أن مجموعة من أطفال هيروشيما يتروح عمرهم بين ١٠ — ١٤ سنة وقت انفجار القنبلة ، في هذه المجموعة وجد أن ٨٦٪ فقط من الذين تعرضوا لجرعة ١٠٠ راد مازالوا أحياء حتى سنة ١٩٨٠ . في حين أن المعدل الطبيعى للوفيات خلال هذه الفترة من العمر لا يزيد عن ٨٪ ، أى أن نسبة الوفيات في هيروشيما وناجازاكي بلغت ضعف المعدلات الطبيعية .

أيضا في هيروشيما وناجازكي ارتفع معدل الوفيات بين الاناث اللاتي كن وقت انفجار القنبلة ما بين ١٠ إلى ١٤ سنة . وهذه المعدلات العالية للوفيات يرجح أنها تعود إلى السرطانات المختلفة التى تنتج عن التعرض للاشعاع النووي .

(٤) اعتام عدسة العين (الكتراكت) : ترتفع نسبة الاصابة بمرض الكتراكت بعد حوالي ١٠ سنوات من وقت التعرض للاشعاع . ويتوقف حدوث المرض على كمية الاشعاع التي تعرض لها الفرد . وقد وجد أن الاصابة بالكتراكت تنتشر بين الأطفال خاصة من كان عمرهم أقل من خمس سنوات وقت انفجار القنبلة .

والجدول الآتي يبين نسبة الاصابة بالكتراكت في هيروشيما ونجازاكي :

المسافة بالكيلومتر من مركز الانفجار	نسبة الاصابة في الأطفال
١	٦٥٪
١ ـ ٢	١٤٪
أكثر من ٢	صفر٪

جدول رقم (١)

نسبة الوفيات بين المواليد الجدد والأجنة الذين تعرضوا لقنبلة ناجازاكي باليابان

المجموعة	المسافة بالكيلومتر عن مركز القاء القنبلة	ظهور علامات الاشعاع	عدد الحوامل	عدد (نسبة): مولود ميت أو اجهاض		عدد (نسبة): الوفيات بين المواليد الجدد	
الاولى	صفر ـ ٢	+	٣٠	٧/٣٠	(٢٣،٣)	٦/٢٣	(٢٦،١)
الثانية	٤ ـ ٥	—	١١٣	٣/١١٣	(٢،٦)	٤/١١٠	(٣،٦)

التأثير الاشعاعي على الصفات الوراثية

تشير الدراسات التي أجريت سنة ١٩٧٩ على سكان هيروشيما وناجازاكي إلى أن العديد من التغيرات الصبغية (الكروموسومية) تحدث في خلايا الجهاز الليمفاوي وخلايا النخاع الشوكي ، وتشمل هذه التغيرات : انتقال الجينات (العوامل التي تتحكم في الصبغات) من أماكنها فيما بين الكروموسومات ، تشوه الكروموسومات وغيرها .

وتؤكد الدراسة انتشار التشوهات الخلقية في ٩٠٪ من السكان الذين كانوا على مسافة ٥٠٠ متر من موقع الانفجار .

والجدير بالذكر أن نسبة حدوث هذه التشوهات ترتفع مع زيادة جرعة الاشعاع . لذلك ينعدم حدوثها في المناطق البعيدة عن مركز الانفجار .

من هنا يتضح أن التأثير الاشعاعي على المدى الطويل يؤدي إلى :

ـ ظهور اللوكيميا وغيرها من السرطانات .
ـ احداث التغيرات الصبغية (الكروموسومية) ومايتبع ذلك من عيوب خلقية وتشوهات وصفات غير مرغوب فيها في الانسان وغيره من الحيوانات الثديية .

لذلك فالمأساة لم تنته وستظل آثارها قائمة ..

ترى هل لا زلنا أوفياء لضحاياها أم أننا ننتظر هيروشيما جديدة ؟!

سامي عزيز

يواصل عميد الأدب العربي القومي الكاتب الكبير أكرم زعيتر في هذا الفصل الجديد مذكراته وذكرياته الرائعة مع الشاعر العربي الراحل بدوي الجبل في قصائده وتجاربه النضالية المختلفة

بدوي الجبل.. وإخاء أربعين سنة

مواقف الرجال في أيام الأزمات

بقلم: أكرم زعيتر



الشاعر الكبير بدوي الجبل مع كاتب المقال

قام العقيد أديب الشيشكلي بانقلاب عسكري في سورية ، وراح يتنكر لكل داعية اتحادي ، وكان البدوي هدف مراقبة شديدة بعد أن أقصى وإخوانه عن النيابة فلاذ ببيروت .

وحرصت حين زرتها في مطلع سنة ١٩٥٢ على لقائه ، وكان في ضيق نفساني ولكنه يحمد الله الذي نجاه من الهم .. وروى لي كيف نجا قائلاً : اشتد عنف الشيشكلي ضد معارضيه ، وزج كثيرين منهم في السجون ... وتوقعت وأنا في اللاذقية أن يجيء دوري فأعددت حقيبتي ..

وحدث ذات ليلة ، وبعد انتصافها أن قرع جندي باب الدار .. وكانت المفاجأة النبيلة .. إذ رأيت صديقك المجاهد سعيد السيد محافظ اللاذقية يبرح السيارة ويسلم علي ويطلب إلي أن أصعد السيارة مستعجلا وأن أضع الحقيبة فيها ، ففعلت وسألته : إلى أي سجن ؟ فاجاب ــ والسيارة تنطلق سريعة ــ : تلقيت منذ دقائق برقية مستعجلة من العقيد الشيشكلي تأمر باعتقالك ، فقررت أن أجيئك وأن أنقلك بسيارتي الرسمية والعلم عليها يرفرف : إلى حدود لبنان حيث الأمان ، والمهم أن نصل إلى لبنان قبل طلوع الفجر ،وأوصلني إلى الحدود واطمأن إلى نجاتي ، ثم عاد ... فهل ترى أنبل من هذه المغامرة !

في ذكرى الزعيم رياض الصلح

وتألفت في بيروت لجنة وطنية لتخليد ذكرى الزعيم رياض الصلح ، الذي تفجع عليه عرب المشرق والمغرب ، والاحتفال بتأبينه في الذكرى السنوية الأولى لمصرعه ، وقررت اللجنة أن يكون تظاهرة عربية يتكلم فيها أعلام من الأقطار العربية ، والى كوني المنتدب للقول باسم فلسطين ، كلفني اخوان رياض رجاء بدوي الجبل أن ينظم مشاعر سورية شعراً ، رصيفاً لشاعره الأثير أمين نخله ، فأجابني وقد بدت عليه ربكة : « آه .. رياض ! من كرياض ؟ لكنني يا صديقي لا أدري هل يأتيني الشعر بعد ساعة أو يوم أو أسبوع ويمكن ألا يأتيني أبداً ، فاذا رضي علي إلهام الشعر أو شيطانه ــ لا أدري ــ أديت الواجب نحو عظيمنا الراحل ، وإلا فمعذرتك والاخوان وعفوكم ... »

واقترب الموعد ولما يساعفه الالهام ، وحدث أن توفي في بيروت صديق البدوي ، الوطني الكبير عادل العظمة ونقل جثمانه إلى دمشق وودعه على الحدود شقيقه الكبير المجاهد نبيه العظمة لأنهما كان محظوراً عليهما دخول دمشق . ودخلها عادل جثمانا بعدما حرمها عياناً وكان موكب التشييع إلى القبرة متواضعاً مما شجا الشاعر ، وتذكر ــ والشجا يبعث الشجا ــ مصرع رياض في عمان ، وعودته جثماناً إلى بيروت ، وانبجست الذكريات دموعا وبدأ يهمهم بالشعر وواتاه المطلع الأروع :

لا تسلهــــــا . فلن تجيب الطلول
المغـــاويــر مثخـــن أو قتيـــل
مـوحشات يطوف في صمتها الدهر
فللدهــر وحشـــة وذهـــول
غـاب عنـد الثرى أحباء قلبي
فـــالثـرى وحـده الحبيب الخليل
وسقـــونـــي على الفراق دمـــوعي
كـيف يروى من الجحيم الغليـــل

قرأ لي هذا المطلع .. ثم راح يومين في غيبوبة شاعر يختمر فيهما الحزن شعرا .

وحان موعد الحفلة في السادس عشر من تموز ١٩٥٢ وتدفقت بيروت والجبل والوفود العربية من سورية والعراق ومصر والمغرب وفلسطين والأردن على الملعب البلدي الذي اتسع لأكثر من عشرين ألفاً .

وجلسنا ــ معشر الخطباء ــ على المنصة ، وبعد تلاوة آي من الذكر الحكيم ووقوفنا دقيقة صمت ،

مواقف الرجال في أيام الأزمات

حصة .. » ثم حلل صديق رياض وتلميذه الاستاذ نصري معلوف شخصية رياض بأبلغ بيان ومما قال : « لقد مر عام على خروجه من بيته إلى غير أوبة ، ودخوله كل بيت إلى غير براح ، خلا مكانه في المجلس وامتلأ به كل مجلس فكأنه يعايش الناس ويساكنهم ويشاركهم في العام والخاص من أحوالهم فهو ثالث كل اثنين وروح كل جماعة وقياس كل مسألة وقاعدة كل تصرف » .

ثم أرهفت الآذان لسماع قصيدة البدوي خاتمة المهرجان ، وقد نيفت على المئة والعشرة من الأبيات ، ومالبث بعد ذلك المطلع الرائع (الذي أشرت إليه) حتى ندد بالذي نال « جبهة الليث في غمر الضحى » وهتف برياض :

ألف هيجاء لم تجدلك
أحقاً أنت الصريع الجديل
سيفك السيف لا يخاتل في الروع
وزكاه أنه المختول
واذا النصر كان عاراً فأرضى
للمروءات أنك المخذول
لقطاف الوغى شمائل كالناس
فنصر وغد ونصر نبيل
هتف الهاتفون : اين رياض
فانتحى في الثرى حسام صقيل
من رآه يخر في فجأة الغدر
رأى الراسيات كيف تميل
إن موت العظيم محنة تاريخ
ودنيا تفنى وكون يزول

وندد بالنزعات الشعوبية التي تقول بقومية غير القومية العربية ورمز إلى العروبة بقحطان :

سالف الشرق ملك قحطان
واليوم لقحطان والغد المأمول
وله هذه الجبال المنيفات
وتلك الربى وهذي السهول
والسماوات والكواكب في الشرق
لقحطان موطن وقبيل
قد ورثنا البحار من عبدشمس
وعليها الغزاة والاسطول
أرز لبنان أيكة في ذرانا
والفراتان ماؤنا والنيل

وكانت الثورة الاستقلالية ناشبة في تونس :

ورياحيننا على تونس الخضراء
خضراء أين منها الذبول
ما شكت جرحها على البعد إلا
رف قلبي على الجراح يسيل
ولثمت الجراح فهي ثغور
يتشهى عطورها التقبيل
واسترسل يؤبن تارة ويندد بالشعوبية أخرى

حتى راح يناجي بارئه بتسابيح يرنمها من محراب ايمانه ثم يشدو :

عبراتي عبادة وابتهال
وشهيقي التكبير والتهليل
وصلاتي تأمل ومناجاتي
خشوع وزفرتي ترتيل
وعاد يناجي لدات شبابه الراحلين ثم يهتف بهم :

وأناجي قبوركم أعذب النجوى
وأشكو معاتباً وأطيل
وكأن القبور تسمع شكواي
وتدري حصباؤها ماأقول
عيِّروا بالقلول بيض ظبانا
من قراع الزمان هذي القلول
ذل مجد لم ينتسب لكفاح
فهو مجد رث ، المعالي هزيل
وتذكر صديقه المجاهد الراحل عادل العظمة وراح يعاتب غوطة الشام :

غوطة الشام منك صد وحرمان
ومنا العطاء والتنويل
الذي شردته عنك المعالي
آب وهو المكفن المحمول
غربة في العلى وينأى عن
الغمد فيبلى المهند المسلول
مثخن بالجراح يهفو إلى الأم
فأين الترحيب والتأهيل
ضنت الشام بالوفاء علينا
طلعة سمحة وود بخيل

وكأنه يعتذر للغوطة عن ثورته هذه فشدا :

لامنا اللائمون في حب حسناء
ملول وكل نعمى ملول
لا تحاسب أخا هوى في هواه
كل ثغر على الهوى معسول
وبعد أن بكى رفاقه باسمائهم أنهى قصيدته ببيت ظللنا نردده كلما قضى عظيم مجحوداً من ذلك الرعيل :

أين أين الرعيل من أهل بدر
طوى الفتح واستبيح الرعيل

رسالة بدوى الجبل الى كاتب المقال

وحين عزمت على العودة إلى نابلس زرته مودعاً ورأيته يألم مما يلقاه ولده منير في دمشق ويكتب إليه مشجعاً : « إنني أتضرع إلى الله وهو مصدر الحق والخير والجمال أن يضفي على نفسك وعلى وجدانك عناصر الحق والخير والجمال . لا يضيق صدرك بالمصاعب ، فالرجولة والمجد لا ينتسبان إلى ترف وانما يبنى المجد بالتعب وتبنى الرجولة باحتمال المصاعب ثم بالتغلب عليها .. » .

روح دعابة ممراحه

وفي زيارة لبيروت مطلع سنة ١٩٥٣ أعلمت صاحبي أنني خطبت فتاة من نابلس وأني عائد قريباً لإجراء العقد فابتهج كثيراً وتتالت أسئلته عن الخطيبة : اسمها وروحها وثقافتها ومزاياها ؟ . ثم عدت بعد أيام الى نابلس واعتمرت بيت خطيبتي واذا بها تطالعني بقولها : « تلقيت بالبريد رسالة من صديقك بدوى الجبل .. إنه يحدثني عنك ، ويخوفني ، وينبهني إلى ما تخفيه عني من طباعك .. » فأضحكتني المفاجأة وقلت : « هاتي المكتوب ! » فقالت : « إنه خصوصي ومكتوم » وبعد إلحاح تلطفت فسمحت لي بقراءته ثم بصورة عنه واحتفظت به في خصوصياتها . وفيه يبدو البدوي دعابة ممراحاً .. وموضوع « إخاء اربعين سنه » يجيز نشر الرسالة .. واستغفر القراء عن الأمدوحة تجيء على صورة أملوحة :

« آنستى العزيزة . طاب صباحك بكل عطور الربيع وبكل سعادة الدنيا ونعمتها وبعد :

ان الرجل يعرف عن الرجل مالا تعرفه المرأة عنه مهما أكرمها الله وزينتها الطبيعة بإلهام الفكر



في حفل تأبين رياض الصلح : بدوى الجبل في قصيدته العامرة




الشاعر الكبير أمين نخلة يلقي قصيدته في الحفل



د. محمد صلاح الدين .. طالب بأن تقوم مصر بتكريم فقيد العرب

الزعيم المغربي علال الفاسي في قصيدته يخاطب رياض الصلح

وترف الذكاء وألمعية الحس. ونزولا على هذه القاعدة أعرفك التعريف الصحيح بخطيبك العزيز الأستاذ أكرم زعيتر :

إن ولى نعمتنا وولي أمرنا أكرم يمهد للاستيلاء على القلوب بأسلوب فريد في نوعه . فهو يمد من أريحته ومروءته وشمائله العذبة الندية أشراكاً من النور والعطور. حتى إذا أنست القلوب بما أغراها ، وعلقت بالشرك المنور المنضر. واطمأن الصائد الماهر إلى وقوع الطريدة بأشراكه ، حتى لاحيلة لها بالنجاة ولا طريق الى الفكاك . إذا اطمئن خطيبك الكريم الى هذا كله تنمر وتكبر ، وطغى وبغى ، وأذاق الطرائد من الجنسين من طغيانه وجبروت سلطانه ، مالم تذقه الشعوب من حكامها الطاغين .

فيا آنستي العزيزة ، حذار ثم حذار من شمائل أكرم المعسولة الندية ، ومن عبقريته الملهمة السخية ، ومن طباعه المعطرة بالأريحية ، ومن خفايا نفسه وهي أنضر من الصباح وأندى من الإقاح .

حذار من ذلك كله فهي أشراك لامتلاك القلوب ، متى فعلت فعلها تحول هذا الملاك الوديع الحيي إلى جبار في الارض لا ملجأ منه الا الى جبار السماوات . ونحن ، اخوانه القدامى نعاني من تحكمه وجبروته ومن إسرافه في التحكم والجبروت ومن الغريب العجيب اننا ننعم بهذه العبودية له ونهنأ بهذا الطغيان الذي يسومنا إياه ، حتى لو فكنا من قيوده ، وطردنا من حدوده . لرجعنا إلى قيوده فأحكمناها في أعناقنا إحكاماً ورأيناها النعمة التى لا معدى منها ولا مناص عنها . يا آنستي ، إن هذا القيد من نور وعطور أسمى مايتقيد به روحان صافيتان مترفتان . فهنيئاً لك وله هذه العبودية الرفيعة الآلهية ، واتركي لنا بعض الحلقات الصغيرة من هذه السلاسل لتنعم برياها ونندى بذكراها . ولك كل تقديري واحترامي واخلاصي » .

ولما نشر في « الحياة » نبأ عقد القران تلقيت من البدوي وصديقه الكبير نبيه العظمة برقية يقولان فيها : « حياة المؤمن كفاح وجهاد ، وقد كسبت معركة الوطن بزواجك رفيقة تشد أزرك وتزيل بحبها وحنانها همك وصبرك » :

في كبرياء الشعر وعزة الشاعر

ودعيت والبدوي رسمياً إلى الاحتفال بتتويج الملك فيصل الثاني في بغداد حين بلوغه الثامنة عشرة في الثاني من مارس سنة ١٩٥٣ وهاتفني الدكتور فاضل الجمالي رئيس المجلس النيابي العراقي يؤكد الدعوة وعلمت منه أن وفوداً عربية ستحضر وذكر اسم الأمير سعود ولي العهد السعودي ممثلا لوالده وأن وفداً يمثل الثورة المصرية يترأسه الوزير الدكتور نور الدين طراف (وقد كان وزميله الاستاذ فتحي رضوان صديقين أثيرين لدي) سيشترك في الاحتفال .

وقلت للبدوي : هل أعددت قصيدتك ؟ فأجاب : « نعم .. لقد جاءني الشعر بلاعناء ولا استعصاء . نفسي تجيش بذكريات .. وحال أمتي العربية .. ونكبة فلسطين .. ملهمات للقول . بالشعر أنفّسُ عني الكربة . »




الأخوان الزعيمان عادل العظمة ونبيه العظمة ، وقد رثى البدوى الأول ومجد وطنية الثاني



الخطباء : حمد فرنجية ، نصري معلوف ، أكرم زعيتر ، الشاعر العراقي أكرم أحمد ، جميل المدفعي ، زهير عسيران (نقيب الصحافة) ، بدوي الجبل ، الدكتور محمد صلاح الدين ، أمين نخلة ، علال الفاسي

ويممنا بغداد معاً ، ولم نتفارق في حفلات التكريم وفي جلسة يمين الملك الدستورية بمجلس الأمة .. وكانت الحفلة الكبرى تلك التي أقامها رئيس الوزراء جميل المدفعي في بهو أمانة العاصمة وقد افتتحها الملك نفسه بكلمة وتوالى الخطباء والشعراء وفيهم ، الأستاذ مهدي الجواهري الذي مجد « الملك الأغر » والأستاذ ميشيل ابوشهلا الشاعر اللبناني ثم دعي بدوي الجبل إلى إلقاء قصيدته التي أنافت على المئة بيت بدأها بتمجيد الشعر ، وما أحسب أنني قرأت قولاً في الاشادة بالشعر وكبريائه وعزة الشاعر ومنزلته أروع مما قال البدوي : وحسبي في هذه الذكريات ان ارتل معه :

شاد على الأيك غنانا فأشجانا
تبارك الشعر أطياباً وألحانا
ترنح البان واخضلت شمائله
فهل سقى الشعر من صهبائه البانا
هل كنت أملك لولا عطر نعمته
قلباً على الوهج القدسي نديانا
أيطمع الشعر بالاحسان يغمره
والشعر يغمر دنيا الله إحسانا
لو شاء عطر هذا الليل غالية
ونضر الرمل أشواقاً وريحانا
لو شاء نمنم هذا النجم قافية
ونَغَّمَ الفجر أحلاماً وأوزانا
لو شاء أنزل بدر التم فاحتفلت
به الندامى سراجاً في زوايانا
ولو سقى الشمس من أحزانه نديت
على هجير الضحى حبا وتحنانا

● كان رياض الصلح وطنياً عربياً ملخصاً في إنسان

● النصر الوعد والنصر النبيل

● الرجولة والمجد لاينتسبان إلى ترف وإنما يُبنى المجد بالتعب وتُبنى الرجولة باحتمال المصاعب

وبعد شطحات واشتطاطات ، ورفعه الشعراء إلى السماوات ... تحدث باسمهم :

ننضر البؤس عند البائسين مُنًى
والعقل عاطفة والشكل إيمانا
وكل ذنب سوى الطغيان نتزله
على جوانحنا حبا وغفرانا
سبحان من أبدع الدنيا فكان لنا
أشهى القوارير من أطياب سبحانا
وبعدما ناجى صاحب التاج ومجد آل البيت تذكر التجاءه إلى العراق :

وحين شردنا الطاغي وأرخصنا
حنا العراق فآوانا وأغلانا

حتى إذا تحدث عن عبدالجلوس وصف حال أمته العربية ، وبلغ الغاية في الشكوى حين صرخ :

قد استرد السبايا كل منهزم
لم تبق في رقها الا سبايانا
دم بتونس لم يثأر له ودم
بالقدس ـ هان على الأيام ـ لا هانا
وما لحت سياط الظلم دامية
إلا عرفت عليها لحم أسرانا
ولا نموت على حد الظبى أنفاً
حتى لقد خجلت منا مزايانا
تهلهلت أمتي حتى غدت أمما
وزُوِّر الوطن المسلوب أوطانا
وقد عرفت الرزايا وهي منجبة
فكيف لم تلد الجلى رزايانا
ثارات يعرب ظمأى في مصارعها
تجاوزتها سقاة الحي نسيانا
يا وحشة الثأر لم ينهد له أحد
فاستنجد الثأر أجداثاً وأكفانا

وبعدما ناجى صاحب التاج بأبيات مؤثرات أنهى قصيدته ببيت رائع ردده خطباؤنا :

ما في العراق ولا في الشام موعدنا
على الثنية من حطين لقيانا

وعدنا من العراق ، وبينما كنت في نابلس تلقيت من البدوي رسالة يخبرني فيها أن الحكومة العراقية قد منحته وسام الرافدين من الدرجة



رياض الصلح وعلى يمينه سعد الله الجابرى ، فعزة دروزة ، وعلى يساره الأمير مجيد أرسلان وصبرى العسلى

الثالثة ، وقد ثار وفار ، وأعد رسالة موجهة إلى رئيس الوزراء جميل المدفعي وبعث إليّ بنصها ، وقال إنه ارسلها الى جريدة الحياة لنشرها ، ولما قرأتها بادرت الى الابراق للحياة بألا تنشرها والى البدوى بألا يرسلها . وارسلت الى العراق رسالة مستعجلة عاتبة غاضبة ، لائمة شاجبة وبعثت بصورة منها للبدوى راجياً أن يتريث .. وما هى الا أيام حتى أرسل الرئيس المدفعي الى البدوي يعتذر .. وجاء الوسام الأرفع يعتذر له وللشعر على استحياء .

وكان لرسالتي تأثير بليغ في نفس البدوي وقد أجابني عليها بكتاب لا أبلغ ولا أروع منه وفيه يقول :

أخي الأحب الأعز . تناولت كتابك وهو نقطة عطر من طيوبك . وجذوة مروءة من لهيبك . فذكرني باخوان شاعر الحماسة :

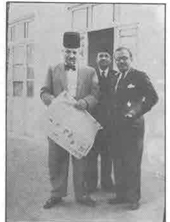
لايسألون أخاهم حين يندبهم
في النائبات على ما قال برهانا

فجزاك الله على وفائك خير الجزاء . وما هى أول غمة طلع فيها جبينك والفجر وغبتك والنصر عندما أرسلت إليك الكتاب تلقيت بعض وساطات من بعض إخواننا أن اتريث في نشره ، وهكذا اجلت ارساله الى فترة لن يطول امرها . وأرجو الا يخامرك شك في عزمي وتصميمي . فوالله ماتغير إبائي ولا حالت كبريائي ، ولكنني أتريث بضعة أيام لأمور لاتخفى على اللبيب الكيس ، وقد يفرضها ذوق ولياقة وأمور أخرى ..

أخي وسيدي . والله لو استطعت أن أجمع من حبات القلوب ، لا من الرياحين باقة زكية ندية لجمعتها حباً حباً . وقلباً قلباً ثم حييتك بها وشريكتك في أمجادك ، ورفيقتك في المقبل الميمون من جهادك . فأسبغ الله عليكما منضور النعمة ومنور اليمن . وندى الله طريق حياتكما بالرياحين فتندى كل خطوة ريحانة . وتتنفس بالنعيم أقحوانة .. سلمت لوطنك فخرا ولاخوانك ذخرا .

بدوى الجبل

وأما رسالته التى أعدها لتوجه الى الرئيس المدفعي فهى من ذخائر الأدب الرفيع ومن آيات الاباء المنيع وها هى ذي :



رياض الصلح يحمل جريدة الأهرام وعلى يساره أكرم زعيتر وبينهما كاظم الصلح رئيس حزب النداء

سيدى الرئيس

إنني أعتبر تفضلكم باهدائي وسام الرافدين من الدرجة الثالثة امتهاناً لكرامة الفكر ، وازراء بشأن الأدب . واذا كان القائمون على الحكم في العراق لايحسنون وزن القيم الاجتماعية والأدبية والسياسية ، ولايقدرون رجال الفكر والعقيدة حق قدرهم فانني في اعتذاري عن قبول هذا الوسام أعيد الأمور إلى نصابها . وأصون للأدب الرفيع عزته وكبرياءه وللفكرة القومية صفاءها وسموها .

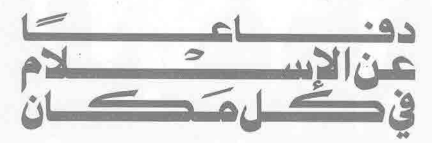
وفى الحق ياصاحب الفخامة أن الحكم الذى يزري بكرامة الأدب والفكر يزري بنفسه ، ويتحدى كرامته . أما الفكر والأدب فكرامتهما تظل رفيعة مصونة سامية . ان الله ائتمنني ــ حين خلقني شاعراً ــ على أكرم ودائعه وأغلى نفائسه ــ وانني لأجزي الله على نعمته التي ائتمنني عليها بأن أصونها نقية رفيعة كما أبدعها وصانها ، وأن أدلل بإبائي كبرياءها وعنفوانها ، حتى اذا استرد الله وديعة الفن عند موتي استردها كما أنشأها بريئة نقية ، عزيزة .

وليعلم سيدي الرئيس أن الدولة لو أهدت إلي أرفع وسام فيها لكان ذلك تشريفاً للوسام وتمجيداً للدولة قبل أن يكون تشريفاً لي ولشعري . وانني في ردي هذا الوسام أغضب لكرامة الأدب والعقيدة قبل كرامتي .. ولكن غضبي لا يتقحم حرم مروءتي ولاحرم عقيدتي ... وتفضلوا ياصاحب الفخامة بقبول الاحترام والامتنان

٥٣/٦/١٥ بدوى الجبل

اكرم زعيتر

رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في قطر



تحقيق: السيد حجازي

في المحاكم دائماً ينصب ميزان العدل ، ويعطي كل ذي حق حقه ، حسب أصول الشرع وقواعده ..
هذا هو المفروض والمتوقع والمأمول دائماً وأبداً ..

وفي دولة قطر تنهض بهذه المسئولية الجليلة رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية ..

فهي تحتكم في كل ماتصدره من أحكام إلى الشريعة الاسلامية ، وتأخذ بنصوصها ، وتطبق ما تقول به متوخية ظروف العصر ، وتلائم بين هذه الأحكام والوضع المعاش بما يثبت أن الشريعة الاسلامية ـ برغم أنف المكابرين ـ صالحة لكل زمان ومكان ..

ولا تكتفي الرئاسة بهذا العمل الكبير والجليل فقط ..

إنها تقوم بعدة أعمال أخرى ، وتنهض بمسئوليات لاحصر لها ، تعطي لدورها صفة الشمولية ، وتمنحه أبعاداً جديرة بالتأمل ، وتستحق التقدير والقاء الأضواء الكاشفة عليها ، برغم أنها تسطع بنور الحق ، وتضيء بالعديد من الانجازات الكبيرة والعميقة ..

وفي الحديث مع فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله آل محمود وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية مايحقق هذا الهدف وأكثر ، وفي الحديث معه أيضاً إثارة للعديد من الموضوعات التي تهم المسلمين ، والقضايا التي تشغل بالهم ، والمشاكل التي تستصرخهم بالحل ..

فماذا قلت للشيخ عبدالرحمن وماذا قال لي ؟..

قبل أن نسترسل في تفاصيل الحديث الشامل مع فضيلته دعونا نلقي نظرة ضرورية على تاريخ القضاء في هذا البلد الطيب الآمن ..

إن هذا حق علينا لهؤلاء الذين أرسوا دعائم هذا القضاء ، ورسخوا أسبابه ، ووفروا له كل السبل حتى يقول كلمته ، وترفرف رايته ، ويعلو صوته فوق كل الأصوات ..

كانت البداية في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي ..

في ذلك الوقت البعيد استقرت أسرة آل ثاني في قطر ، ومارس الشيخ محمد بن ثاني سلطته الفعلية كحاكم ..

وكان أول من تولى القضاء الشرعي كما هو معروف في البلاد الشيخ محمد بن حمدان فيما بين عامي ١٢٨٥ و ١٣١٠ هـ

لكنه بعد هذا التاريخ انتقل إلى « دارين » بالمملكة العربية السعودية ، حيث توفى فيها ..

بعدها وقع الاختيار على الشيخ عبدالله بن أحمد بن درهم لتولي هذه المهمة ..

ولقد كان يقوم باجراءات التقاضي وهو في بيته ، أو في المسجد ، أو في السوق ..

وكانت هذه هي حال القضاة السابقين في ذلك الزمان ..

لكن مع كبر سنه أعفي من العمل .. وتولى بعده الشيخ محمد بن عبدالعزيز المانع ، الذي استدعي من البحرين بناء على طلب الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني حاكم قطر في ذلك الوقت (١٣٣٢ هـ ـ ١٩١٣ م) .. ويعرف الشيخ محمد بأنه كان من الفقهاء المشهورين ، ولقد أسندت إليه بعد مجيئه إلى قطر أمانة القضاء فيها ..

وعندئذ تم إنشاء بناء خاص ليمارس فيه عمله ، كان يعرف باسم المدرسة ، ويقع في منطقة الجسرة بالدوحة ..

كان هذا القاضي الشيخ ينهض بشئون التدريس والقضاء في نفس الوقت ، واستقال من عمله بعد ست سنوات ..

اجراءات التقاضي

ولقد كانت اجراءات التقاضي في ذلك الزمان سهلة وبسيطة غاية البساطة ..

وكان قضاة ذلك الزمان يصدرون الأحكام شفهياً ..

لكن إذا طلب أحد المتقاضين أن يكون الحكم مسجلاً ، كتبه القاضي بخط يده ، وسلمه إياه في نفس الوقت ..

لم تكن هناك سجلات وملفات وموظفون وادارات ومكاتب ..

لكن بمرور الوقت تغير الحال وتبدل وفرضت ضرورات الحياة ألواناً جديدة من العمل في مجال القضاء ، تتصل بالاجراءات ، والتنظيم ، والتوسعات المطلوبة ، ولا تتصل بالأحكام نفسها التي تستلهم الشريعة ، وتعلي كلمة الحق ..

وكانت البداية في عام ١٣٥٩ هـ ..

في ذلك العام قام حاكم قطر عندئذ الشيخ عبدالله بن قاسم آل ثاني بأداء فريضة الحج ، يرافقه الشيخ حمد بن عبدالله آل ثاني وبعض أعيان آل ثاني ..

واجتمعوا إلى الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن آل سعود ..

وفي ذلك الاجتماع طلب الشيخ حمد نيابة عن والده من الملك أن يرسل معهم قاضياً إلى قطر ..

وأضاف أن اختيارهم قد وقع على الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود ..

وكان فضيلته في ذلك الوقت يقيم في الحرم المكي للتدريس والقضاء ..

وبالفعل صدر أمر ملكي بسفر الشيخ عبدالله إلى قطر برفقة حاكمها وابنه ، حيث تقلد أمانة القضاء منذ ذلك الوقت (شهر ذي الحجة ١٣٥٩ هـ ـ ١٩٤١ م) ، وباشر عمله في القضاء في محكمة شرعية في الدوحة تولى هو رئاستها ..

نظام للتسجيل والحفظ

وبدأ الشيخ عبدالله بوضع نظام لتسجيل القضايا والأحكام وحفظها ..

وقام بعدة تعيينات : الشيخ حسن بن محمد الجابر مساعداً في تحرير الاقرارات واثبات الشهود وعقود الزواج ، الشيخ ابراهيم بن عبدالله الانصاري للنظر في القضايا المستعجلة في منطقة الخور ، وابرام عقود الزواج ، وتحرير الاقرارات والشهادات ، ولما توفى الشيخ ابراهيم الانصاري حل محله ابراهيم بن يوسف ..

وهكذا وضعت بدايات الأسس التنظيمية التي تناسب الظروف ، وتسهل العمل ، وتسير به نحو النظام المنشود ..

ومع تطور الأوضاع الاقتصادية بعد اكتشاف النفط ، وتطور الأوضاع الاجتماعية بالتالي ، وزيادة عدد السكان وتنوعهم زادت القضايا وتعددت أعمال المحاكم الشرعية واختصاصاتها ، ومن هنا تقرر انشاء رئاسة المحاكم الشرعية في أول محرم ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م ، وأسندت رئاستها إلى فضيلة الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود ..

وكانت الرئاسة تضم في ذلك الوقت المحكمة الشرعية الكبرى ، والمحكمة الشرعية بالدوحة ، ودائرة الأوقاف والتركات ..

وبقيت تمارس أعمالها في مقرها القديم بمنطقة الجسرة لفترة طويلة ، حتى تم انشاء مبناها الجديد جنوبي قصر الدوحة ، والذي افتتحه حضرة صاحب السمو الشيخ خليفة بن حمد آل ثاني أمير البلاد المفدى عام ١٣٩٢ هـ ـ ١٩٧٢ م ..

وأصبحت الدائرة تحمل اسم رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية منذ بداية عام ١٣٩٣ هـ ـ ١٩٧٣ م ، حتى يكون ذلك مطابقاً لما تقوم به من أنشطة ، وماتنهض به من أعمال ..

صلاحيات الوكيل

وتم تعيين وكيل لها خلال عام ١٣٩٥ هـ ـ ١٩٧٥ م ، وأوكل إليه فضيلة الرئيس تصريف أعمالها ، وخوله صلاحية التوقيع على كافة المعاملات والشيكات وكل ماله علاقة بأعمال الرئاسة والادارات التابعة لها ..

هذا الوكيل هو فضيلة الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله آل محمود الذي دار حديثي الطويل معه .. ودعوني أقدمه لكم ..

إنه من الشباب المؤمن ، الصالح المستنير ، والذي يرجى على يديه الكثير ، وهو متواضع أشد التواضع ، بسيط أكبر البساطة ، لايرد طلب أحد ، ولايخذل صاحب حق ..

تلقى تعليمه الابتدائي والثانوي في قطر ، وحصل على الثانوية من المعهد الديني الثانوي ..

بعدها التحق بالأزهر الشريف .. بجمهورية مصر العربية ، وحصل على ليسانس في الشريعة والقانون من جامعة الأزهر عام ١٩٧٥

ثم توالت دراساته العليا التخصصية ..

حصل على دبلوم في القانون من جامعة القاهرة عام ١٩٨٠ ، ودبلوم في الشريعة الاسلامية من نفس الجامعة في العام الذي تلاه ..

وهو لا يكتفي بذلك ..

إنه يواصل دراساته العليا التخصصية في القانون حتى أعلى الدرجات ، وهو الآن مسجل لنيل درجة الدكتوراه في القانون الدولي من جامعة القاهرة ..

وطريق العلم أمامه طويل وشاق ، ولكنه مصر على قطع العديد من الأشواط فيه ، فهذا هو سبيل العلماء ولاسبيل غيره ، وهذا هو ضمان الذين يتصدون للعمل الذي يخدم الناس ، ويقضي بينهم بالحق والعدل ..

وقد جمع فضيلة الشيخ عبدالرحمن بين هذا الطريق وطريق العمل الميداني ، اكتساباً للخبرة ، وجمعا للعلم والعمل ..

فهو إلى جانب أنه وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية : المشرف على تحرير مجلة الأمة ، ورئيس مجلس ادارة مصرف قطر الاسلامي ، وعضو في مجلس أمناء المؤسسة الخيرية الاسلامية العالمية بالكويت ، وعضو في مجلس أمناء منظمة الدعوة الاسلامية الأفريقية بالخرطوم ..

أقدم الأجهزة

ويبدأ حديثي مع الشيخ عبدالرحمن ويطول حول المحاكم الشرعية في دولة قطر : كيف كانت مسيرة تطورها بالتفصيل ، ومن خلال الحقائق الواقعية الحية ، وعلى لسانه هو ..



مبنى رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر



ويتفضل بالاجابة الشافية التفصيلية ..

إن المحاكم الشرعية في قطر هي في الحقيقة من الأجهزة القديمة في الدولة ، بل هي من أقدم الأجهزة فيها إن شئنا التحديد والدقة ..

وكانت في السابق قد بدأت بمحكمة شرعية واحدة ..

لكنها تطورت فشملت أيضاً ادارة للأوقاف والتي كانت تابعة لها ، وتطورت أكثر وأكثر فأصبحت رئاسة المحاكم الشرعية ، فضمت محكمتين اضافة إلى ادارة الأوقاف والتركات ..

وتطور الوضع بعد ذلك تطوراً ملحوظاً ..

هكذا يواصل الشيخ عبدالرحمن حديثه ويقول إن الرئاسة أصبحت مسئولة عن الشئون الدينية ، فضمت إدارة للشئون الاسلامية ، ثم أصدرت مجلة الأمة ، وفي الوقت الحاضر فإن الرئاسة تشتمل على ست إدارات ، لكل منها وظيفة محددة ، تختلف عن وظيفة الأخرى ..

هذه الادارات الست هي : إدارة المحاكم الشرعية وتتبعها المحكمة الشرعية الكبرى ، والمحكمة الشرعية الأولى ، والمحكمة الشرعية الثانية ، والمكتب الاداري والفني ، وقلم التنفيذ ، ومكتب لجنة القضايا العقارية ، ومكتب الشئون الزوجية ..

أما الإدارة الثانية فهي إدارة الشؤون الإدارية والمالية ، والإدارة الثالثة هي إدارة شؤون الأوقاف (الوقف والمساجد والهندسة والصيانة) ، والإدارة الرابعة هي إدارة الشؤون الاسلامية وتضم أقسام العلاقات الاسلامية والمؤتمرات والدعوة والارشاد ، والثقافة والمطبوعات ، والمكتبات ، ومعهد الأئمة والخطباء ..

وتتبع الإدارة الخامسة وهي إدارة التركات وشؤون القاصرين أقسام التركات والقاصرين والمحاسبة وتضم الإدارة الأخيرة والسادسة وهي مجلة الأمة أقسام التحرير والترجمة والنشر والمحفوظات والإدارة والتوزيع ..

ويستمر الشيخ عبدالرحمن في الحديث موضحاً الصورة أكثر وأكثر ..

إن المحاكم الشرعية كادارة مستقلة تتكون من ثلاث محاكم هي المحكمة الكبرى ، ومحكمتان شرعيتان أولى وثانية ..

وهي تنظر في القضايا التي تدخل في اختصاصها في مجالات الأحوال الشخصية والجنايات ، كما تنظر في جزء من قضايا الحقوق ..

مسجد الوكرة ذو الطراز الاسلامي المميز تتلألأ أنواره في الليل

وهذه المحاكم تتميز بسرعة الانجاز وبقدرتها على النظر في عدد كبير من القضايا سنوياً ، وتنشر الاحصائيات التي تشير إلى ذلك باستمرار ، وتؤكده دائماً ..

وتقوم هذه المحاكم أيضاً باصدار الشهادات والوكالات الشرعية ، وتتولى قسمة التركات ، والاشراف على الصرف من أموال القاصرين حسب مصلحة القاصر ..

ونأتي إلى نشاط الأوقاف بشكل عام ..

هكذا يضيف وكيل الرئاسة ، ثم يستمر في الايضاح والتفسير ..

إن هذه الادارة من أكبر إدارات الرئاسة ، وتشرف على المساجد والأوقاف في البلاد ، وتعمل على صيانتها ..

وهنا يجدر أن نشير إلى أن دولة قطر تتميز بكثافة ملحوظة في عدد المساجد ، تعد في الواقع أعلى نسبة مساجد في العالم ..

وهناك تشجيع لايقف عند حد من جانب الدولة على هذا الاهتمام ..

لقد اعتمدت الدولة أخيراً أربعين مليون ريال كموازنة لانشاء المساجد في كافة أنحاء البلاد ، وتهتم الدولة إهتماماً ملحوظاً برعاية المساجد وصيانتها وإدارتها ..

مستويات هندسية عالية

وتمتاز قطر ــ والكلام ما زال للشيخ عبدالرحمن ــ بالعديد من المساجد الكبيرة والمبنية بمستويات هندسية عالية ..

ولذلك تشتمل إدارة شئون الأوقاف على قسم للهندسة ، وآخر للصيانة ، يتوليان أعمال الانشاء والاشراف على أعمال التصميم وتنفيذ المساجد وصيانتها ، سواء على نفقة الدولة أو على نفقة الأفراد ..

وهناك عدد كاف من المهندسين بالادارة للقيام بهذه المهمة ..

ويوجد أيضاً قسم لشئون المساجد ، يشرف على إدارتها بعد استلامها من قسم الهندسة ، ويتولى تعيين الموظفين ، والرقابة على أعمالهم ، والاشراف بشكل عام على المساجد ، لضمان حسن أداء العمل ، وسلامة التجهيزات داخل المسجد ..

وفي حالة وجود أي خلل يقوم قسم الصيانة بعلاجه واصلاحه على الفور ..

وتمتاز مساجد قطر بشكل عام بأنها مزودة بأجهزة التكييف والمياه الباردة ، والسجاد الذي يغطي كل مكان فيها ، كما توجد بها ، محافظ للمصاحف ، وخزانات للأحذية ، بالاضافة إلى أجهزة الصوت ..

ولقد تم انشاء عدد من المكتبات في المساجد الكبيرة ، وهي تفتح في فترات مناسبة يومياً للمطالعة ، وبها جميع المراجع والكتب الاسلامية والعربية ، وتزود بالمجلات الاسلامية ..

أما القسم الأخير في الأوقاف فهو قسم الوقف ..

وهو يتولى تسجيل كافة الأوقاف ، ويدير الأملاك الموقوفة المعدة للاستثمار ، ويشرف على البيوت الوقفية المخصصة لسكن أئمة المساجد ..

إذ تحرص الرئاسة على انشاء سكن خاص للامام مع كل مسجد بقدر الامكان ..

أموال القصر

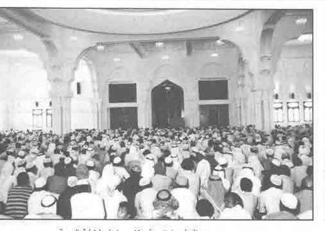
وينتقل الشيخ عبدالرحمن وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية بدولة قطر إلى نقطة أخرى فيتحدث عن إدارة التركات ..

إن الرئاسة تقوم كجزء من عملها بالاشراف على أموال القصر أو الأيتام الذين لم يبلغوا السن التي تمكنهم من التصرف في أموالهم ..

تتولى الادارة إدارة أموالهم حتى يبلغوا سن الرشد ، فتقوم باستثمارها بالوسائل الممكنة



الشيخ عبد الرحمن بن عبدالله آل محمود وكيل الرئاسة



جموع المصلين تستمع في خشوع وايمان لخطبة الجمعة

بالاضافة إلى الاشراف على التركات لحين القسمة وتوزيعها ..

وتقوم الادارة أيضاً بالصرف على القاصرين على دفعات شهرية من حساباتهم ، بناء على أمر القاضي ، بعد دراسة حالة القاصر ، والموافقة على نسبة الصرف ..

وتسلم الإدارة مستحقات اليتيم بعد سن الرشد ، مضافة إليها الأرباح وماتم شراؤه من أراض أو عقارات وغير ذلك ، وذلك بأمر من القاضي ..

وللعلم فإن الإدارة تتعامل نتيجة لطبيعة عملها في مبالغ تصل إلى مايزيد على مائة مليون ريال من حسابات مختلفة سواء للتركات أو القصر ..

وهناك إدارة أخرى يتحدث عنها وكيل الرئاسة بنفس القدر من الاهتمام والتقدير ..

إنها إدارة الشئون الاسلامية ..

عنها يقول إنها الإدارة المختصة بالاشراف على أنشطة الوعظ والارشاد والدعوة الاسلامية بشكل عام في الداخل والخارج ..

تقوم بتنظيم برامج الدعوة داخلياً وخارجياً ، وتشرف على معهد الائمة والخطباء الذي يشرف بدوره على تعليم الأئمة ، لرفع مستوياتهم العلمية ..

وتشتمل هذه الادارة على قسم للعلاقات الاسلامية يتولى أعمال الاتصال بالمنظمات والهيئات الاسلامية في الخارج ويتلقى المراسلات والطلبات من الجاليات الإسلامية في البلاد الخارجية ، واضافة الى تنظيم الاشتراك في المؤتمرات الاسلامية العالمية يقوم برصد المؤتمرات الإسلامية الأخرى التي تعقد في أي مكان من العالم ويحفظ مقرراتها ، لمحاولة الاستفادة منها ودراستها ..

ويوجد بهذه الادارة قسم للمكتبات ، يتولى الاشراف على مكتبات الدائرة ، وتتبعه مكتبة اسلامية عامة تجمع المراجع والكتب الاسلامية الهامة ..

● الشيخ عبدالله بن زيد آل محمود يضع الأسس التنظيمية للرئاسة ، والشيخ محمد بن عمران أول من تولى القضاء الشرعي

● أربعون مليون ريال لإنشاء المساجد التي تفتح أبوابها للاستزادة من المعرفة الدينية

وهذه الإدارة تشرف كذلك على مكتبات المساجد ..

وبهذه المناسبة هناك ثمانون مكتبة مفتوحة في مساجد الدولة بشكل عام ، ويتولى القسم تزويدها باستمرار بكل جديد ، ويقوم أيضاً بسحب ماتلف وما انتهت مدته ..

كما يشرف هذا القسم على المكتبات المتخصصة ويزودها بالكتب الهامة في المجال القضائي والتشريعي ..

أما قسم الثقافة والمطبوعات فيتولى الرقابة على الأعمال الدينية التي ترد إلى البلاد ، أوتحول اليه من وزارة الاعلام ، سواء كانت كتباً أو مواداً مسجلة ..

ويتولى القسم أيضاً تنظيم موسم ثقافي اسلامي بشكل سنوي ، يتم فيه استدعاء محاضرين ومفكرين لالقاء محاضرات خلال كل موسم ، وهو والحمدلله موسم ناجح إلى حد كبير ..

يقوم القسم كذلك باقتراح اصدار كتب دينية مختلفة ..

وتجدر الاشارة هنا إلى أن الإدارة قد أصدرت عدداً من الكتب سواء من المخطوطات المحققة أو الكتب المترجمة ، وقد صدر أخيراً كتاب تحرير الأحكام في تدبير أهل الاسلام للامام بدر الدين بن جماعة ، وهو مخطوط تم تحقيقه بواسطة الإدارة ..

كما تمت ترجمة كتاب محمد في الكتاب المقدس وطبعه ..

وهو دراسة لأحد القسس الذي دخل في الاسلام ، والذي يثبت فيه ورود اسم محمد في الانجيل ..

خدمة ثقافية ودينية

ويصل الشيخ عبدالرحمن في حديثه معي إلى النشاط الأخير من نشاطات الرئاسة ، والذي يتمثل في إصدار مجلة الأمة ..

لقد كان أساس التفكير في اصدارها هو محاولة تقديم خدمة ثقافية ودينية للعالم العربي والاسلامي ، عن طريق اصدار مجلة اسلامية شاملة تصدرها دولة قطر ..

وبالفعل كان صدورها في مطلع القرن الخامس عشر الهجري ..

ولقد كانت المرحلة التحضيرية لها صعبة للغاية ..

فلقد كانت المحاولة المبذولة هي ايجاد شخصية للمجلة تضمن لها النجاح ، ولاتكون مجرد رقم اضافي للمجلات الاسلامية التي تصدرها جهات رسمية في الدول الاسلامية بشكل عام ..

وفي هذا الصدد يقول وكيل الرئاسة :

ـ ونحمد الله أننا نجحنا في ايجاد الصيغة المناسبة والتي أدت إلى نجاحها ، وطبع ثمانين ألف نسخة من كل عدد في السنة الأولى ..



وأعتقد أن نجاح المجلة يعتمد على ركيزتين : المادة الجيدة ذات المستوى المتخصص الجيد ، واستخدام الفن الصحفي في إخراجها بمستوى فني لائق ..

ولقد كانت مهمة العثور على الطاقم الصحفي الذي يجمع بين العلم الشرعي والقدرة الصحفية مهمة شاقة .. لكن تحقق النجاح فيها إلى حد كبير ..

ولقد أدى هذا إلى نجاح المجلة في سنتها الخامسة في استمرار استقطاب القارئ المسلم في كل أنحاء العالم الاسلامي ..

إن العدد الواحد على سبيل المثال في موريتانيا يتمكن من قراءته عشرون شخصاً ..

وهذا نجاح كبير بكل المقاييس .

ويستمر حديث الشيخ عبدالرحمن عن المجلة وبنص كلماته :

ــ وقد حاولنا بالرغم من أن المجلة تصدر عن هيئة رسمية أن نبعدها عن أن تكون مجلة تقليدية لا يقرأها إلا نفر من المتخصصين والقراء الملتزمين ..

كانت محاولتنا هي الاتجاه للقارئ العادي ليقرأ المادة التي تشتمل على توعية دينية ، ومعلومات تربط المسلم بهموم دينه بشكل عام ..

وحاولنا أن نستخدم بالاضافة إلى المادة الجيدة : الاخراج الجيد ، حتى تجذب القارئ العادي ، لما لاحظناه من أن هذا القارئ يتجه إلى الصحافة العادية نظراً لامكانياتها المتطورة ..

وقد كان هذا التصور ناجحاً ، وأدى إلى زيادة الاقبال على المجلة من جانب القراء العاديين ..

وفكرنا أيضاً في اصدار سلسلة كتب ..

وكانت فكرتنا منها هي أن الشباب بشكل عام ، والمسلم العادي خاصة في البلاد الفقيرة ، يفتقر إلى الكتب الاسلامية التي تتناول موضوعات عصرية بسعر معقول ..

ومن هنا فضلنا أن يصدر كتاب دوري يوزع ضمن شبكة توزيع المجلة ، وبذلك يصل إلى أكبر عدد من القراء في العالم العربي والاسلامي ، بدلاً من اصدار كتب بأعداد قليلة توزع مجاناً ، وتكون الاستفادة منها محدودة ..

ولقد نجحت الفكرة نجاحاً كبيراً ..

فقد صدرت من بعض كتب الأمة ثلاث طبعات ، وصدرت منها طبعات خاصة ، وترجم بعضها إلى عدد من اللغات الأجنبية ، ووصل توزيعها في بعض الأعداد إلى مائة ألف نسخة ..

هناك عودة للدين

ويصمت الرجل قليلاً ثم يختم كلماته بقوله :

ونحمد الله سبحانه وتعالى أن جعلنا سبباً لعمل يقوم على تثقيف المسلمين بشكل عام ، ومحاولة لاعطائهم قدراً من العلم الشرعي الذي يتناسب وذهنية الرجل العادي ..

وأسأل الشيخ عبدالرحمن بعد ذلك عن الثقافة الدينية التي تقدم الآن ومدى استفادة المسلمين منها

ويتكلم هو بصراحة وبساطة ..

الحقيقة أن هناك توجهاً كبيراً من المسلمين بشكل عام نحو الثقافة الدينية ، وهناك عودة للدين في غالبية دول العالم العربي والاسلامي ..

لكن يلاحظ أن هناك نقصاً في العلم الشرعي في كثير من المناطق ، مما يؤدي إلى أن يتصدى للفتوى أشخاص غير مؤهلين ، فيحرمون أموراً أحلها الله ، والعكس . وقد يضلل بعضهم بحسن نية مجموعات كبيرة من الاشخاص إن أحداثاً كثيرة تنبهنا إلى التأثير القوي والشديد للعقيدة الدينية ..

إنها قوة يجب ألا تنكر ..

وعلى الدول العربية والاسلامية أن تقوم بدورها في انشاء وتقوية المعاهد الشرعية والكليات التي تؤدي إلى تخريج أشخاص على مستوى عال من العلم ، بحيث يصبحون قادة دينيين ذوي كفاءة ..

وهنا فان المرجو أن تكون لمجلة الأمة وكتابها الدوري دور في توعية المسلمين عموماً ..

فان كلا منهما يتناول العديد من الدراسات التي تتصل بأمور يحوطها جهل وأخطاء شائعة يتم تداولها ..

لذلك فان المجلة والكتاب قد أديا ويؤديان بالفعل دوراً جيداً في خلق وعي ديني رشيد لدى الشباب بصفة عامة ..

.. ومد اسلامي قوي

ولعل هذا يقودنا إلى الدعوة الاسلامية في الخارج وبالذات في الدول غير الاسلامية ..

هكذا يقول الشيخ عبدالرحمن ويواصل حديثه في هذا الموضوع الهام ..

إنه يرى أن هناك مداً اسلامياً قوياً في الحقيقة ، ووعياً متنامياً لدى الجاليات الاسلامية والطلاب المسلمين في الخارج ..

كما أن هناك حركة قوية لانشاء المساجد والمعاهد سواء في الدول الافريقية والآسيوية أو في القارة الأمريكية وأوربا ..

هذه الحركة أصبحت واضحة الآن ، وهي لم تكن موجودة وظاهرة بهذه القوة قبل عشر سنوات مثلاً ..

إن في الولايات المتحدة الآن مساجد في معظم المدن ..

وهذا النشاط في مجمله يرجع إلى الصحوة الاسلامية لدى المسلمين المقيمين في الخارج ، والذين يذهبون للدراسة في عدد كبير من دول العالم ..

هذه الصحوة أثرت تأثيراً حقيقياً في الجاليات الاسلامية التي كانت خاملة ، والتي كادت تذوب في الجسم الغريب الأجنبي ..

والحقيقة أن خطر هذا الذوبان أدى بكثير من الغيورين على الاسلام إلى القيام بنشاط ديني ملحوظ داخل الجاليات التي ينتمون اليها ..

وقد تكون هناك بعض السلبيات ..

هذه حقيقة لا سبيل إلى نكرانها ..

إذ أن بعض المشاريع أكبر من القدرات المتاحة كبناء مسجد ضخم يضطر معه المسلمون إلى جمع التبرعات لسنوات طويلة ، وقد لا ينفذ ، اضافة إلى مواجهة مشكلة ادارة وصيانة المشروع مما يتطلب مبالغ سنوية أخرى جديدة ..

ولقد كان من الأفضل طبعا في مواجهة مثل هذا الموقف ــ وذلك في رأي الشيخ عبدالرحمن ــ أن توضع الأموال في وقف يدر دخلاً لانشاء المسجد ، بالاضافة إلى التبرعات ، إلى أن يصبح هناك مصدر مالي مستمر ، فيستمر العمل بالتالي دون مشاكل ..

المعاهد قبل المساجد

ويرى الشيخ عبدالرحمن وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر أن يكون التركيز في الدول التي بها جاليات اسلامية على انشاء المعاهد قبل المساجد ، بل يمكن استخدام المعهد كمسجد تؤدى فيه الصلوات أيضاً ..

فالملاحظ أن الجاليات الاسلامية تعاني من المستوى العلمي المتدني ..

وفي كثير من الدول نجد أن غير المسلمين ، نظراً لتعلمهم في مدارس تبشيرية ، استطاعوا أن يصلوا إلى تعليم جامعي متقدم ، وسيطروا على مقاليد الأمور في بلادهم ، بالرغم من كونهم أقلية بالنسبة للمسلمين ..

ولا شك أن خشية المسلمين على أبنائهم من المدارس التبشيرية في هذه البلاد هو السبب ..

لكن يمكن بكل تأكيد تعويض مافات ..

وهذا يتم بانشاء المدارس والمعاهد بشكل مكثف ومنظم لاستيعاب أبناء المسلمين ..

ويجب التركيز أيضاً في هذه البلاد على معاهد التدريب بالنسبة لابناء الجاليات الاسلامية .. فنحن نلاحظ أن العمالة الماهرة التي تستقدم من بعض الدول الاسلامية لدول الخليج من غير المسلمين ..

وهذا يرجع إلى توفر معاهد التدريب أمامهم وعدم توفرها أمام المسلمين ..

ومن هنا فان تعليم المسلم وتدريبه على أداء عمل فني يؤدي إلى رفع مستواه ورفع مستوى أسرته ومجتمعه ..

ويثير الشيخ عبدالرحمن نقطة على جانب كبير من الأهمية ..

إن هناك نقصاً في الدعاة ومدرسي العلوم الشرعية واللغة العربية الذين يعملون في الدول الاسلامية الفقيرة ..

فماذا يحدث في المقابل من جانب الهيئات التبشيرية ؟

إنها تبعث بأعداد ضخمة من المدرسين والأطباء والمهندسين للدول الأفريقية والآسيوية ، لمحاولة التبشير لدياناتها ، عن طريق انشاء المعاهد والمدارس ومراكز التدريب والمستشفيات والمراكز الصحية ، وعن طريق الوعظ والكتب والنشرات ، ومحطات الإذاعة التبشيرية التي تدعمها امكانيات ضخمة ومستمرة ..

إن هذه الهيئات في أندونسيا مثلا تملك العديد من المطارات والطائرات التي تنقل المبشرين بين الجزر والموانئ الصغيرة ، وبين المدارس والمستشفيات ..

الجهود مبعثرة

وهذا التبشير المكثف والهادف يقابل في الحقيقة بعمل ضعيف من جانب الدول الاسلامية بشكل عام ..

فالجهود مبعثرة ، ولا يوجد تنسيق ، والفقر شديد في الموارد ..

وهذا يحدث بينما هناك أموال تنفق على مؤتمرات لا عائد لها أكثر من مجرد اللقاء والنقاش ، وكان من الممكن أن توجه بشكل سليم ويكون عائدها أفضل بكثير من نتائجها التي لا تغني ولا تفيد ..

اذن فالمشكلة في الحقيقة ليست بسيطة ..

انها تحتاج إلى جهد مكثف ودائم ..

ولكن هناك ما يدعو إلى التفاؤل برغم هذه الصورة القاتمة والمؤلمة ..

هكذا يؤكد الشيخ عبدالرحمن ..

إن وضعنا الآن أفضل مما كان عليه منذ سنوات ، وأحوالنا في تحسن ما يبشر بالخير ..

ويضيف اننا نرجو أن يكون هناك اتجاه من الدول العربية الغنية للقيام بدورها بشكل فعال في خدمة الدول المحتاجة ..

وليس المقصود بذلك الدعم المالي فقط ، بل القدرة البشرية ..

وهي تتمثل في الدعاة والكتب والمواد الطبية والمساعدات والتجهيزات والانشاءات من مبان ومحطة اذاعة ومطبعة وغيرها ..

إن هذا ضروري من أجل مواجهة الخطر التبشيري القائم الآن ..

ولك أن تتصور مدى هذه الخطورة من كل الجوانب ، ومن شتى الصور ..

إن مؤتمراً في الولايات المتحدة دعت إليه الكنيسة البروتستانتية لتنصير المسلمين جمع تبرعات لهذا الهدف بلغت ألف مليون دولار ..

وهذا المبلغ لو وضع في بنك لكان دخله السنوي مائة مليون دولار ..

فماذا يمكن أن يفيد من أجل الغرض الذي رصد له ؟ ..

لاشك أنه يمكن أن يفعل الكثير ..

● توعية القارئ دينياً ومده بالمعلومات التي ترتبط بهموم دينه والوصول إلى الجاليات الإسلامية في الخارج

● المطلوب من المسلمين كثير في مجال الدعوة بالخارج ، وقد بدأوا دخول ميدان الإغاثة ، مما يدعو للتفاؤل الحقيقي

التفاؤل موجود

وعلى أية حال فمما يدعو للتفاؤل أيضاً بالنسبة للمسلمين أنهم بدأوا يدخلون ميدان الاغاثة في أكثر من دولة وفي أكثر من مجال ..

في السودان مثلاً اشتركت ولا تزال في الاغاثة بداخله دول اسلامية متعددة من ضمنها دول الخليج : السعودية والكويت وقطر ..

وهناك أيضاً الوكالة الاسلامية الأفريقية للاغاثة ..

هذه الوكالة مقرها السودان وهي تتبع منظمة الدعوة الاسلامية الأفريقية وتقوم بجهود طيبة في مجال الاغاثة ، وهي الوكالة المتخصصة الوحيدة في هذا المجال في العالم الاسلامي ..

وبعد هذا الحديث الطويل والمتشعب من جانب وكيل رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر الشيخ عبدالرحمن بن عبدالله آل محمود ، طرأ على ذهني سؤال أخير ، قبل أن أتركه لأعماله الكثيرة ..

سألته عن جهود الرئاسة المستقبلية وخطتها القادمة في هذا المجال الهام .. مجال الدعوة الاسلامية وفي المجالات الأخرى المتعددة ..

وبنفس الهدوء والسماحة ورحابة الصدر ، جاءت الاجابة حاملة الكثير من المعلومات والاضافات ..

إن الإدارة تتعاون دائماً مع الجهات الاسلامية العاملة في الخارج ..

وهي تتبادل معها المعلومات والنشرات والمطبوعات ، وتتلقى من غالبية الجهات دعوات لحضور المؤتمرات الاسلامية المختلفة ..

كما تشترك في كثير من الانشطة الاسلامية على المستوى الدولي ، وتزود هذه الجهات بكل ما تحتاج اليه من أدوات ومطبوعات ، وتتبادل معها الرأي في بعض الأمور التي تهم الجانبين ، وتفيد الاسلام والمسلمين ..

وسوف تزيد الإدارة من هذا النشاط وهذا التعاون ..

والادارة أيضاً بحسب إمكانياتها المتاحة تحاول أن تستكمل تطوير نفسها ، بحيث تقوم بمهمتها بكفاءة عالية ، ونظم متطورة ، وجيدة ..

وهي تأمل أن تتمكن من أداء الدور المطلوب منها ، سواء في مجالات انشاء المساجد ورعايتها ، أو الدعوة والارشاد ، وخلق الوعي الديني داخل البلاد وخارجها ، عن طريق اصدار المطبوعات وايجاد دور للمسجد في التوعية الدينية عن طريق الوعاظ الذين يتم اختيارهم سنوياً بطريقة جيدة ..

خلق الوعي

ويختتم الشيخ عبدالرحمن حديثه بقوله :

— ونأمل حقيقة أن نقدم خدمة للمسلمين عن طريق طباعة عدد من الكتب المترجمة ، والتي يحتاج اليها المسلمون فعلاً في بلاد تفتقد إلى الكتاب الإسلامي بشكل عام ..

كما نأمل بامكانياتنا المتواضعة أن نتمكن من خلق وعي بالنسبة للأخطار التي تستهدف المسلمين في الكثير من الدول الاسلامية ، والتي وصلت في بعضها إلى مرحلة يكاد يقضي فيها على الهوية الاسلامية ..

ونأمل كذلك أن يصل العمل الاسلامي الخارجي إلى كل البقاع التي تحتاج اليه ، وأن يعتمد على مصادر مادية ثابتة ، لا تبرعات وقتية ، أو تبرعات تنخفض من دول الخليج بسبب الظروف الاقتصادية .

وقبل أن أتركه مودعاً علمت منه أن الرئاسة قد اشتركت في مؤسستين على مستوى عال من الكفاءة والتنظيم ، هما المؤسسة الخيرية الاسلامية في الكويت ، ونشاطها الفعلي في مرحلة البداية ، ومنظمة الدعوة الاسلامية في الخرطوم والتي قامت بجهود ضخمة في ميدان الدعوة في السودان والدول المجاورة له ..

وهكذا طال الحديث وتشعب وهكذا كانت الجولة مع المحاكم الشرعية والشؤون الدينية في دولة قطر وعنها ، جولة مفيدة ، وضرورية .. تعكس ما تقوم به من جهد في الدفاع عن الاسلام ..

السيد حجازي



أصوات

إلى كل شهيد عربي

شعر: محمد التهامي

مِنْ قَدِيمٍ أَلِفْتُ هَذِي الحِكَايَهْ   طُولَ عُمْرِي فَقَدْ نَسِيتُ البِدَايَهْ
بَيْنَ قَتْلِي وَمَوْلِدِي مُفْزِعَاتٌ   هُنَّ عُمْرِي وَمَسْرَحِي وَالرِّوَايَهْ
تَخْلِطُ المَوْتَ بِالحَيَاةِ فَفِيهَـا   لَيْسَ لِلْعُمْرِ مُبْتَدَاً أَوْ نِهَايَـهْ
تَارَةً يَسْبِقُ الفَنَـاءُ وُجُودِي   قَبْلَ نَبْضِ الحَيَاةِ تَسْعَى الجِنَايَهْ
طَالَمَا شُقَّتْ البُطُونُ الحَبَالَى   فَانْتَهَتْ مُضْغَةٌ وَصَارَتْ نُفَايَهْ
أَوْ هَوَى المَهْدِ فَاسْتُرِدَّتْ حَيَاةٌ   مَالَهَا بِالحَيَاةِ أَدْنَى دِرَايَهْ ..
أَوْ عَوَى مِدْفَعٌ فَطَارت رُءوسٌ   خَنْدَقَتْ حَوْلَنَا تَصُدُّ الرِّمَايَهْ
أَصْبَحَ المَوْتُ فِي حَيَاتِي طَرِيقَـاً   وَرَفِيقاً عَلَى الطَّرِيقِ وَغَايَهْ
صَارَ إِسْمِي إِذَا ذُكِرتُ بِأَرْضٍ   عَنْ قَتِيلٍ بِغَيْرِ ذَنْبٍ كِنَايَهْ ..
حَلَّ ذَبْحِي لِكُلِّ مَنْ كَانَ حَتَّى   أَتْقَنُوه كَحِرفَةٍ أَوْ هِوَايَهْ ..
غَارَ أَهْلِي مِنَ العِدا فَتَبَارَوْا   ثُمَّ صَارُوا أَشَدَّ مِنْهُم نكايَهْ ..
يَفْجَعُ المَوْتُ إِنْ رَمَتْهُ يَمِينٌ   كُنْتُ فِي حِضْنِهَا أَصَبُّ العِنَايَهْ
قَدْ قَصَدْنَا حِماهُمُ لَيْتَ أَنَا   مَا لَجأْنَا وَلَا نَشَدْنَا الحِمايَـهْ ..
عَرْبَدَ الغُولُ حِينَ أُوهِمُ أَنَّا   قَد فَقَدْنَا غِطَاءَنا وَالوِقَايَهْ
وَتَوَلَّى مِنْ رَاحَتَيْنَا سِلَاحٌ   وَزَّعَتْهُ الرِّيَاحُ فِي كُلِّ غَايَهْ
وَعَدَوْنَا لِكُلِّ غَازٍ مَتَاعَـاً   يَبْتَغِيـهِ وَيَسْتَطِيبُ الغِوَايَهْ
فَانْبَرَى يَزْعُمُ الوَلاءَ عَلَيْنَـا   حَاسِباً أَنْ يُدِيرَ فِينا الوِصَايَـهْ
فَإِذَا العَزْمُ شَامِخٌ فِي حِمَانا   وَلَهُ وَحْدَه تَعِز الوِلَايه ...
ذَلِكَ الكَائِنُ العَجِيبُ لِشَعْبٍ   قَدْ بَنَتْهُ الخُطُوبُ أَعْتَى بِنَايَـهْ
كُلُّ طِفْلٍ وطِفْلَةٍ فِيه صَخْرٌ   ثَبَتْ فِي ذُرَا فِلِسْطِينَ رَايَـهْ ..
رُوِّعَ الغُولُ حِينَ أَدْرَكَ فِينا   لِكَثِيرٍ مِنَ الأَعَاجِيبِ آيَهْ
نَحْنُ وَالقَتْلُ كَالمُحِبِّيْنِ ذَابا   فِي عِتَابٍ بِلَوْعَةٍ وَشِكَـايَهْ ..
قَدْ تَمَادَى لِقَاؤُنَا فَائْتَلَفْنَا   لَا عَذُولٌ يَرُدُّنَا أَوْ وِشَايَهْ
كَمْ سَعَى بَيْنَنَا سُعَاةٌ كِثَارٌ   ثُمَّ وَلَّتْ وَلَمْ تُعَقِّبْ سِعَايَهْ
إِنْ ضَلَلْنَا لِقَاءَنا بَعْضَ يَوْمٍ   عَاوَدَتْنا وَعَاتَبَتْنَا الهِدَايَـهْ
فَانظُرُوا فَالحَيَاة وَالمَوتُ فِينَـاً   وَاحِدٌ وَاشْهَدُوا كَفَـاكُم عَمَايَهْ
لَيسَ مَنْ مَاتَ رَاحِلاً بَلْ مُقِيماً   مِثْلَ مَنْ عَاشَ يَسْتَحِثُ النِّهَايَه
كَائِنٌ قَد تَحَارُ فِيهِ البَرَايا   صَامِداً خَالِداً يُعِيدُ الحِكَايَـهْ
أَرْضَعَ الثَّكْلُ صَبْرَهُ لِليَتَـامَى   غَيَّرَ الحُزْنَ فِي الجَنَائِزِ نَايَـهْ
أَذْهَلَ الهَوْلَ أَنَّـنَـا لَا نَرَاهُ   بَلْ نَرَى فِيهِ مَا اسْتَحَقَّ الزِّرَايَهْ
حَيَّرَ الغُولَ أَنَّنَا قَد كَشَفْنَـا   أَنَّ كُلَّ العِوَاءِ هَذَا دِعَـايَهْ
أَنْبَتَ القَهْرُ مِخْلَباً فِي يَدَيْنَـا   وَسَقَى النَّابَ بِالسُّمُومِ سِقَايَهْ
لِنُذِيقَ الغَرِيبَ عَنَّـا عَذَابَـاً   وَنُرَبِّي القَرِيبَ مِنَـا رِبَـايَهْ
قَد أَكَلْنَا لحومَهم حِينَ جُعْنَـا   عَطَّلَ الشَّرْعُ فِي المَجَاعَاتِ آيَهْ
وَسَحَقْنَا عِظَامَهُم وَحَفِظْنَـاها   لِنَلْقَى لَدى الحِصَـارِ الكِفَـايَهْ
ذَاكَ بَعْضٌ مِنَ الَّذِي قَدَّمُوه   فَعَلَى مَنْ جَنَى نَرُدُّ الجِنَـايَهْ
وَنَعِيشُ الحَيَاةَ طُولاً وَعَرْضَـاً   لِيَتِمَّ الرجُـوعُ كُلَّ الرِّوَايهْ

مع فدوى طوقان ورحلتها الجبلية الصعبة



بقلم : الدكتور عيسى الناعوري

أخيرا صدرت مذكرات فدوى طوقان ، بعد أن ظهرت من قبل مقالات في الصحف والمجلات : صدرت في كتاب عن (دار الأسوار) في عكا ، بعنوان (رحلة صعبة ... رحلة جبلية) وقد تفضلت الأخت فدوى فأهدت الي نسخة من هذه (الرحلة الصعبة) قضيت معها يومين في أجواء فدوى التي أعرف بعضها ، وأجهل بعضها الآخر . وأول ما أعادني اليه الكتاب بيتها القديم — أو سجنها القديم — بكل الأوصاف التي جاءت على ذكرها في الكتاب ، كما أعادني الى جو الأسرة الذى عرفته في أوائل الخمسينيات جميلا مرحا ، ولم أعرف فيه غير البشاشة ، وكرم اللقاء ، من شقيقها الحاج رحمي ، ومنها ، ومن أمها وجميع شقيقاتها . ولذلك كان الكثير من الجو القاتم الكئيب الذى وردت أوصافه في الكتاب مجهولا عندى ، أو لعلي عرفت بعضه من رسائل فدوى العديدة ، وكانت المراسلة قد استمرت بيننا سنوات من أوائل الخمسينيات ، ثم عادت فدوى فاستردتها عام ١٩٥٤ .

في هذه الرحلة تكشف فدوى عن صفحة قاتمة كئيبة ، هي في الواقع صورة عهد الحريم ابان الحكم العثماني وما بعده ، وهو عهد التسلط المطلق من الرجل على المرأة : التسلط الذى كان يفرض على المرأة الاستسلام الأعمى لسلطة الرجل ، والجهل المطلق ، والسجن ، والعبودية ، منذ طفولتها الى أن تخرج من بيت أبيها الى القبر ، أو الى بيت الزوجية بالاكراه ، وبهذا تخرج من العبودية الى العبودية ، ومن السجن الى السجن : من عبودية الأب والاخوة والأعمام والأخوال ، والعمات والخالات ، الى عبودية الزوج ، والحما والحماة ، وبنات الحماة ، وغيرهم .

هذه الصورة ليست جديدة ، فقد عرفها جيلنا ، وربما لا يزال لها بقايا الى اليوم في كثير من البلدان العربية . قد تكون اليوم أهون قليلا مما كانت من قبل ، ولكنها في بعض البيئات ما تزال تبيض وتفرخ في أعشاشها . والمرأة في ذلك لم تكن تشارك في أى نوع من أنواع الخدمة الاجتماعية ،

أو تساعد الرجل في شيء من عمله ، أو تبدى رأيها في أمر من الأمور . حتى أمورها الخاصة لم يكن لها رأى فيها : الرأى للرجل وحده . والخدمة بكل جوانبها ومعانيها للرجل وحده ، والمجتمع كله للرجل وحده ، ويقوم برأى الرجل وحده وفكره وجهده ، مهما كان مغرقا في الأمية والجهل .

وليت الأمر كان يقف عند هذا الحد ، فقد كانت المرأة محرومة من الشعور بالكرامة الانسانية ، ومن حقوق الانسان ، لأن الرجل كان كل شيء . وقد عرفت فدوى هذا النوع من الحياة ، وتألمت كثيرا ، وحرمت من كل شيء ، حتى من التعليم المنتظم ، وسجلت كل ذلك بملء الصراحة والجرأة ، فكأنما انتقمت بكتابها هذا لحق المرأة الذى طالما كان مهدورا ، ولكرامة المرأة التي طالما كانت مفقودة .

وفدوى تعبر عن ذلك في كل صفحات النصف الأول من الكتاب ، ولكنني أجتزىء بهذا المثل الصغير من ذلك في قولها ، في الصفحة (٤٠) من الكتاب :

« أما الجو العائلي فيسيطر عليه الرجل ، كما في كل بيت ، وعلى المرأة أن تنسى وجود (لا) في اللغة ، الا عند شهادة (لا اله الا الله) في وضوئها وصلاتها . أما (نعم) فهي اللفظة الببغاوية التي تتلقنها منذ الرضاع ، لتصبح فيما بعد كلمة صمغية ملتصقة على شفتيها مدى حياتها كله . حق التعبير عن النفس محظور عليها ، الضحك والغناء من المحرمات ، ويمكن اختلاسها بعد أن يغادر الرجال الى أعمالهم ، الاستقلال الشخصي مفهوم غائب لا حضور له اطلاقا في حياتها » .

ذلك بعض الصورة ... لقطة صغيرة جدا من الصورة السوداء التي التقطتها عدسة فدوى ، وقدمتها للقراء من قصة حياتها الأولى . وفدوى تقول إن قصتها « هنا هي قصة كفاح البذرة مع الأرض الصلبة : قصة الكفاح مع العطش والصخر » .

الشعور العميق بالظلم

وليست هذه أول مرة تبوح فيها فدوى بشعورها العميق بالظلم والسجن والعبودية ، فلذلك سوابق في شعرها ، وبعضه منشور في ديوانها الأول (وحدى مع الأيام) ، وبعضه في ديوانها الثاني (وجدتها) . ولعل قصيدتها (من وراء الجدران) في ديوان (وحدى مع الأيام) كانت من أشد قصائدها ثورة وتمردا على هذا الواقع المظلم . فهي تقول فيها :

بنته يد الظلم سجنا رهيبا
لوأد البريئات أمثاليه
وكرت عليه دهور وما زال
يمثل كاللعنة الباقية

وتلي ذلك نجواها الحادة المتمردة لجدران السجن ، وفي هذه النجوى كل العنف ، والتحدى ، وان يكن تحديا على الورق ، وفي الخيال الشعرى وحده ، وهو خيال أرق كثيراً من أن يهدم جدارا أو يسحق قيدا :

وقفت بجدرانه العابسات
وقد عفرت بتراب القرون
وصحت بها : يا بنات الظلام
ويا بدعة الظلم والظالمين
لعنت ! احجبي نور حريتي
وسدى علي رحاب الفضاء
ولكن قلبي ، هذا المغرد
لن تطفئي فيه روح الغناء
أغني ولو سحقتني القيود
أغاريد نفسي وأشواقها
تبارك لحني أمي الحياة
فلحني من عمق أعماقها

وفي ما عدا قصيدة (من وراء الجدران) ثمة قصائد كثيرة أخرى في ديوان (وحدى مع الأيام) ، المطبوع في مصر عام ١٩٥٢ ، والذى كان جل قصائده من وحي السجن والكبت والحرمان . خذ قصائدها : (هروب ـ أشواق حائرة ـ حياة ـ قلب يتعذب ـ طمأنينة السماء ـ في درب العمر ـ في ضباب التأمل ـ نار ونار) . في هذه القصائد جميعها قلب يتعذب ، وروح تتقلب على الجمر . في قصيدتها (قلب يتعذب) تقول :

غاضت ينابيع المنى يا حزين
فمن يروى فيك شوق السنين ؟
اذبل وجف اليوم في أضلعي
وارجع كما كنت حطاما دفين
تحت ثلوج الوحدة القاسية
نبكي معا آمالنا الذاويه
نبكى ضياع الذمم الوافية
في عالم ما فيه روح أمين

ثم ترى أن الموت هو المنقذ من السجن والعذاب ، فتقول متابعة نجواها لقلبها المعذب :

ما لك ؟ ما بالك واهي الوجيب ؟
تراك في كف الصراع الرهيب
لا ، لا تخف . فالموت أحنى يدا
مت ياصريع الغدر مت يا كئيب
أرقدك الجاني على مهد
من زهر الآمال ممتد
لم تدر أن الجمر في الورد
والسم في نفح العبير الرطيب !

الله ما أعذب شعرك القديم يا فدوى ، وما أشد سحره !

أما في ديوانها الثاني (وجدتها) فنحن أمام قصيدة تقطر دما ، هي التى عنوانها (الصخرة) ، وهي من الشعر الكلاسيكى ، على الرغم من أن فدوى حاولت أن تقطعها أشلاء ، على طريقة الشعر الحديث .

وفيها تقول :

أنظر هنا
الصخرة السوداء شدت فوق صدرى
بسلاسل القدر العتي
بسلاسل الزمن الغبي
أنظر اليها كيف تطحن تحتها ثمرى وزهرى
نحتت مع الأيام ذاتي
سحقت مع الدنيا حياتي
دعني ، فلن تقوى عليها
لن تفك قيود أسرى
سأظل وحدى في انطواء
ما دام سجاني القضاء
دعني ، سأبقى هكذا
لا نور ، لا غد ، لا رجاء
الصخرة السوداء ما
من مهرب ، ما من مفر !

عندما تتكامل الصورة

هناك في هذه القصائد القديمة ، النابعة من قلب السجن ، ومن وراء قضبانه السميكة ، نبتت حكاية كتاب فدوى النثرى الجديد (رحلة صعبة ... رحلة جبلية) ، وبصدور هذا الكتاب تكتمل الصورة وتتماسك حلقاتها . والقارىء يمشى مع فدوى في كتابها هذا مشدودا اليه ، حتى يصل الى الصفحة (١٤١) ، وهو مع البلبل الأسير المعذب في قفصه ، يحاول أن يبسط جناحيه ويرفرف بهما لعله يطير ، فيصطدم جناحاه بضيق القفص وقسوة القضبان ، فيسقط خائرا واهن القوى .

بعد الصفحة (١٤١) تخرج فدوى من بين جدران السجن ، لتنغمس في حديث السياسة والعقائديين . وليت هذا الحديث لم يكن !

ومن حديث السياسة والعقائديين تطلق فدوى جناحيها وتطير بعيدا ، لتستمتع بالحرية والنور ، في بريطانيا . وحديث فدوى عن بريطانيا كله حب ، وفرح ، ونشوة ، واعجاب : حب لبريطانيا ، وللشعب البريطاني ، ولأخلاق البريطانيين . حب شديد لا حدود له .

تقول فدوى في الصفحة (٢٠١) :

« أيامي في انكلترا لاتنسى : في انكلترا عرفت الفرح الصافي ، وفيها ضربني الموت بالصاعقة . كان منبع الفرح تجربة رائعة حلوة تقطر عسلا .

تجربة غنية ، كأنما انفلتت من حدود الزمان وحواجزه ، لتصبح دقات القلب فيها هي المقياس الحقيقي للزمن » .

وتقول أيضا في أول الصفحة التالية : « كانت تجربة باهرة ، ستظل ذكراها تبعث بالدفء الى القلب طول الحياة ، والى أن ينطفيء هذا القلب في رماد الموت » .

كانت بريطانيا بالنسبة الى فدوى نقلة هائلة من الضد الى ضده : من السجن الرهيب ، ذي الجدران الصفيقة ، الى الحرية التي لا حدود لها ... من عبوس الحياة واكفهرارها الدائم ، الى البشاشة والطمأنينة وحرية الفكر والروح . ولذلك ليس عجيبا أن تفرح فدوى بهذه النقلة الهائلة من الضد الى ضده . انني أفهم ذلك ، وأعرف لماذا استقبلت فدوى هذه النقلة بحب كبير ، وفرح كبير ، وإعجاب كبير . غير أن هذا لا يمنعني من أن أقول إن حصة بريطانيا كانت وجها آخر من وجوه الكتاب : كتاب (رحلة صعبة ... رحلة جبلية) . لقد ذهب قسم كبير من الكتاب لتمجيد بريطانيا ، من الصفحة ١٦١ الى الصفحة ٢٠٦ ، وما كان الكتاب ليتحمل كل ذلك — في اعتقادي — وليتني أكون مخطئا !

ولكن فدوى تعود الى جو الكتاب بعد ذلك ، من الصفحة ٢٠٧ الى ٢١٤ فقط ، حين تتحدث عن مصرع شقيقها نمر المأساوي . لقد كانت ما تزال في بريطانيا حين جاءها نعيه . وكان نمر هو الجناح الحنون الذي كان يظللها بعد أخيها ابراهيم ، ولذلك أعادها موته الى الجو المأساوي المعبر والموحي والمؤثر .

ثم تلي ذلك (صفحات من مفكرة — ١٩٦٦ — ١٩٦٧) ، وهي صفحات ، أو مذكرات ، لا أرى لها مكانا في الكتاب ، ولا هي من جوه . وأتساءل : لماذا شاءت فدوى أن تضيفها ؟ انني أدرك جيدا أن أفكار الانسان عزيزة عليه ، ولكن ليس كل ما لدى الانسان من أفكار يكون لائقا في كل مكان .

الاصطدام بالقيود

وبعد ، فيبدو لي أن الكاتب لا يستطيع أن يظل — على طول — في مستوى واحد من القوة والجودة والجاذبية . فطه حسين ، مثلا ، في كتابه (الأيام) كان رائعا في الجزء الأول منه ، ثم هبط الجزآن الثاني والثالث عن مستوى الأول ، مع أن الكاتب واحد في الأجزاء الثلاثة ، وكل منها يكمل ما قبله . وأنا نفسي استطعت أن أقدم في كتابي (الشريط الأسود) عملا أدبيا جيدا ، عده كثير من الكتاب الى جانب (أيام) طه حسين . وهو يتحدث عن فترة سوداء قاتمة من حياتي . وحين أردت أن اكتب بقية سيرة حياتي ، لم استطع أن أظل على المستوى نفسه من القوة والجودة والتأثير . وقد أدخل هذا في روعي أن التعاسة أقدر على العطاء الجيد ... وأما فدوى فقد استطاعت أن تكون رائعة مدهشة في النصف الأول من كتابها ، ولكنها خرجت عن روحها وأسلوبها في القسم الثاني منه :

كانت رائعة في حديثها عن مرحلة سجن الحريم ، والتقاليد التي تجعل الرجل السيد المطلق المستبد ، والمرأة عبدا لا ارادة له ولا حرية ولا كرامة . فمن خلال حديثها عن نفسها وعن بيئتها الأولى ، استطاعت أن تصور مرحلة طويلة مجرمة من التاريخ ، كان نصف المجتمع فيها مشلولا أو ميتا .

لقد تحدثت فدوى عن هذه الفترة من حياتها ، وحياة المرأة العربية والشرقية عامة ، حديثا فيه شاعرية ، وتدفق ، وصدق ، وغنى ؛ وفيه فلسفة اجتماعية في بعض أجزائه . وكان حديثها بالغ التأثير ، وقد سكبت فيه كل روحها وكل شاعريتها المبدعة ، وعبرت عن طموح كبير كان يملأ نفسها منذ الصبى ؛ ولكنه كان يصطدم دائما بالجدران الصفيقة ، والقيود العاتية :

قفي ، أين تمضين ؟ فيم اندفاعك ؟
من ذا ترين بأفق الشرود ؟
وما هذه ؟ رجفة في كيانك
مما تشد عليه القلوب ؟
تمرد روحك في سجنه
يريد يحطم تلك السدود

كما تقول في قصيدتها (هروب) من ديوانها (وحدي مع الأيام) . أو تقول في قصيدتها (طمأنينة السماء) ، من الديوان عينه :

وكان أقسى ما شجا نفسها
وابتعث الراعب من هجسها
تدفق الظلمة في يومها
في غدها المحروم ، في أمسها
ظلمة عمر ، كل أيامه
ليل تدجى في مدى حسها
النور ؟ أين النور ؟ هل قطرة
تسيل منه في دجى يأسها ؟
من أين والأنوار قد جففت
منابع الأضواء من نفسها ؟

وفي قصيدة عنوانها (في ضباب التأمل) ، كانت فدوى قد أهدتها الي حين نشرتها في مجلة (الأديب) البيروتية ، قبل نشرها في ديوان (وحدي مع الأيام) ، تقول فدوى :

فهنا خيال شاحب
لم ترحم الدنيا ذبوله
هذا خيال طفولة
لم تدر ما معنى الطفولة
وهنا صبيّ عضت عليه
قيود سجن واضطهاد
باك ، ذوت أيامه
خلف انطواء وانفراد
وهنا شباب ما يزال
يجوس قفرا اثر قفر
متحرق أبدا الى
شيء ... الى ما لست أدري

ثم تتساءل الشاعرة حيرى قانطة :

لم جئت للدنيا ؟ أجئت
لغاية هي فوق ظني ؟
املأت في الدنيا فراغا
خافيا في الغيب عني ؟

وفي النهاية تقول :

فأنا سأمضي : لم أصب
هدفا ولا حققت غايه
عمر نهايته خواء
فارغ مثل البدايه !
هذى حياتي : خيبة
وتمزق يجتاح ذاتي
هذى حياتي . فيم أحياها ؟
وما معنى حياتي ؟

آثار القيود

هذه القصائد وأمثالها ، كانت يومئذ — في أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات — زفرات مشتعلة ، تنفثها فدوى محاولة أن تطلق جناحيها من القيود . وكانت قد بدأت فعلا تنطلق من القيود . ولكن آثار القيود كانت ما تزال محفورة في نفسها عميقة عميقة . فالقصائد اذن كانت بواكير لهذه الفصول التي عادت فدوى تدونها في نثر عذب كالشعر ، بعنوان (رحلة صعبة ... رحلة جبلية) ، وقد وفقت في التدوين نثرا ، مثلما كانت قد وفقت في التصوير شعرا .

عيسى الناعوري





بقلم :
الدكتور عبد السلام العجيلي

صديقي العزيز

أحييك ، راجياً أن لا تعتب علي إذ يجيئك جوابي متأخراً. رسالتك لم تصل إلي إلا منذ يومين . معنى ذلك أن رحلتها من يدك إلى يدي استغرقت من الوقت ثلاثة أسابيع بالتمام والكمال . ومع ذلك فليس لك أن تستغرب أو تستنكر هذه الأسابيع الثلاثة .

فالتأخر هو عادة البريد المألوفة في هذه الأيام في كل مكان ، أو في شرقنا العربي على الأقل . ربما كان علينا أن نحمد حظنا أن يقتصر الأمر على تأخر وصول رسائلنا الينا ، فلا تفقد في انتقالها من بلد إلى آخر ، ولا سيما إذا كان محتوى تلك الرسائل مشهياً ومغرياً .

كان من عادتي أن أبعث إلى أصدقائي ، من كل بلد أحله في أسفاري المتعددة ، بطاقات بريدية مصوراً فيها أجمل ماتقع عيني عليه من مناظر أو من روائع فنية تضمها متاحف العالم المختلفة . إلا أني تركت هذه العادة في الزمن الأخير . تبين لي أن بطاقات تحتوي صوراً من أمثال تمثال القبلة لرودان أو أمور وبسيشيه لكانوفكا ، وروائع فنية مشابهة ، أقول تبين لي أن بطاقات مثل هذه تختفي دوماً في الطريق إلى من أرسلها اليهم .

كنت ، مثلاً ، أتحف بعض أصحابي بصورتي اللوحتين المشهورتين ، مايا الكاسية ومايا العارية ، اللتين رسمهما غويا لدوقة آلبا ، في كل زيارة لي لمتحف البرادو في مدريد . إلا أن من أبعث بهاتين الصورتين إليهم يفتقدون في غالب الأحوال وجودهما في المظاريف التي يتلقونها مني . وإذا اسعد أحدهم الحظ فإنه يجد في مظروفه صورة مايا الكاسية وحدها ، إذ يبدو أن من مد يده إلى ذلك المظروف معجب بعري دوقة آلبا لا بالثياب الملفوفة التي كساها بها غويا في اللوحة الأخرى ...

هذا عن بطاقات البريد المصورة والممثلة لروائع الفن من لوحات وتماثيل . أما عن الكتب والدوريات المطبوعة وما شابهها فإن مصيبتي أنا وأصحابي فيها كبيرة . كثيراً ما تشاكيت وإياهم أمر فقدان الكتب التي ترسل الينا أو نرسلها نحن في البريد ، حتى المسجل منه . وفي ذات مرة كتبت إلى الصديق الدكتور عيسى الناعوري رسالة عرجت فيها بالحديث عن هذه المشكلة وتساءلت عما إذا كان السبب في فقدان الكتب أن اللصوص أصبحوا في هذه الأيام مثقفين فنسعد بذلك ، أم أن المثقفين أصبحوا لصوصاً فنأسى له؟ وقد تلقف الدكتور الناعوري هذه الكلمة فعقد عليها مقالاً في زاويته من جريدة الدستور ، ناقلاً لها على لساني ، مما سبب لي بعض العتب ممن قرأوا مقاله وظنوا أني أعنيهم بكلمتي . ولم يرتفع عني عتبهم إلا حين أقنعتهم بأنهم كانوا بعيدين عن تفكيري حين تساءلت ذلك التساؤل لأنهم ، أعني أولئك العاتبين ، ليسوا من هؤلاء ولا من أولئك ...

وبعد ، فأحسبك ياعزيزي تقول الآن إني ، فيما كتبته لك ، أذكرك بالتعبير الشائع : لا تشك لي فأبكي لك ! وذلك لأني أجبت على شكواك بشكوى مثلها . وكان المنتظر أن أواسيك فيما تذمرت منه في رسالتك وأن أخفف من ضيقك به . وهو ما أشك في فعلي له ، وستعلم مني لماذا .

شكواك ياصاحبي تتلخص في أن الرجل أحسنت إليه وأحطته بالرعاية والعناية ، فارتفع بفضلك من الحضيض إلى مناصب ماكان يحلم بتسنمها في يوم من الأيام ، هذا الرجل خانك وانحاز الى خصمك . وقد فاضت رسالتك بالمرارة من فعلته هذه ، ومما

اكتشفته من مؤامرات كان يحيكها ضدك في وقت كانت يدك فيه تحمل إليه الطيبات وتدسها في حلقه. وبعض المرارة في رسالتك كان مبعثها ماعتبرته أنت غباء منك حين غفلت عن لؤم ذلك الرجل. فضعة منبته وحقارة بداياته، على ماكتبت لي في الرسالة، كانتا جديرتين بأن تحذراك من احتمال انقلابه عليك في ذات يوم. إلا أنك غفلت عن ذلك الاحتمال وظننت أن اغراقك إياه بالفضل وتنصيبك له في مكانة ليس مؤهلاً لها سيجعلان منه عبداً مقيداً باحسانك الذي لا يمكن أن ينساه أويجحده.

أبدأ فأقول إن هذه الشكوى التي سقتها إلي في رسالتك ليست الأولى من نوعها في تاريخ العلاقات البشرية. الجحود ونكران الجميل ديدن متبع ومشهود في كل الأمكنة وكل الأزمان. ولابد أن بصرك يقع يومياً أكثر من مرة على اللافتات المعلقة في المكاتب والمحلات التجارية وأبهاء المنازل والتي تحمل هذه الحكمة المشهورة «اتق شر من أحسنت إليه». فكأن إساءة من تحسن اليه، إليك، أمر محتم عليك أن تتهيأ له وتأخذ منه حذرك. وفي هذا المجال أروي لك حكاية تنقل عن الدكتور و، الذي ماأظنك إلا وقد سمعت باسمه. فهو رجل معروف في بلده، كان في أحد العهود البائدة ذا مقام سياسي بارز. كان الدكتور و. ذات مرة يتمشى على كورنيش الشاطئ في بلدته الساحلية، وذلك بعد أن دالت دولته وظهر عليه خصومه السياسيون. فوقفت إلى جانبه سيارة للبلدية فيها ثلاثة رجال تعاونوا على رفع برميل قمامة في السيارة وألقوا محتواه عليه. تطلع صاحبنا إلى الرجال الثلاثة متفرسا فيهم، وقال: أنت يافلان أعرفك... جئتني تشكو الفقر وكثرة العيال فعينتك في هذه الوظيفة في البلدية... وأنت الآخر أعرفك جيداً، فمنذ فتحت عيادتي في هذه المدينة وأنا أعالجك وأسرتك مجاناً... أما أنت أيها الثالث، فلا أذكر أن عيني وقعت عليك قبل اليوم... لم أحسن إليك بشيء فيما مضى، فما الذي يدفعك إلى الإساءة إلي؟!

اتق شر من أحسنت إليه! لاتحسب ياصديقي أني ممن يحبون هذه الكلمة، فأنا أثور دوماً في وجه من يعلقها مكتوبة في لافتة، في منزله أومقر عمله، من أصحابي. إنها كلمة تدعو إلى التقاطع وتسد سبيل فعل الخير أمام فاعليه. وإذا كان من لوم في هذا المجال فإن جزءاً كبيراً منه يقع على فاعل الخير نفسه حين لم يحسن وضعه في موضعه... كما فعلت أنت، مثلاً، ياعزيزي. من قراءتي لشكواك أجدني مسوقاً إلى أن أردد عليك المثل العربي القديم: يداك أوكتا وفوك نفخ. هذه الكلمة، كما يذكرها الميداني في مجمع الأمثال، قيلت لسابح قصد جزيرة في البحر على زق نفخه وما أحكم نفخه أو ماأحسن ربط فوهته بعد النفخ. أشرف ذلك السباح على الغرق حين أخذ الهواء يتسرب من الزق والشاطئ بعيد منه، فراح يستغيث ويشتكي مما أوقعه به الزق، فقال له الآخر: لاتلم غير نفسك... يداك أوكتا وفوك نفخ!

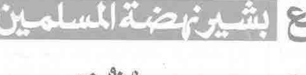
أرجو أن لا تعتبرها مني شماتة إذا جبهتك بلومي هذا. أنت انتقيت رجلك الذي تشتكي منه اليوم، على الرغم من سابق معرفتك بعيوبه. فضلته على من هو أجدر منه بأن ينال قربك وبأن يتولى ماأسندت إليه من مناصب. قلت لنفسك إن هذا الهش الدنيء سيظل طوع بنانك لأنك أحللته، على ضعفه وحقارته، محل الخيرين الأكفاء. فانظر إلى مافعله بك البغاث حين استنسر. مرة أخرى أقول لك: لاتشتك... يداك أوكتا...

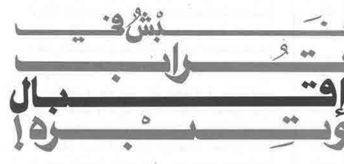
أعرف أنك في هذه اللحظة تبتسم لنفسك، على الرغم من مرارة شكواك، وتقول من أين جئت لي بهذا المثل الذي يحتاج إلى قاموس لفهم مفرداته. حسناً... سأعيد عليك المعنى ذاته في صيغة ترضاها وتلقى هوى من نفسك، أنت الذي تقول بالتقدمية وتشغف بالمعاصرة. صيغة تؤدي أحسن الأداء ماأريد التعبير عنه لك. إنه مثل روسي يخاطب من حالهم مثل حالك وشكواهم مثل شكواك فيقول لهم: تصنعـون الأصنـام من الثلج، ثم تشتكـون من أنها تذوب!

لك مني، في الختام أطيب التمنيات، واسلم لصديقك..

الرقة ــ سورية







بقلم: عبد التواب عبد الحي




الشاعر محمد اقبال

من هو شاعر الشرق محمد إقبال ؟ من أين جاء ؟ وكيف قطع خطواته على خط الحياة ، وخاض بحار الشعر وأسرار ال « خودي » أو النفس ، ودار في دروب السياسة والفلسفة والقانون والاقتصاد ؟ ثم : كيف الآن مرقده ؟!

لقد تتبعته من موطن إلى موطن على أرض الواقع في باكستان .. من مسقط رأسه في سيالكوت ، إلى لاهور حيث عاش ومات .. ومن ديوان شعر لديوان .. حتى أوراقه الخاصة .. وحتى مرقده الأخير في أحضان مسجد بادشاهي العظيم بلاهور !

إنها محاولة لنبش تراب إقبال .. وتبره !

ابتدرني جافيد إقبال رئيس المحكمة الشرعية العليا في لاهور ، وابن الشاعر الفيلسوف السياسي الاقتصادي القانوني محمد إقبال : « لم يعد عندي كثير أضيفه إلى سيرة أبي ، فوق ما ذكرته في كتابي عنه ــ زنده رود ــ أو : « نبع الحياة الدائم » .. ثم أهداني الكتاب الضخم بأجزائه الثلاثة . وسهرت على الكتاب ٤ ليال متواصلة . كنت كلما ازددت معرفة بإقبال ، كلما إزداد عطشي إلى سيرته الحية !

زرت بيت العائلة الذي ولد فيه إقبال بمدينة سيالكوت ، مسيرة ٨٥ كيلومتراً من لاهور . يسمونه منزل إقبال « **Iqbal Manzil** » . وهو الآن متحف ومزار تاريخي . زرت كذلك البيت الذي بناه في لاهور ، وعاش فيه حتى مات . بناه وأسماه باسم ابنه جاقيد ــ جافيد بالأوردية : الخالد الدائم ــ ثم وهبه له حال حياته ، وظل يدفع له كل شهر ٥٠ روبية إيجاراً ! وختمت الزيارة بمقبرته في أحضان مسجد بادشاهي العظيم بلاهور ، وقرأت الفاتحة على روحه وماتيسر من آي الله !

والسباحة في بحر إقبال عملية مضنية . أشعاره عميقة وعويصة حتى على من يجيدون اللغة الأوردية . وقد كانت مهمته في الحياة أيضاً عميقة وعويصة .. كان هدفه المصوب إليه : تدمير الأساطير المزيفة وعبادة الفرد .. وافساح الطريق بين المخلوق والخالق مباشرة ! وكان أميناً مع الحياة ، ومع تعاليم الاسلام . إقرأه يقول : « عبد طريقك بفأسك .. فالطريق إلى جهنم أن تطأ طريق غيرك » !

في لقاءاتي بالرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق ، سمعته يردد كثيراً من أشعار إقبال وأفكاره السياسية . لكن أخطر حقيقة إكتشفتها في بحثي في حياة إقبال أنه لولاه مااستمر محمد على جناح ــ مؤسس دولة باكستان ــ في العمل السياسي ، ولولاه ماأنشئت للمسلمين في الهند دولة ! دلتني هذه الحقيقة على أحداث قصة واقعية . كان ذلك صيف سنة ١٩٣٦ . تعقدت أمور السياسة في الهند ، وسد الانجليز كل المنافذ أمام أي أمل في الاستقلال . وبذرة إنشاء دولة للمسلمين في الهند كانت جنيناً في بطن استقلال شبه القارة الهندية بوجه عام . كانت جزءاً من كل . فاذا استعصى الكل ، استحال الجزء ! وسافر محمد علي جناح إلى لندن وفي نيته أن يعتزل النضال ، ويضع نهاية لعمله السياسي . سقط في قاع بئر اليأس . لولا أن كتب له إقبال خطاباً ملهماً مشحوناً بالوطنية والحث على استئناف النضال .. : « إنك المسلم الوحيد في الهند الذي تنظر إليه جماعة المسلمين ليرشدها إلى الخلاص » ! وكأن خطاب إقبال إلى جناح كان شحنة من كهرباء عالية الفولت . عاد محمد علي جناح إلى الهند . استأنف النضال . وعقد مؤتمرا عاما لمسلمي الهند في لاهور ، ٢٣ مارس سنة ١٩٤٠ . واتخذ المؤتمر قراراً محدداً : إنشاء دولة لمسلمي الهند تشمل ولايات البنجاب والحدود الشمالية والسند وبلوشستان . ونشط تشودري رحمة علي ،الطالب بجامعة كامبريدج يرسم الخرائط المساحية للوطن المسلم الجديد . وابتكر اسم : باكستان . الباء أول حرف في ولاية بنجاب . والكاف من كشمير . والسين من السند . ومقطع « تان » من بلوشستان ! وإن قال البعض بتفسير آخر للاسم : « باك » بمعنى نقي في اللغة



مسجد بادشاهي في لاهور



محمد اقبال في طفولته

الأوردية . و « ستان » بمعنى مكان العيش . باكستان إذن : أرض الأنقياء ! وفي ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ أعلن ميلاد باكستان دولة لمسلمي الهند مستقلة . تحقق الحلم !

على أن حلم الدولة كان له في وجدان إقبال تاريخ قديم . في ٢٩ ديسمبر سنة ١٩٣٠ ، وفي مؤتمر لمسلمي الهند بمدينة الله أباد ، ألقى محمد إقبال خطاباً سياسياً جامعاً .. فيه قال : « إن من صالح الاسلام والمسلمين في جنوب آسيا أن تكون لهم دولة مستقلة ، على الأقل في ولايات الشمال الغربي من شبه القارة الهندية ، حيث تتركز الأغلبية المسلمة من الهند . ويبدو لي أن هذا هو المصير النهائي للمسلمين في تلك المناطق » .. وقد كان خطاب إقبال في الله أباد هو « حجر الأساس » لدولة باكستان . وإن تطور فكر إقبال تالياً بمناقشاته مع محمد علي جناح ، ليتسع نطاق الدولة حتى يشمل البنغال في شمال شرق الهند .. والذي انفصل بعد انشاء الدولة ، تحت إسم « بنجلاديش » !

بشير نهضة المسلمين !

في الجانب العقائدي ، كان محمد إقبال يؤمن بضرورة تحرير عقل المسلم من عقم خمسة قرون من النعاس والظلم . وكخطوة أولى ، كان يرى تطهير الطريق إلى الله من آفة عبادة الفرد ، ومن المرائين الذين يتظاهرون بالصلاح والتقوى « Pharisees » . وكان ينشد :

قوموا .. أيقظوا فقراء العالم من سباتهم .
هزوا شبابيك البيوت .. والحيطان .
دمروا كل آثار الماضي البغيض .
ابحثوا عن الحقول التي لا تنتج للفلاح خبز يومه ..
واجمعوا محصولها .. وفي الفرن أحرقوه !
انفوا من بيوت الله كل واعظ يعظ ..
بغمغمات تمدد حجاباً بين العبد والخالق !

وفي الجانب السياسي كان إقبال ضد التعصب ويعشق الحرية ، هي عنده شيء لابد منه « Sinequanon » لتنمية النفس وازدهار الذات . يقول إقبال : « في ظل العبودية ، تصاب الحياة بهزال شديد وتتضاءل حتى تصبح كنهير صغير . بينما تزدهر في ظل الحرية وتتعاظم ، حتى لتصبح كمحيط بلا شطآن » !

وكان إقبال متعصباً للديمقراطية .. وضد الأوتوقراطية وحكم الفرد . نشرت له « الجريدة المدنية والعسكرية » ، في ٣٠ يوليو سنة ١٩٣٠ ، رسالة بليغة .. فيها يقول : « إن ظن أحد أن الديموقراطية تشبه نزهة حالمة في بحيرة اللوتس ، فهو لم يقرأ في التاريخ ولا كلمة ! الحقيقة عكس ذلك تماماً . فالديموقراطية تطلق كل أنواع الطموح والالهام والهموم والآلام التي كتمها حكم الفرد ، أو عجز عن تحقيقها .

وهي في الغالب هموم وطموحات لا يمكن تحقيقها كاملة . لكن بمناقشتها على نحو مفتوح ، في الصحافة والبرلمان ، يتعلم الناس كيف يقبلون حلولاً لهمومهم وطموحاتهم . قد لا تكون حلولاً مثالية ، لكنها حلول عملية طبقاً لظروف العصر ومعطياته . والحكومة الديمقراطية تواجه عادة بعض الصعوبات في إدارة دفة الحكم .. لكنها صعوبات أثبتت الخبرة الانسانية ، عالمياً ، أنه من الممكن التغلب عليها » !

وفي رسالة أخرى نشرتها له نفس الصحيفة ، ٢٨ مايو ١٩٣٧ ، يقول إقبال : « إن قبول الاسلام للديموقراطية الاجتماعية ، في صورة تتواءم مع مبادئه الشرعية والقانونية ، لايمكن أن يعتبره البعض ثورة . انه مجرد عودة الى النقاء الأصلي للشريعة الإسلامية » .

... لبعض هذا ، أولكله ، كان محمد علي جناح يطلق على إقبال لقباً طويلاً : النافخ في بوق فكر الاسلام وثقافته .. وبشير نهضة المسلمين !

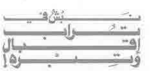
للتاريخ رائحة !

من هو إقبال ؟ من أين جاء ؟ وكيف قطع خطواته على خط الحياة ، وخاصة بحر الشعر وأسرار ال « خودي » أو النفس ، ودار في دروب السياسة والفلسفة والقانون والاقتصاد ؟ ثم : كيف الآن مرقده ؟

هو ، في الأصل ، من كشمير . الجد كشميري نزح إلى مدينة سيالكوت العاصمة التاريخية القديمة لولاية البنجاب ، أواخر القرن ١٨ أو أوائل القرن ١٩ أي جد ؟ ربما كان جده الأكبر الشيخ جمال الدين ، أو جده الأول الشيخ محمد رفيق . أما أبوه الشيخ نور محمد فالمؤكد أنه ولد في سيالكوت . إذن هو يحمل اسماً كاملاً بهذا الطول : محمد إقبال نور محمد محمد رفيق جمال الدين . لاحظ أن الأسماء ثنائية !

ولدته أمه السيدة « إمام بيبي » في بيت العائلة بسيالكوت يوم ٣ ذوالقعدة سنة ١٢٩٤ هجرية ، ٩ نوفمبر سنة ١٨٧٧ ورأيت ساعة الحائط في غرفة نومه ببيته « جافيد منزل » بلاهور وقد توقفت بالضبط على لحظة موته : الساعة وثلاث دقائق صباح ٢١ إبريل سنة ١٩٣٨ . تحسب عمره باليوم والساعة والدقيقة ، تجده : ٢٢٠٧٧ يوماً ، و٤ ساعات ، و٣ دقائق !

يطول تاريخ مدينة سيالكوت ، إنما يمكن ايجازه في ومضات سريعة . في فترة من تاريخها كانت تحمل اسم ساجلا . حكمها « راجا سول » وأسرته ١٥٠٠ سنة كاملة . ثم سقط حكم الأسرة . اجتاح المدينة فيضان مدمر ، وعاشت أطلالها في سبات طويل ، إلى أن أعاد « سوم دات » بطريك كشمير بناءها .. وحكمها ! ويجمع المؤرخون الاغريق آريان وكيرتيوس وديودوتس على أن الاسكندر الأكبر حاول غزو المدينة سنة ٣٢٦ ق . م ، استعصت عليه ، فقد كانت محمية جيداً بالأسوار العالية تحيط بها خنادق الماء ! ثم أصبحت سيالكوت مركزاً لتعليم البوذية . وفي العصر الاسلامي ، خشي حاكم إقليم البنجاب من غزوة تجيئه من كابول عاصمة أفغانستان ، فنقل عاصمة ملكه من لاهور إلى سيالكوت . وتحقق الغزو على يد السلطان محمود الغزنوي ، وسقطت سيالكوت ، فنقل الراجا عاصمته إلى لاهور مرة أخرى !



أدخل السلطان المغولي جيهانجير صناعة الورق إلى سيالكوت .. أفخر أنواع الورق . وكان يسمى « الورق الجيهانجيري » .. وبالورق والقلم ، بدأت نهضة ثقافية كبيرة في المدينة ، حتى أصبحت عاصمة للأدب والثقافة في شبه القارة الهندية . ثم انتقل حكم إقليم البنجاب إلى أسرة من قبائل الباختون . وجاء السيخ فانتزعوا منهم السلطة ، وعينوا « جيت سنج » حاكماً للمدينة . وسقطت سيالكوت في بحر الاضمحلال ، وفقدت أهميتها السياسية والثقافية ، إلى أن جاء الاحتلال البريطاني للهند . قاومت سيالكوت الاحتلال تحت قيادة « حرمت خان » وأعوانه . لكن الجيش البريطاني أخضعهم . وقتل حرمت خان . ونكل بأهل المدينة ذبحاً وتقتيلا ! لم تلبث سيالكوت أن استعادت مكانتها . ولدت من جديد كمدينة صناعية حديثة من مدن البنجاب . وازدهر التعليم . وانتعشت أكثر بعد استقلال باكستان . واشتهرت كمركز تجاري للأدوات الطبية ، وأدوات الرياضة ، والمنتجات الزراعية !

....

تدخل بيت العائلة ، أو منزل إقبال بمدينة سيالكوت ، تزكم أنفك رائحة التاريخ . جده الشيخ محمد رفيق إشترى هذا البيت في فبراير سنة ١٨٦١. من الصعب تحديد الغرفة التي ولد بها إقبال ، لكنها على الأرجح واحدة من غرف ثلاث في مؤخرة المنزل ذي الطابقين . وفي إحدى هذه الغرف أيضاً ولد جافيد إقبال في ٥ أكتوبر سنة ١٩٢٤ . ظل إقبال في هذا البيت حتى الصف التاسع الدراسي ، ثم انتقل إلى لاهور ليواصل دراسته . لكنه لم ينقطع عن زيارته ، كل إجازة صيف ، وكأنه على موعد عاطفي ! وفي هذا البيت تلقى دروسه الأولى على يد والديه ، ثم شقيقه الأكبر الشيخ عطا محمد ، ومدرسه الخاص شمس العلماء سيد ميرحسان ، والشاعر ميرزا داغ حاكم ولاية دلهي ، وكان أول من رصد في إقبال وميض شرارة الشعر ! هنا أيضاً كتب إقبال أول قصيدة شعر ، فبراير سنة ١٩٠٠ ، وعمره لا يتجاوز ٢٣ سنة .. إنها « ناله يتيم » ، أو صرخة يتيم .. فيها يصور بؤس اليتيم ، وانعدام جذوره ، وضياعه ! أما أبوه الشيخ نور محمد فكان يقرأ أعماله قبل الطبع . وكان معجباً بصفة خاصة بأشعار ديوانه أسرار النفس "Asrar-i-Khudi" . يترنم بها بفخار كلما خلا بنفسه !

بعد وفاة أبيه سنة ١٩٣٠ ، تنازل محمد إقبال عن البيت لأخيه الأكبر الشيخ عطا محمد . ثم اشترت الحكومة الباكستانية البيت سنة ١٩٧١ ، لقاء ١٢٥ ألف روبية ، رممته وحولته إلى متحف وأثر تاريخي .

حبة مانجو واحدة !

كان إقبال متمكناً من اللغة العربية ، فقد حصل على درجة البكالوريوس فيها من جامعة البنجاب بلاهور . لهذا ترصد في أشعاره كثيراً من الكلمات العربية ، إلى جانب الكلمات التركية والفارسية ، وكلها مستوعبة ومذابة في اللغة الأوردية ! حصل بعد ذلك على ليسانس الحقوق من جامعة لندن سنة ١٩٠٥ ثم الدكتوراة في الفلسفة من جامعة ميونيخ سنة ١٩٠٧ ، وكان موضوع رسالته « تطور ماوراء الطبيعة في فارس » . وبعد أن اشتغل لفترة مدرساً في المدرسة الشرقية بلاهور ، ثم الكلية الاسلامية ، هجر مهنة التدريس ، واشتغل بالمحاماة . وكان قنوعاً ، نفقاته الشهرية لاتتجاوز ٥٠٠ روبية ، ولا يقبل من القضايا أكثر مما يكفل له هذا المبلغ ! ثم ازدهر مالياً نسبياً عندما بدأت الشركات تسجل قصائده على اسطوانات .. دفعوا له ٥٠ روبية على الاسطوانة . ارتفعت بعد ذلك إلى ١٥٠ روبية .. أي ما يعادل ٨ دولارات بأسعار هذه الأيام !

تزوج اقبال في حياته ٣ مرات . الأولى : كرم بيبي . وأنجب منها ولداً إسمه أفتاب . توفى أخيراً في كراتشي ودفن بها . والثانية : مختار بيجوم ، ولم ينجب منها . والثالثة : صدار بيجوم ، وأنجب منها جافيد رئيس المحكمة الشرعية العليا بلاهور الآن ، وابنة اسمها منيرة ، سيدة بيت متزوجة .

وكان كثير الأسفار . زار معظم دول أوربا . صلى في مسجد قرطبة . ومن وحيه كتب قصيدته مسجد قرطبة "Masjid-i-Qortoba" . وزار القدس فلسطين ليحضر إحدى دورات المؤتمر الاسلامي بها . وزار كابول عاصمة أفغانستان سنة ١٩٣٣ ، وشارك في وضع سياسة جديدة للتعليم هناك . وعاد ليكتب قصيدته مسافر « Musafir » . لكنه سقط مريضاً بالحمى ، وظل يعاني من المرض شهوراً طويلة !

له ١٠ دواوين تضم أشعاره . أول ديوان هو « أسرار النفس » . فيه يؤكد ، على مدى ١٥٦ صفحة باللغة الفارسية ، أن شكل الحياة يأخذ كل تأثيراته من نفس الإنسان ! وآخرها ديوانه « رسالة من الحجاز » أو "Armughan-i-Hijaz" .. ولم ينشر إلا في نوفمبر ١٩٣٨ .. بعد وفاته بستة شهور ! ومثلما نظم إقبال ، نثر .. له كتابان : « علم الاقتصاد » و « تاريخ الهند » ..

في بيته « جافيد منزل » بلاهور ، والذي أصبح مزاراً تاريخياً ، تجد كل شئ على ما كان عليه لحظة وفاته في الرابعة وثلاث دقائق صباح ٢١ إبريل سنة ٣٨ . ملابسه . قمصانه بغير ياقات كموضة أيامنا هذه ! وكلها تشي بأنه كان متوسط القامة ، طوله في حدود ٥ أقدام وبضع بوصات ، ومقاس رقبته ١٦،٥ بوصة .. أي أنه كان ربعة يميل إلى الامتلاء . يؤكد ذلك ما عرف عنه من أنه كان شغوفاً بألوان الطعام . وكان يعشق فاكهة المانجو . منعه طبيبه من الإكثار منها ، فقد كان يعاني من الربو والحساسية .. لكنه زاره مرة فوجده يلتهم حبة مانجو في حجم الشمامة .. عاتبه .. رد إقبال : « ياسيدي الطبيب .. إنها حبة مانجو واحدة » ! وقد أصابته الحساسية والربو باختناق . أواخر أيامه ، أودى بحياته !

وكان إقبال يدخن « الهكة » . وهي تحريف للحق ، بضم الحاء ، بمعنى الوعاء الصغير من المعدن . إنها الشيشة أو النرجيلة . تجدها بجوار سريره جاهزة ! وقد كان يلازم غرفة نومه كثيراً . وغالباً مايتناول طعامه بها . ويقوم على خدمته « علي بكش » خادمه الخاص !

ومازالت غرفة الصالون على ماهي عليه . لو تكلمت مقاعدها لحكت الكثير عما دار بين إقبال ومحمد علي جناح والبانديت نهرو في لقاءاتهم العديدة الطويلة في المكان ، في ماضي الزمان ! كان يحب ابنه جافيد . لكنه كان متعلقاً بابنته منيرة أكثر . عندما مات إقبال كان جافيد في الأربعين من عمره ، بينما لم تكن منيرة قد جاوزت ٨ سنوات .. لهذا كان قلقاً عليها .. وظل يردد اسمها كلما أفاق من أزمته الربوية ، حتى أسلم الروح !

٥ آلاف عنوان !

أين شاعر الشرق الآن ، والأب الروحي لباكستان .. وكيف مرقده ؟

كان من خطط محمد علي جناح أن يبني لإقبال مقبرة عظيمة ينقل إليها رفاته .. فور الاستقلال وإعلان ميلاد دولة باكستان في ١٤ أغسطس سنة ١٩٤٧ لكن الأحداث السياسية الجسام أخرت بناء المقبرة حتى سنة ١٩٥١ !

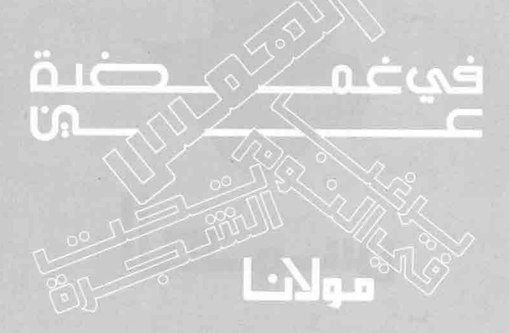
وضع تصميم المقبرة المهندس الباكستاني نواب يارجانج بهادور . في خطوطها مزيج من العمارة الأندلسية والأفغانية . وقد بنيت في أحضان المسجد الكبير ، مسجد بادشاهي بلاهور ، فيما بين مدخله الرئيسي وإحدى مآذنه . واستعمل في البناء الحجر الرملي الأحمر . وداخل المقبرة مبطن بالرخام الأبيض ، منقوش عليه ٦ أبيات من قصيدة لإقبال . وأبيات أخرى تعبر عن موقفه الصارم من التفرقة العنصرية بين بني الانسان . أما رخام اللحد فهدية من الحكومة الأفغانية .

وقفت على لحد إقبال أقرأ الفاتحة وماتيسر من آي الله ، قبل أن أدلف إلى مسجد بادشاهي لأصلي الظهر .

....

ليس ما فات هو كل بحثي عن إقبال ، ونبشي في ترابه وتبره . للبحث بقية . ربما في كتاب . لعله يضيف عنواناً جديداً إلى خمسة آلاف عنوان صدرت عنه حتى الآن .. باللغات الحية !

عبدالتواب عبدالحي







خمس قصص جديدة للكاتب الكبير نجيب محفوظ



يسعد الدوحة أن تقدم هذه القصص الخمس القصيرة ، وهى قصص جديدة للكاتب الكبير نجيب محفوظ كتبها خصيصا للدوحة ، وقد رأينا فى هيئة تحرير المجلة أن ننشرها مرة واحدة ، عندما أحسسنا أن هناك تشابها بين هذه القصص فى الأجواء التى تصورها ، وكأن هناك خيطا مشتركا يربط بينها جميعا ، وسوف يجد القارىء فى هذه القصص الخمس ماتعود أن يجده دائما فى أدب نجيب محفوظ من متعة وعمق وأصالة ، بالإضافة إلى ذلك فإن الدوحة يسعدها أن تقدم هذه القصص مع مجموعة من اللوحات الرائعة أعدها الفنان القطرى الشاب سلمان المالكى

بريشة : سلمان المالكي



الهمس

يخطر لى أحيانا أن الراحة الحقيقية لا توجد إلا بزوالهما معا ، هو وهى . ولكنه مجرد خاطر يعبر القلب إذا اشتد العنت أو إدلهم الخطب . خاطر لا وزن له فى الواقع ، حلم يقظة أخرق . وهل تصبح الحياة حياة الا من خلال التعامل معهما معا ؟ ، وهل يمكن تخيل الوجود بدونهما ؟ . أما حيرة المتردد بينهما فهى قدره الذى لا مفر منه . فى البدء تردد همسه بالمحاذير والدعوة إلى الاعتدال حيال بسماتها المغرية ، فتحدث هى محاذيره وهونت من ترشيداته . ويكفهر وجهه ويفجر انذاراته . فتغضب هى وتغرينى بتجاهله أو تشكك فى جديته ، وأنا لا غنى لى عنها ولا قدرة لى على تجاهله . فى أيام البراءة لعبنا معا — أنا وهى — فى نور الشمس تحت السمع والبصر ، ولكن همسه يقتحمنى قائلا:

— حافظ على نظافة ملابسك وسلامتها .

ولكن اللعب يحب الحرية ، أليس كذلك ؟ . فيهمس .

— اللعب الرشيد لا يتنافر مع النظام !

وامتعض وأتضايق . اللعب هو اللعب . لماذا يقيد لعبى بنواهيه ؟ . لماذا يفسد علي مذاق الأيام الحلوة ؟ ! . فلتتسخ الملابس فثمة من يغسلها ، ولتتمزق فالسوق مليئة بالجديد . وهو كبير ولديه ما يشغله نهاره وليله فلم يهدر وقته فى تكدير صفوي رغم حبنا المتين المتبادل ؟ . وترنو هى الي بعينيها الصافيتين وتتساءل :

— أرأيت تعسفه ؟

ثم تواصل بحدة :

— لم لا يتركنا وشأننا ؟ ، ولم تعمل كل هذا الحساب لكلمة تصدر عنه ؟

ولكنه قوى ، والمالك الأوحد للبيت وأدوات اللعب وكل شيء . وعلمتنى التجربة أن الاستهانة به غير محمودة العواقب . ها هو يهمس أيضا .

— البنت ماكرة بقدر ماهى لطيفة . أنا أعرفها كما أعرفك ، اسمع كلامى أنا ، ولست أمانع فى لعبك معها ، العب معها ماشئت ولكن عليك بالاعتدال والنظافة ، وتذكر أنها تلعب مع آخرين أيضا فعاملها بالمثل ، ولا تجعل منها كل شيء لأنك لست لها كل شيء ، انى أعرف أكثر منك فاسمع كلامى ..

تمنيت أن ألعب دون قيد أو شرط ولكنى تعثرت فى الخوف ولم أنس ما سمعت عن غضبه إذا غضب أو عقوبته إذا عاقب . وتضاعف عنائى عندما حملت الى المدرسة . والتعليم مشقة تتحدى اللهو والمرح وتلتهم الساعات بلا رحمة ، فهل قضي علي أن أنفق العمر فى الصراع مع الجهل ؟ . أما هى فلم تكن تكترث إلا بالساعة التى هى فيها . ترمق انشغاله بازدراء واستنكار وتقول:

— اختر لنفسك ما يحلو

لو خيرت لا خترت ولكن همسه لا ينقطع عنى فما حيلتى ؟ . ولأعترف بأننى كنت أنحرف عن الخط أحياناً . أشرد عن الدرس لأفكر فيها ، أو أخلو إليها فى غفلة ونأخذ فى اللعب . ويسألنى دائما عن مواظبتى فأتورط فى الكذب . ويكفهر وجهه ويكتشف كذبى . وقلت لها إنه لا تخفى عليه خافية فقالت:

— أنت ضعيف فيتجلى الكذب فى عينيك !

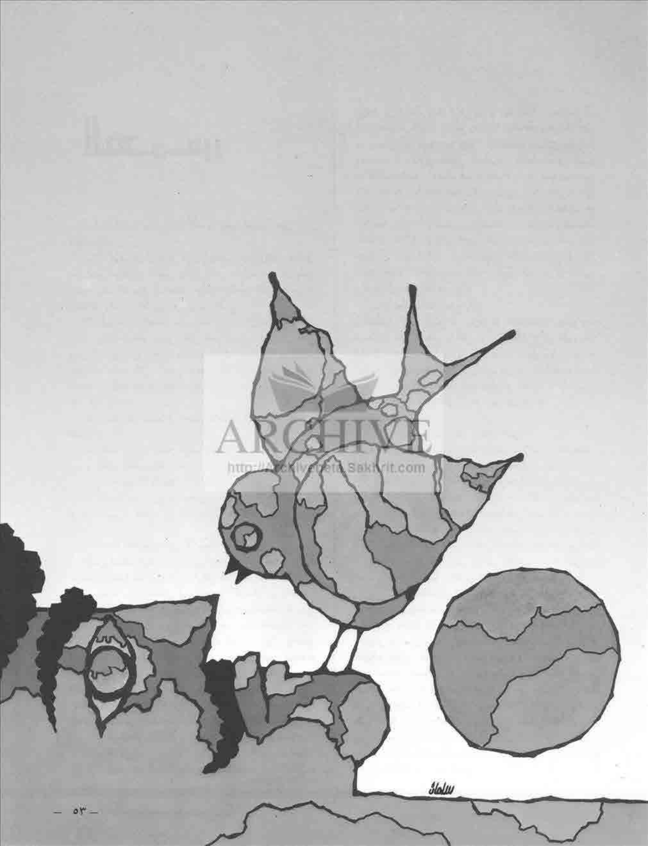
ويقول هو لى مؤنبا:

— الكذب أرذل من الجهل .

ياله من رجل . أى ضرر يصيب العالم اذا جهلت أن القاهرة هى عاصمة مصر ؟ .. أو اذا لم أحفظ جدول الضرب ؟ . ويقرصنى فى أذنى قائلا :

— الرجل الحقيقى يجب أن يعرف السماوات والأرض ، ليست الحياة لعبا ، أنظر الى النملة ! ، هل يرضيك أن تكون أدنى مرتبة منها ؟ !

ويغلبنى الارتباك فأقول له معاتبا :



الهمس

— أنت الذى جئتنى بها لألعب معها فابعدها عنى ..
فيقول باسما :
— انك أصغر من أن تشير على بما يجب ، ولن أرتكب خطأ فى حق الجيرة والقربى ، وهى بمنزلة ابنتى ، وليس بها من بأس كزميلة لك ، فلا منع ولا ابعاد ، ولكن عليك أن تعطى الدرس ما يستحقه ولك أن تلاعبها فى أوقات الفراغ .

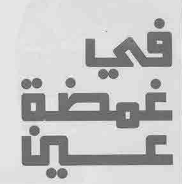
تلك أيام مزقها العذاب وان بدت اليوم آية فى الجمال بسحر الزمن . وكان أن تغير صوتى فقالوا ناهز البلوغ . وهمس فى أذنى بحزم أن الآن حرم اللعب . ياللخبر . ماشعرت برغبة فى اللعب معها كما أشعر الآن . وهى ترمقنى من بعيد ولكن جرأتها تلاشت . يتكلم لسانها بكلام وعيناها بكلام آخر .
أقول لها خلسة :
— لا يمكن أن نهدم فى لحظة ما بنيناه فى عمر مديد
فتقول فى دلال :
— ولكنك لم تعد تقنع بلعب زمان !
— اللعب يتغير بتغير العمر .
— وله حدود لا يتعداها ..

من ناحية أخرى راح هو يحذرنى من الأخطاء ويخاطب فى الرجل الناشىء . تمنيت ولو فراقا مؤقتا ولكنه احتقر رغبتى وقال لى :
— الحياة اقتحام وحذر ولا مجال فيها للهروب ..

الأمور تتعقد وتزداد عسرا ، بل أضحت عذابا ومحنة . ولعله لم يبد لى منفرا كما يبدو الآن . ارتفع صوته درجات . قلت إنه هراء فى هراء . وانه يتدخل فيما لايعنيه . كأنه لم يمر بالشباب يوما . وكلما ظفرت مع هى بخلوة امحى وجوده تماما . أنا وهى كل شىء وهو لا شىء . كأنه خرافة . غير انها اعتصمت بحد لا تتعداه حتى خيل الىّ أن همسه قد انسرب اليها . وانفجر غضبى عليه فسخرت منه فى كل مكان . واعتبرت نفسى ندا له أو أقوى . ولما تيقنت من موقفى الجديد خافتنى وهربت منى . لعل ذلك بوحيه وتأثيره . وهالتنى وحدتى وتخبطت فى الفراغ . وشحنت برغبة دكناء فى الانتقام فاندفعت فى اقتراف أخطاء كثيرة بتشف واستهتار . أتحداهما معا وأعبث بذكراهما معا ولكنى لم أنج من غشاء الوحشة الذى وقعت فى شركه . وتوهمت أن الانفصال قد فرق بينى وبينه الى الأبد ولكن بدا أنه رغم صمته الظاهر لم يكف عن الاهتمام بأمرى . هكذا تبدل الحال فظفرت بوظيفة فى المجتمع وعقد قرانى بها فى ليلة بيضاء . وحق على أن أشكر فضله إلى الأبد ، وأن أقر بأنه لولا هباته العديدة وارثه القيم ما وسعنى أن أسعد بما نلت . واستقللت بمسكن جديد ، ومارست السيادة فى مملكتى الصغيرة ، وانغمست فى الحب والانجاب والعمل . وكدت أنساه تماما لا تمردا عليه هذه المرة ولكن انشغالا بالأعباء الجديدة . وبمرور الأيام تغيرت هى أيضا ، صارت زوجة لا حبيبة ، وأما وشريكة . لا تمسك عن المحاسبة والمطالبة والشكوى . وأتساءل أين الدلال والبسمات والكلمات العذبة . وهالنى العبء المتصاعد فانزلقت قدمى من جديد فى طريق الخطأ . وربما تمادى الخطأ فساقنى الى مالا تحمد عقباه . وفجأة وبعد انقطاع طويل تلفن لى فى مكتبى وذكرنى بوصاياه القديمة قائلا :
— ان فوائدها لم تنعدم بعد .

يا للعجب . كدت أنسى أنه مازال على قيد الحياة . هاهو يعيد الاسطوانة القديمة متناسيا أننى لم أعد طفلا . وأننى اليوم مثله تماما فى الحرية واتخاذ القرار . ومضيت فى سبيلى ولكن شيئا من الحذر خالط سلوكى وأهدافى . وأطرح كل ثمرات الجهد تحت أقدام الأسرة فتتلقفها دون كلمة شكر أو تقدير . وأقول لها :
— الشكر لايهم ولكنى أرجو شيئا من الرحمة ..
فتقول :
— انى أتعب مثلك واكثر ولكنك أنانى ..

وتبدى لى الزواج صيغة غريبة للتوفيق بين الحب والكراهية ، بين حب الحياة وحب الموت ، بين التضحية والرغبة فى القتل . ولكن السفينة صارعت الأمواج حتى صرعتها ونجت من الغرق . ونال الآخرون استقلالهم كما نلنا يوما استقلالنا . لم يعد أحد منهم فى حاجة إلى . ورجعت الى الوحدة جارة معها أثقال العمر . ولكننى لم استسلم للأسى . وطنت نفسى على تقبل قوانين الأشياء . وناجيت فى وحدتى الرضى والسلام . ولم أقلل من قيمة المسرات الزائلة ولا من سحر التحف والأغانى ، ولا حتى من جمال الأطعمة الشعبية . واذا بى أتذكره فجأة بعد طول نسيان . وكيف لا أتذكره مادام على قيد الحياة . وهو من جيل معمر يغبط على طول عمره وسلامة صحته . ولو كان أصابه تلف لترامت الينا أخباره فى حينها فلا شك أنه يمارس حياة طبيعية . وسيسعد برجوعى إليه مثل سعادتى وربما اكثر . وهيهات أن أنسى نواياه الطيبة ورحمته . اما عن رأيه فىّ فلا أحسبه فى صالحى ولكنه كان دائما أكبر من تقصيرى وأعلى . اليوم يبدو لى على حقيقته اكثر من أى عهد مضى . ثم انه اقام فى القرية منذ عهد بعيد وشد ماتهفو نفسى الى الخضرة والهواء النقى . انها أثمن فى النهاية من أثاث بيتى وتحفه وما جمعت من مال وبنين . سأمضى إليه وليس فى نيتى أن اعتذر أو أن أصوغ من سحر البيان جملة واحدة . سأمثل بين يديه باسما وأقول هامسا ها أنا قد رجعت ، مدفوعا بالشوق وحده ، فاقض بما أنت قاض .



ماظن يوماً أن زوال محنته يعني انزلاقه الى محنة جديدة . من أجل ذلك لم يستمتع طويلا بعطر الخريف واماراته المشربة بالبياض الناعس التي تغازله في مجلسه بشرفة كافيتريا الجلوب . إلى جانبه وفي متناول من منكبه جلست رافعة بروفيل وجهها الأسمر الصافي الذي تفانى في حبه على مدى سنوات طويلة . هيأ نفسه منذ اللحظات الأولى للقاء ـ كالعادة ـ للتشاكي ، ولنفث نسمات الحب في مناخ الاحباط المحدق ، وللحومان حول هموم المسكن والخلو والجهاز والمهر ثم كيفية مواجهة تحديات المعيشة . استقلا معاً قارب الحب منذ المرحلة الثانوية ، وتلاعبت به أمواج الحياة المعاندة غير المواتية ، ولكنهما ظلا مصممين على البقاء جنباً لجنب قابضين بشدة كل على مجدافه ، رافضين الانهزام أمام العقدة التى تطوقهما . هذا الصباح تطالعه عيناها بمرآة جلية الصفاء لا ينضح بياضها النقي بفتور . لم يخل قط جمال نظرتها من كآبة خفية تتجلى حيناً وحيناً تستشف . وتاق قلبه لسماع أي خبر حسن . واحتسيا قدحي الجوافة على مهل في صمت حتى خرقه قائلاً :

ـ الحلم يتضخم في رأسي وغير بعيد أن يصبح واقعاً !

فقالت بثقة جديدة كل الجدة :

ـ غير بعيد على الاطلاق .

حقاً ؟! .. اقترح ذات يوم أن يتزوجا بالفعل وليكن مايكون . أجل سيظل في بيت والده بالقبيسي كما ستظل في بيت أبيها بالوايلي . ثم يبحثان عن حل وهما حاملان معاً لأمانة الزوجية . أبوه رغم كونه موظفاً صغيراً ممن عجنهم الانفتاح إلا أنه لم يرتح أبداً لاختياره ابنة حلاق . لتكن جامعية وموظفة فأي قيمة لذلك اليوم؟ . ولكن الفتى نشأ رجلاً لا يتحول عن المطالبة بحقوقه الكاملة . تفرس في وجهها مأخوذاً بتعليقها القوي وقال :

ـ ماذا وراءك ؟ .. لديك شئ جديد ..

فقالت بثقة باسمة :

ـ أجل .

ـ حقاً ؟

ـ تبخرت المشكلة ، انحلت العقدة ، هبط حل بارع من السماء !

ـ ماذا عندك ؟

فقالت بانفعال لم تستطع كبحه :

ـ اسمع ، رجل أعمال عرض على أبي التنازل له عن دكانه نظير مبلغ خمسين ألفاً من الجنيهات ..

انعقد لسانه من طغيان الفرح . الخبر في ذاته خبر من الأخبار المتداولة في تلك الأيام ولكنه لم يتصور أن يطرق بابه كواقع حي .





في غمضة عين

ـ أرأيت ياعزيزي كيف تحل العقد بالسحر؟!

ـ حكاية لاتصدق..

ـ هي الحقيقة، وبعض زبائن أبي قدموا نصائح ثمينة..

ـ مثال ذلك؟

ـ أن يهجر حرفته ويعمل بالاستيراد ودلوه على الطريق لفتح مكتب..

ـ استثمار وثراء مضاعف..

فنقرت على ظهر يده بأظافرها الارجوانية وقالت:

ـ أبي يجهل اللغات الأجنبية، سيسافر كثيراً، أقترح أن نستقيل من بطالتنا المقنعة وأن نعمل في مكتبه بمرتب حسن ونسبة في الأرباح..

ضحك. لبثت أساريره ضاحكة، ونسى هموم العمر كله، وقال:

ـ دخل خيالي.

قالت :
ـ الصفقة مشروعة ولاغبار عليها .
ـ أسلم بهذا ، ولكنا لم نعفها من نقدنا المر .
فقالت محتجة :
ـ لابد أن نفرق بين ماهو شرعي وماهو منحرف ..
ـ معك الحق ، ولكن أصحابنا سيسخرون منا ..
ـ فليسخروا ماشاءوا ، المهم أن عملنا لاغبار عليه ..
ـ العمل لاغبار عليه ..
ـ من منهم يعرض عن فرصة مماثلة إذا سنحت له ؟
ـ لاأحد فيما أتصور .
ـ ولايوجد سبب واحد يدعو للتردد .
ـ هذا حق ، المسألة ..
وتوقف متفكراً فتساءلت بحدة :
ـ المسألة ؟ !
ـ ماذا أقول ؟ ، كنا نتكلم بين الأصحاب بحماس جاوز الحد ..
ـ حول المنحرفين ، دائماً المنحرفين ..
ـ ألم نعتبر بعض أنواع الاستيراد انحرافاً ؟
فقالت متجهمة :
ـ سنكون موظفين لاأكثر !
ـ صاحب المكتب هو أبوك وحموى !
ـ لن يكون مهرباً أو خطافاً ..
ـ طبعاً .. طبعاً ، ولن يمنعنا العمل الجديد من المحافظة على أفكارنا ..
ـ طبعاً .. طبعاً .. هل تتصور أن تضحيتنا بالفرصة هو الذي سيصلح المجتمع ؟
ـ طبعاً لا .
ـ لاتبال إذن بأي قول متعسف .
ـ هذا هو الرأي الصواب ..
ـ هل أعتبر الأمر منتهياً ؟ !
ـ أي نعم !
هكذا تلاشت المشاكل وابتسمت الحياة . آمن بذلك تماماً ولكنه شعر في الوقت نفسه بأن محنة جديدة تتربص به . بين الأصحاب أو في أعماق ذاته . ومن الآن فصاعداً ستكون السعادة هي المشكلة . ستكون المشكلة هي الدفاع عنها والمحافظة عليها للنهاية إن أمكن ..



ـ وتلاشت المشكلات دفعة واحدة ..
ونظرت اليه باسمة وكأنما تدعوه لاعلان موافقته وشكره فقال :
ـ توفيق ما بعده توفيق .
وتاه في الحلم تحت مراقبة عينيها مورد الخدين من الفرح وغائصاً في لجة من الخواطر ، ومسح بيده على شعر رأسه الغزير ، وتنفس بعمق ثم قال وكأنما يحاور نفسه :

ـ سنصبح منهم !
ـ من تعني ؟
ـ أنت تعرفين ماأعني تماماً .

الماضي لايمكن أن ينسى . إنه ماض حاضر . تجسد في حوار متواصل . انهال بألسنته المحمومة على الانحرافات والطفيليين ، من منطلق مثالية ناصعة بل انتماء لايخلو من تطرف . لكنها





يرغب في النوم

غادر التاكسي عند مدخل شارع حسن عيد . الضحى ارتفع والشمس تريق أشعة حامية من سماء باهتة ، ودفقات متتابعة من الخماسين تزيد من الحرارة وتثير الغبار وتنفث الضيق والكدر . تغير كل شئ بقوة تفوق الخيال . الطريق من محطة مصر حتى هنا يكشف عن قاهرة أخرى . أين ذهبت القاهرة التي عاش فيها منذ نيف وخمسين عاماً ؟ جنت بالزحام والسيارات والصراخ والدمامة . ليس وجهه وحده الذي عبث به الزمن . وهو متوسط القامة نحيلها ، معروق الوجه ، أصلع ، شائب العذار والشارب . مطوق العينين والفم بالغضون ، يتوكأ على عصا ، ويتمتع بنشاط يحسد عليه بالقياس إلى سنه . هاهو قد رجع بعد عمر طويل فما الأمل ؟ . لم يرجعه عقل أو منطق ولكن نداء خفي ملح متعب مبدد للراحة قال له اذهب وانظر وافعل شيئا ما لعله يجعل نومك أعمق . وشارع حسن عيد يتراءى في تكوين جديد . حتى اسمه أمحى من الوجود وحل محله إسم جديد هو الشهيد مصطفى ابراهيم . وعلى الجانبين قامت العمائر العالية ، وتراصت في أسفلها الدكاكين ، وماج الطريق بالزبائن . انه سوق ولا أثر للبيوت القديمة والهدوء الشامل والذكريات المتلاشية كحلم . نداء عقيم ، ساقه بلاوعي ، وسيتمخض عن لا شئ . واتجه نحو العمارة الأخيرة في الجانب الأيمن . هنا قام يوماً البيت القديم . كأن الشارع لم يكنس منذ جيل ، والخماسين تشتد وتحمى منذرة بالمزيد من الارهاق . وحن إلى مهجره في الريف ، البيت والأولاد الذي اضطر إلى الابتعاد عنه بعد إقامة نصف قرن . بواب العمارة مشغول ببيع الفاكهة في مدخل العمارة معروضة على رف طويل تحت صناديق البريد ما بين برتقال وموز وليمون . وقعت عيناه على عينيه فانتبه الرجل متوقعاً زبوناً جديداً فحياه بسرعة وقال :

ــ هل تعرف عم محمد الشماع أو أي أحد من أسرته ؟

فتر اقبال الرجل وقال :

ــ لا أعرف أحداً بهذا الاسم .

ــ كان يقيم في البيت القديم الذي شيدت هذه العمارة محله ؟

ــ هذه العمارة قائمة منذ أربعين عاماً !

ــ لعل أحداً بهذا الاسم في عمارة أخرى ؟

ــ لا أظن ، وعليك أن تتأكد بنفسك بسؤال البوابين .

دورة من العناء والضجر واليأس ولا أحد يعرف الشماع أو أسرته . كانوا أسرة كاملة مكونة من أب وأم وأخ وأخت . من رحل يا ترى ومن بقي ؟ ، ونصف قرن ــ بل أكثر ــ ليس بالزمن القليل ، عمر طويل دالت فيه دول وقامت دول ، وهل تنسى أيام التعاسة الأولى ، أيام القحط والأزمة ؟ . وإن يكن جيل مضى ألم يخلف جيلاً جديداً ؟ ، ألا توجد همزة وصل تصل ما بينه وبين ذلك الزمن الغابر ؟ . هل يرجع كما جاء ليجد الذكريات فوق فراشه ترصده بنظراتها الباردة القاسية ؟ .ورجع إلى الشارع العمومي فشعر بالعرق ينساب على جسده خطوطاً لاذعة تحت جلبابه المخطط ، واشتدت الخماسين واكفهرت وأثارت مزيداً من التراب فحجب الأفق عن الرؤية . لا مفر من الانتظار حتى المساء ليعود مع قطار الصعيد . وقت طويل والتسكع لا يحلو في مثل هذا



اليوم . ترى أين أصحاب الشباب ومن بقي منهم على قيد الحياة ؟ . لعل عند أحدهم نبأ عما يبحث عنه ولكن أين هم وهل مازالوا يتذكرونه ؟ . لا .. لا .. بحث عقيم عن أناس اقتلعوا تماماً من وجدانه وكأنهم ماتوا وشبعوا موتاً . حتى أغاني ذلك الزمان لم تعد تطرب أحداً وتثير السخرية . وخطر له خاطر لايدري من أين جاء . أن يزور المدفن القديم . ومن توه مضى إلى باب النصر . وجد القرافة عامرة بالسكان كما قرأ في الصحف . أصبحت في موسم دائم . ولكن حوشهم نجا لصغره إذا كان يحوي قبراً واحداً ، وخالياً من المرافق والمياه ولا يكاد يتسع لواقفين أو ثلاثة . وسأل عن التربي الذي نسى اسمه تماماً فجاء عجوز يسعى ، في سن أبيه لو كان على قيد الحياة ، ولعله ظن أنه أستدعي لرزق جديد . اطمأن إلى شيخوخة الرجل وحدس أن سيعرف من خلالها أشياء . وبعد تحية سأله :

ــ حوش الشماع ؟

ــ نعم

ــ إني اسأل عنه أو عن أي فرد من أسرته .

انطفأ وميض الأمل في عيني الرجل وسأله :

ــ من حضرتك ؟

ــ صديق قديم ويهمني جداً أن أهتدي إلى أي فرد من الأسرة .

ــ كنت على معرفة وطيدة بعم محمد الشماع الله يرحمه

ــ مات !

ــ ورقد في هذا القبر منذ أكثر من خمسين عاماً !

ــ والست الكبيرة ؟

ــ لحقت به بعد عام أو عامين .

ــ وماذا عن الآخرين ؟

ــ لم يفتح القبر منذ وفاة الست .. ولا علم لي عن الآخرين.

ــ كان للمرحوم ابن وبنت .

ــ كان له إبنان وبنت ..

خفق قلبه وهو يتساءل :

ــ ابنان ؟ !

ــ الابن الأصغر ، ربنا يجحمه حيث يكون .

ــ لماذا ؟

ــ ولد فاسد شرير ، كان يعمل في الدكان مع أبيه وأخيه ، وفي عز الأزمة سرق الخزانة وهرب ولم يسمع عنه خبر بعد ذلك ..

ــ أعوذ بالله ، لاشك أنه تركهم لأيام عسيرة ..

ــ محنة وفقر وتسول ، سرعان مامات الرجل كمداً ، ولحقت به امرأته ، انجب شيطاناً ، ولا أشك في أن الله قد انتقم منه شر انتقام ..

نظر إلى القبر ملياً ، ثم رفع بصره إلى السماء المغبرة ، وهمس:

ــ شكراً

فقال الرجل :

ــ ربنا يدلك على ابن الحلال ليرشدك إلى ماتريد .

وحياه وانصرف . سار كالأعمى لا يرى مابين يديه ..



كأنما غادرها أمس . بمدخلها الضيق المتوج باسمها الرنان « فينكس ، كافيتريا ، بار » ، وحجرتها المربعة الواسعة بموائدها الرخامية وكراسيها الخرزانية ومقصفها المتصدر . وكالعادة مصابيحها مضاءة منذ الصباح لانزوائها في عمق بعيداً عن الشمس . وجوه غريبة لزبائن جدد فيهم نفر من الأجانب . اختار كرسياً وجلس . بجسمه الطويل النحيل المتهافت ، وبنطلونه الرمادي وقميصه الأبيض نصف كم ، ورأسه الكبير الموخوط بالشيب ، ووجهه الغامق الموسوم بالعناء . نظر فيما حوله ، وقلقت في عينيه الواسعتين نظرة حائرة . أقبل النادل ، ولما رآه من قريب اتسعت عيناه دهشة وسروراً ، وهتف :

ــ مبارك يا أستاذ .. حمداًلله على سلامتك ..

وتصافحا . وطلب فنجان قهوة زيادة ولكن الرجل سأله قبل أن يذهب :

ــ كيف الصحة ؟

ــ كما ترى

ــ ستعود كما كنت وأحسن .

حقا ! ، سبع سنوات عجاف ، ولكنه قال :

ــ ربنا يسمع منك .

وذهب الرجل ورجع بالقهوة ثم صبها في الفنجان قائلا :

ــ هذا الفنجان على حسابي !

ــ تشكر

ــ أسفنا جداً ، ماباليد حيلة ، على أي حال فأنت بطل !

رشف رشفة وسأله :

ــ لماذا ؟

ــ السجن في سبيل المبدأ .

ــ عظيم ، هل أنت مستعد لذلك ؟

فضحك النادل الكهل قائلا :



ـ لست بطلاً مثلك .

وذهب يلبي طلباً . أتى على الشراب فلم يبق إلا الرواسب في القعر والتصاوير في الجدران . وتذكر قول قارئة الفنجان في الزمان الأول ، قدامك سكة سفر وسعادة . يستوي قول الأول والآخر في الكذب . خمس سنوات ضاعت . وأبوه قال له « حذار من الجنون يا مجنون ، البلد مختنقة مهرولة ، لاهم للفقير إلا اللقمة ولا للقوي إلا الثروة » . الواضح أن الايقاع يتضاعف والجنون يتفشى . وتفرس في الوجوه من حوله بدهشة وانكار . ولما رجع النادل الكهل إليه قال له :

ـ لا أرى أحداً من زبائن زمان !

ـ لعلهم في البيوت ، هؤلاء سماسرة ورجال أعمال وسياح ، الانفتاح يا أستاذ ..

ـ والأصدقاء ألا يجيئون كالعادة ؟

ـ أبداً .. منذ سنوات طويلة

فعبس متسائلا :

ـ كلهم ؟

ـ ولا واحد يوحد الله .

ـ عندك فكرة عنهم ؟

ـ طبعاً ، القاسم والأرملاوي ورضوان مدرسون في إحدى البلاد العربية .

ـ مرة واحدة ؟

ـ خير وبركة .

ـ والقائمة السوداء ؟

ـ لا سوداء ولا بيضاء .

ضحك على رغمه فقال النادل :

ـ سيملكون الشقق والسيارات ، لم لا ؟

ـ والسيوفي ؟

ـ السيوفي وبدران ورزق الله في فرنسا ، صحافة عربية ، ثراء ايضاً ، وقيل إن رزق الله اعتنق الاسلام !

ضحك مرة ثانية وتساءل .

ـ وأكرم ؟

ـ تاب ، ويعمل في الصحافة القومية .

ـ وجلال ؟

ـ يعمل في الأهالي

فضحك للمرة الثالثة وقال :

ـ لعله جن ؟

ـ كلا ، الذي جن هو الأستاذ البرديسي !

ـ تعني أنه في المستشفى؟

ـ كلا ، يرى أحياناً في الشوارع يحاور الهواء ..

ـ أفادك الله .

ـ حتى زملائي في القهوة هاجروا إلى العراق ، ولولا سني للحقت بهم .

ـ ربنا يعوض عليك .

فحدجه بنظرة باسمة ثم سأله :

ـ وأنت متى تهاجر ؟

فلم يجب وارتسمت على زاوية فمه ابتسامة ساخرة فقال النادل بنبرة ودودة :

ـ زمن المبادئ مضى وهذا زمن الهجرة .

ـ كلامك كله حكمة .

وتجهم وجهه فبدا أكبر من سنه بعشر سنوات . أي ماض وأي حاضر وأي مستقبل . أين ومتى يقابل جلال ؟ . وكيف يصارع العبث ؟ . وقال للنادل :

ـ فنجان قهوة آخر ، بن زيادة وسكر زيادة ..


مولانا

ابن الأرض ، من أسرة الأعشاب البرية ، نشأ ونما وترعرع في البستان الذي توسط يوماً ميدان العتبة الخضراء القديم . من المجهول انبثق ، لتربيه الأيدي القذرة ، تطعمه لقمة وتلبسه جلباباً وتسلبه انسانيته . وذات يوم ــ وكان عوده قد اشتد وطال ــ أشار اليه عابر سبيل وقال لصاحبه بصوت مرتفع ضاحك :

ــ انظر ، كأنما هو الملك !

الملك ! . يعرف أنه يوجد ملك . ورأى من بعيد موكبه . ماذا يعني الرجل ؟ . وتكررت الاشارة والنظرة المندهشة . أيشبه الملك حقاً ؟ . أيمكن أن يحدث ذلك في هذا الوجود ؟ ! . وسعى إلى مرآة مصقولة معروضة عند مدخل محل لبيع الأثاث في أول شارع الأزهر ليرى صورته ، ليرى الملك . إذن فهذا هو الملك . لم تطمس شكله رثاثة الجلباب ولا قذارة الوجه وراح يغسل وجهه ويمشط شعره ويقطع الميدان بالطول والعرض فيحرز النجاح بعد النجاح ، ويتلقى الاشارات والتعليقات ، ويمضي باسماً مزهواً بصورته النفيسة . وعرف في المنطقة مع الأيام بمولانا ، مولانا صاحب الجلالة . وفسرت الظنون الساخرة الشبه العجيب بما عرف عن الملك الراحل الأب من رمرمة جنسية ، فمن يدري فلعله .. وأليس من الجائز أن .. وماوجه الاستحالة في أن يكون .. هكذا ألحقته السخريات بالدم الأزرق المصون لأسرة محمد علي . وهو لا يعرف لنفسه أماً ولا أباً فكل شئ محتمل . وجد على الأرض ، عارياً أو في لفة ، ونشأ في أحضان الطبيعة مثل أجداده الأول في العصور الغابرة . وحام مع الظنون حول أصله الرائع المجهول ، وانتظر من وراء ذلك الشبه خيراً وأي خير . والواقع أن فخامة منظره خففت عنه من بلاء التشرد وجنبته كثيراً هراوات الشرطة ، فكان أكرم المتشردين وآمن النشالين . وقال له أقرانه :

ــ إذا رفعك الحظ يوماً فلا تنسنا !

فوعدهم بالخير والحماية وتعلق أكثر بأحلامه الخرافية . وطرقت شهرته أخيراً قسم الشرطة وذهب المخبرون ورجعوا قائلين :

ــ الطول والشكل واللون ، إنه معجزة ..

وقرر المأمور أن يراه بنفسه ، ولما مثل بين يديه تفحصه بذهول ، ولما صرفه وجد نفسه يفكر فيه كمشكلة حقيقية . أيمكن أن يتغاضى عنه كدعابة لا وزن لها ؟ . هل يأمر بمراقبته حتى يقبض عليه متلبساً ؟ لم يقتنع بهذا الحل أوذاك ، ورأى أن يبلغ الخبر إلى أحد الرؤساء في الداخلية الذي تربطه به علاقة حميمة . وجرت التحريات من جديد ، وارتبكت مراكز الأمن العليا واعتبرت الموضوع بالغ الأهمية والخطورة .

ــ قد يتكشف الأمر عن مضاعفات مجهولة ونسأل عند ذاك أين كنتم أيها السادة ..

ــ والعمل ؟

واستقر الرأي على اعتقاله ووضعه في الطور باعتباره من الخطيرين على الأمن الواجب استبعادهم . وتم التخلص من فاروق « الثانى » واطمأنت القلوب وكاد ينسى تماماً .

وقامت ثورة يولية . وانهالت المطارق على العهد البائد . وكتب أحد الصحافيين عن واقعة شبيه الملك المخلوع المنسي في المعتقل فكانت كلمته ايذاناً بالافراج عنه ..

رجع إلى تشرده ولكن بلا حلم هذه المرة ولكنه حمدالله على نعمة الحرية . ونشرت بعض المجلات صورته فاكتسب شهرة لم تخطر له في بال . وقررت إحدى الشركات السينمائية أن تنتج فيلماً يصور الفساد في عصر ماقبل الثورة ، وكان الملك يظهر فيه في منظر هامشي فيما وراء الأحداث ، واستدعت الشاب لتجربه في الدور فأداه أداء مقبولا لسهولته ، وحاز سمعة لا بأس بها ، ولكنها لم تفتح له طريق النجاح ولم تكتشف فيه موهبة ذات شأن . ورأى المسئولون أن الحديث يتكرر عن الشاب ، وأن صوره تنشر أكثر مما ينبغي . وإذا بمشكلة جديدة تنشأ من حيث لا يحتسب انسان . وقال شخص بعيد النظر :

ــ شعبنا طيب ، ولا يبعد أن يوجد فيه من يعطف على الملك رغم فساده ، وسيكون وجود هذا الشاب محركاً لهذا العطف ..

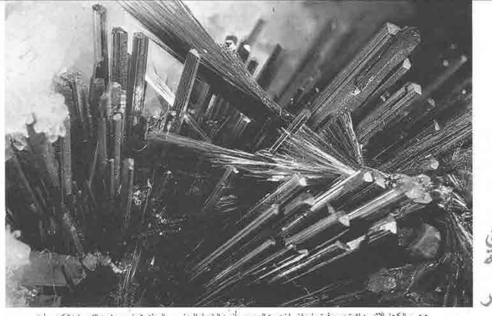
ــ إذن يمنع نشر صوره ..

ــ بل الأوفق أن يختفي تماماً !

وظن الشاب أنه ولد من جديد ليستقبل عهداً جديداً . وأشعل الدور الصغير الذي قام به في الفلم طموحه إلى أقصى حد ، وتوقع الخير مع طلعة كل شمس . وكلما شعر بمرارة الانتظار قال :

ــ إن الله لم يخلقني في هذه الصورة إلا لحكمة بالغة ..

ولكنه اختفى بلا سبب ظاهر . لم يعد أحد يراه في أي من مظانه . اختفى تماماً . بل يبدو أنه اختفى إلى الأبد .



حجر الكحل الإثمد اشتهر في تاريخنا نحن العرب بأنه الخام المعدني ، الذي تصنع منه النساء (الكحل)

مشروع المتحف الجيولوجي بالدوحة

بقلم : درويش مصطفى الفار

لما كان اكتشاف النفط والغاز الطبيعي ، في قطر ، وما حولها من الأقطار ، يرجع الى ما أفاء الله به على خلقه من نعمة تفهم القواعد والقوانين والأسس التي يقوم عليها علم الجيولوجيا ، فقد كان لزاما على متحف قطر الوطني ، باعتباره أول مؤسسة علمية حضارية ، من نوعها ، في المنطقة بأسرها ، أن يتيح لزواره من المواطنين ، بدوا وحضرا ، والوافدين ، عربا وأجانب ، فرصة التعرف على شذرات من ذلك العلم ، والثقافة بالإلمام ببعض جوانبه ، على تشعبها وتعدد فروعها وشجونها ، فاتخذ من أحد أركانه ، ما يمكن اعتباره نواة لمتحف جيولوجي متكامل يتم انشاؤه في الدوحة العاصمة ، مستقبلا ان شاء الله ، ليضطلع بنشر الثقافة الجيولوجية عامة والنفطية خاصة ...

مشـــروع
المتحف الجيولوجي بالدوحة



بيريت معدن يتكون من الحديد والكبريت له بريق يشبه بريق الذهب ولهذا سموه « ذهب الحمقى »



بللورة متشققة من البيريت تبرق أيضا بريق الذهب

اسلفنا ، أن نبحث الى جانب الصفة العلمية للصخر والحجر ، عن صفات جمالية تشد الانتباه وتدعو الى النظر والتفكير والاهتمام ، فاشتملت المجموعة الأساسية على البلورات الضخمة ذات الأشكال الهندسية الرائعة ، وعلى الخامات المعدنية ذات الألوان الجذابة والبريق الأخاذ ، بما فى ذلك الأحجار الكريمة المصقولة اللامعة ، وقطاعات الأخشاب المستحجرة وأنواع الأحياء البائدة المندثرة التى كانت حيوانا أو نباتا ذرأه الخالق جل وعلا فى هذه الأرض منذ ملايين السنين والاعوام ...

وفى غمرة الاهتمام بالجانب الجمالى بالموضوع ، لم يغب عن البال اعطاء الأهمية الأولى للناحية العلمية ، حيث تم ترتيب المعادن والخامات طبقا للاسلوب العالمى المتبع فى البدء بخامات العناصر الخالصة كالذهب والفضة والنحاس والكبريت والزئبق ، ثم بالكبرتيدات وانتهاء بالسليكات المعقدة التركيب .

وتم تقسيم الركن الى ناحيتين ، احداهما للخامات والصخور القطرية من الأحجار الجيرية بمختلف أنواعها والأحجار الطينية والرمال والحصى والجبس والسلستاين والباريت مما تحتويه صخور شبه الجزيرة ، وكذلك صخور جزر حالول وشراعوه التي تنتمى الى حقب الحياة القديمة.

ومع الصخور والخامات القطرية ، تعرض الصخور والخامات المعدنية العربية من موريتانيا غربا الى سلطنة عمان شرقا ، فتجد فى هذا القسم عينات من كل مناجم الفوسفات العربية ، ومناجم الحديد والفحم ومحاجر الرخام والمرمر.

أما الناحية الثانية فهى التى تشمل الصخور والحجارة والخامات من كل بلاد العالم خارج الوطن العربى ، حيث تجد عينات من أشهر الصخور المعروفة على سطح الأرض ، مثل الجرانيت الرمادى من السويد والذى يقدر العلماء عمره بأكثر من ألف وثمانمائة مليون سنة ، وخام الحديد الكندى الذى يرجع تاريخ تكوينه فى قشرة الأرض الى أكثر من ألفين وخمسمائة مليون سنة ...

والى جانب الصخور والحجارة والمعادن والأحياء المستحجرة والجواهر والبللورات وزهور الصحراء وآثار الرياح المحملة بالرمال فى نحت الصخور خلال الأحقاب ، وتطور صناعة الخرائط فى قطر وغيرها من أركان الوطن العربى والاسلامى ، وما يتخلل ذلك من شرح لمسيرة البحث عن النفط والغاز ، فقد زود هذا المشروع بالجداول والمخططات والصور والرسومات العلمية التى تبين الشروح العلمية للزلازل والبراكين ، وتوزيع العناصر المكونة لصخور قشرة الأرض ومعادنها ، وتقسيم الزمن الجيولوجي خلال ملايين السنين ...

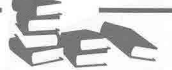
وقد أمكن تزويد هذا المشروع بالعديد من نوادر الصخور والحجارة .

فهنا لك على سبيل المثال قطع من نيازك ورجوم سقطت على الأرض العربية فى مصر وعمان والمملكة العربية السعودية ... كما أمكن الحصول لهذا القسم من المتحف الجيولوجي الذى كان بالقاهرة ، قبل هدمه ، على عينات نادرة من حجر غريب لا يعرف مثيل له حتى اليوم فى أى مكان بالعالم ، على الرغم من أنه قد اكتشفته المساحة الجيولوجية المصرية سنة ١٩٣٢ قرب الحدود الغربية لمصر ، وسماه الجيولوجيون (زجاج السليكا) ، وظنوه من سواقط الفضاء ، ومنهم من قال بأنه من القمر ، ومنهم من دعا الى اتخاذه جوهرا كريما تعمل منه الفصوص للخواتم والقلادات واطلقوا عليه اسم (الجوهر الكونى) Cosmic Gem ، ولكن هذه الدعوة لم تلق رواجا ، ولا يزال أصل هذا الحجر الغريب ومنشأه من الأسرار التى لا تفتأ تثير الجدل بين العلماء ...

كذلك ، وحتى لاننسى ، فإن من مقتنيات هذا المشروع صخورا وحجارة من فلسطين ، منها قطعة من الصوان الصلب البراق ، مما استخرجه الحافرون تحت أسوار المسجد الأقصى فى بيت المقدس الشريف ...

ولعل زيارة لهذا القسم من متحف قطر الوطنى تغنى غناء أوفى مما يسطره مداد القلم فوق القراطيس .

درويش مصطفى الفار



بقلم : الدكتور محمد البهي

مسئولية الإنسان

• الانسان فى أجياله المتعاقبة ــ فى اعتبار الاسلام ــ لا يحمل خطيئة أو معصية ارتكبها سلف له من قبل. وعصيان آدم فى الجنة كان عصياناً في طابعه الشخصى ولم يأخذ الطابع النوعى للانسان بحال. وجزاؤه على هذا العصيان ــ لذلك ــ كان طرده هو وحواء من الجنة : قالا ربنا ظلمنا أنفسنا ، وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين . قال : «اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع إلى حين» الأعراف : ٢٣ ــ ٢٤ . ولذا فكل مولود يولد .. هو على الفطرة .. لا يحمل وزراً سبق ، ولا يسهم فى خطيئة ارتكبت قبل مولده . وهنا فى الاسلام ليست جريمة ولا ذنب يتوارث : يسأل عنه جيل بعد جيل .

• والطابع الشخصى للمسئولية الانسانية يبرزه قول الله تعالى : «وكل انسان ألزمناه طائره فى عنقه (أى أن حظ كل انسان من الخير والشر ، ومن العمل الحسن والعمل القبيح ، ملازم ومصاحب له :ومطوق به عنقه ، لا ينفك عنه بحال ، وطائر الانسان ، هو حظه . وجاء استعمال القرآن به ، جريا على قول العرب : جرى لفلان الطائر بكذا .. وبكذا ، من الخير والشر ، تفاؤلا أو تشاؤما) ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً (أى مسجلا مفتوحاً) : اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ، ولا تزر وازرة (أى لا تحمل نفس خاطئة) وزر أخرى (أى خطيئة أخرى) وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا (أى لانجازى أحداً بالعذاب على خطيئته وكفره الا بعد أن نقيم الحجة عليها بارسال الرسول المصطفى وبابلاغ رسالته إلى الناس عامة (الاسراء : ١٣ ــ ١٥) .. فهذه الآيات الثلاث توضح :

أولا : ــ أن عمل كل انسان من صواب وخطأ ، وخير وشر .. يسجل له ويصحبه لا يفارقه . ويوم الجزاء يعرض عليه ليراجعه .

وثانيا : أن نوع العمل الذى يباشره الانسان فى حياته ــ ان كان هداية أو ضلالاً : أو احسانا أو سيئا ــ هو له وحده ، ولا يختلط بعمل غيره بحال من الأحوال وإنه مهما كانت هناك صلة وثيقة أو قربى بين انسان وآخر .. فإن ايا منهما لا يحمل عن الآخر خطأه ، كما لا يضاف إليه صوابه : «ولا تزر وازرة وزر أخرى ، وان تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شيء ولو كان ذا قربى» (فاطر : ١٨) .

ونظرة الاسلام إلى مسئولية الانسان الشخصية عن عمله .. هى نظرة الرسالة الالهية منذ أن أتى بها رسول من قبل الله جل شأنه .. حتى محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام ، وذلك فيما يقصه القرآن فى قول الله تعالى :

«أفرأيت الذى تولى . وأعطى قليلا واكدى (أى قطع عطاءه وييئس من عمل الخير) . اعنده علم الغيب فهو يرى (أى أن لا فائدة من صنع الخير) . أم لم ينبأ بما فى صحف موسى (وهى التوراة) . وابراهيم الذى وفى (أى وصحف ابراهيم الخليل ، وهى رسالته) . ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان الا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى» (النجم : (٣٣ ــ ٤٠) فما فى صحف : موسى وابراهيم وهما من أصحاب الدور الرئيسى فى الرسالة الالهية للبشر ــ ينبيء فى وضوح : عن تحديد المسئولية الانسانية الشخصية ، على نحو ما ذكرته آيات القرآن السابقة من :

(أ) أنه ليس للانسان الا سعيه ، وعمل الخير والصواب ، وأن هذا العمل سوف يعلم ويرى رأى العيان يوم الجزاء .

(ب) ثم : أنه لا تضاف إلى نفس اخطأت فى سلوكها أو فى اعتقادها أخطاء نفس أخرى . وانما هناك عدل تام : إن فى جانب العمل الصالح فلا تحرم منه نفس باشرته ، وإن فى جانب العمل السيىء فلا ينقل من نفس مسيئة إلى نفس قد أساءت كذلك .

• وتعود هذه المسئولية الشخصية ــ فى نظر الاسلام ــ إلى ما يتميز به الانسان من عقل وادراك ، عن بقية الكائنات الأخرى . فتميزه بالعقل جعل له السيادة والخلافة عن الله فى الأرض : «وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات .. ليبلوكم فيما آتاكم» (الانعام : ١٦٥) ولكن فى الوقت نفسه جعله مسئولا فيما يباشره من عمل : «ليبلوكم فيما آتاكم» .. ليختبركم فيما أعطاكم من نعمة العقل والخلافة عن الله فى الأرض ، وفضل بعضكم على بعض فى مستوى ما يرفع به الشأن درجات ، فى المال ، والجاه والاستطاعة والطاقات البشرية المتفاوتة .

• وقد صرح القرآن بمسئولية العقل فى الانسان عن تصرفات الانسان فى قوله : «ولا تقف ماليس لك به علم (أى لا تتبع مالا تعلم ولا يعنيك) . ان السمع ، والبصر والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مسئولا» (الاسراء : ٣٦) .. فمنافذ الادراك لدى الانسان هى : سمعه وبصره ، بالاضافة إلى ما يهدى هذا الادراك إلى الصواب ، وهو ايمان القلب .



كتاب الشهر

عرض وتقديم: حسني شحادة

الأسلحة والدروع الإسلامية

عني علماء الآثار بدراسة أنواع السلاح الأوروبي والأمريكي والياباني، وغيرها، ولكن تاريخ الاسلحة الاسلامية، لم يكتب عنه حتى اليوم، بالطرق العلمية، والفنية التي بحثت فيها مقومات ومعالم الحضارة الاسلامية المختلفة، فاذا قلبنا أمهات كتب الفنون الاسلامية، التي ألفها كبار العلماء والخبراء، وجدنا فراغاً شاملاً يسود هذا المجال فهاهي أمامنا مؤلفات «ديماند هارسيه»، و«بيجون كونيل» و«زكي محمد حسن» وغيرهم، لاتحتوي إلا على أسطر قليلة في هذا الموضوع.

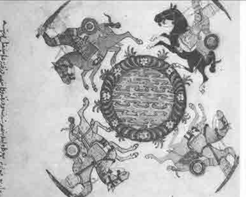
ولكن كتب التراث العربي الموسوعية، أوردت أبواباً مبسطة عن السلاح الاسلامي، كل حسب مادته. فكتب اللغة، ككتاب «فقه اللغة» للثعالبي، وكتاب «المخصص» لابن سيده، أوردت أسماء الاسلحة الاسلامية، وكذلك كتب الموسوعات الأدبية، كالعقد الفريد، لابن عبدربه الأندلسي، الذي أورد في الجزء الأول من كتابه، «كتاب الفريدة في الحروب» معلومات عن السلاح، وكتاب «صبح الأعشى» للقلقشندي، جاء في جزئه الثاني، فصلاً عن السلاح، وكتاب «نهاية الأرب في فنون الأدب» لأحمد بن عبدالوهاب النويري، جاء في سفره الخامس، ذكر ماقيل في السلاح وأوصافه.

ولا ينس جهد الكتاب المعاصرين في هذا الميدان، أمثال اللواء الركن محمود شيت خطاب في كتابه «العسكرية العربية الاسلامية»، كما أسهم اسهاماً حميداً في كتبه عن قادة الفتح الاسلامي، وكذلك الدكتور عبدالرحمن زكي في كتابه «السيف في العالم الاسلامي»، فقد اسهمت هذه الكتب وأمثالها كمقدمة للابحاث الآتية في هذا المجال.

ومع اعتبارنا لأهمية هذه الكتب، إلا أنها لم تغط هذا الموضوع تغطية علمية وفنية حتى طلع علينا «روبرت إلغود» في كتابه «الأسلحة والدروع الإسلامية» الذي جمع فيه سبعة عشر بحثاً، لكبار كتاب الثقافة والفنون الاسلامية، تلقي الأضواء على جوانب هامة من هذا الموضوع.

والكتاب يعيد إلينا التاريخ العربي الاسلامي، تاريخ انتصارات الاسلام وفتوحه، ووسيلة هذا الانتصار المادية، التي شحذتها الوسيلة المعنوية المتمثلة بالايمان، بالجهاد في سبيل الله، انه كتاب الأسلحة والدروع الاسلامية.

إن معرفة الماضي هي وحدها، تطوع لنا تصور المستقبل، وتوجه جهودنا إلى الغاية السامية، الجديرة بتراثنا العظيم، لأن الماضي والحاضر والمستقبل، وحدة لاسبيل إلى انفصامها، فمعرفة تاريخنا، بكل إشراقه، وبريقه، وتألقه، هي وسيلتنا لتشخيص حاضرنا وتوجيه مستقبلنا (١).



فرسان مسلمون بأسلحتهم .. وهي لوحة من لوحات كتب التراث المحفوظة في المكتبة البريطانية

خوذة حربية يرجع تاريخها إلى نهاية القرن الثامن عشر، وهي ضمن المقتنيات الاسلامية والعربية التي ضمت إلى متحف «وارسو» ببولندا عقب الحرب العالمية الثانية

فأس يستخدم في القتال، مدموغ بشعار النبالة، وهو من عصر السلطان المملوكي «قايتباي»

السلاح الاسلامي

الأسلحة العربية الاسلامية كثيرة العدد، وقد ازداد عددها كماً ونوعاً مع مرور الزمن. فلم تبق على ما كانت عليه أيام غزوات رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وسراياه، بل تطورت، وتكاثرت يوماً بعد يوم، لأن العقيدة الاسلامية، عقيدة إيجابية، ولأن المسلمين يتحلون بمزايا التفتح والتحرك، فكانوا يقتبسون صنوف الأسلحة من أعدائهم، ويطورنها إلى الأفضل، وكذلك في الأساليب والخطط العسكرية. فهذا سيف الله «خالدبن الوليد»، يقتبس أسلوب الكراديس قبل معركة اليرموك، نتيجة لاستطلاعه الشخصي لقوات الروم قبل أن ينشب القتال، فعبأ جيشه تعبئة لم يعرفها العرب المسلمون من قبل، في ثلاثين كردوساً، وباشر القتال بهذا الأسلوب. فأحرز النصر على الروم في تلك المعركة الحاسمة (٢).

لقد أوضح الكتاب الذي بين يدينا هذه الايجابية الاسلامية، وذلك التفتح والعبقرية الاسلامية في تطوير الأسلحة الاسلامية.

أشرف الأسلحة

طرق البحث الأول من الكتاب موضوع السيف، والسيف من أشهر وأشرف الأسلحة عند العرب المسلمين، وله في العسكرية الاسلامية تاريخ عريق، فقد جاوزت أسماؤه المئة في اللغة العربية، وقد تحدثت كتب السيرة عن السيوف المنسوبة إلى رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، وكان لكل سيف اسم يخصه. وقد نظم أحد الشعراء سيوف رسول الله في ثلاثة أبيات هي:

لـهـا دينـا مـن الأسياف تسع
رسـوب والخـذم وذو الفقـار
قضب حتـف والبتـار غضب
وقلعي ومـأثـور الفجـار
وحكمتـهـا ينـاسب أي موسي
وكل للعدا سبب البـوار

ومن السيوف التي اشتهرت في الجاهلية

الأسلحة والدروع الإسلامية

والاسلام «صمصامة» عمرو بن معدي كرب، الذي ضرب له المثل في كرم الجوهر، وحسن المنظر، والمخبر، والمضاء، يقول العتبي (٣): بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى عمرو بن معدي كرب، أن يرسل إليه بسيفه المعروف «الصمصامة» فبعث به إليه. فلما ضرب به، وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه بذلك، فرد عليه «عمرو»: «إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به». ويقول في سيفه:

سنانـي ماحـق لاعيب فيـه
وصمصامـي يصم إلى العظـام

ثم وهبه عمرو بن معدي كرب، إلى خالد بن العاص، عامل رسول الله على اليمن، وقال فيه:

خليل لـم أخنـه ولـم يخنـي
إذا مـا الخطب أنحـى بالعظام
حبـوت بـه كريمـاً من قريش
فسـر بـه وصيـن عن اللئـام

لقد أكثر الشعراء العرب في وصف السيف، فهذا أبوعبادة البحتري يقول:

يتنـاول الـروح البعيـد منـالـه
عفـواً، ويفتـح في القضاء المقفل
مـاض وإن لـم تمضه يـد فـارس
بطـل، ومصقـول وإن لـم يصقل
يغشى الوغى، فالترس ليس بجنته
مـن حـده، والدرع ليس بمعقل
وإذا أصاب فكل شـيء مقتـل
وإذا أصيب فمـا لـه مـن مقتل

ويقول عبدالله بن المعتز في سيفه:

ولي صارم فيـه المنايا كوامـن
فما ينتضي إلا لسفك دمـاء
ترى فوق متنيـه الفرند كأنه
بقيـة غيم رق دون سمـاء

أما ابن الرومي فيقول:

خير ما استعصمت به الكف عضب
ذكـر هـزه أنيـث المهـز
مـا تـأملتـه بعينيك إلا
أرعـدت صفحتـاه دون هـز

ومن الافراط في وصف السيف قول النابغة:

يقد السلوقي المضاعف نسجه
ويوقـد بـالصفاح نار الحباحب

ومعنى هذا القول: أن هذا السيف يقد الدرع المضاعف والفارس والفرس ويصل إلى الأرض فيقدح ناراً!

وللهند شهرة في صناعة السيوف. وقد وصف كاتب المبحث الأول من الكتاب عن سيفين من الهند. على طرازين، أولهما السيف المستقيم ذو الحدين المتوازيين، والثاني يعرف «بالكوبيس» وهو على شكل المدية الافغانية الطويلة، وقد سمت العرب السيوف الهندية بالمهند، ويقول في ذلك ابن المعتز:

ولقـد هززت مهنـداً
عضب المضـارب مـرهفـا
وإذا تـولـج هـامـة
الجبـار، سـار فأوجعـا
عضب المضـارب كـالغدير
نـفى القـذى حتـى صفـا

دروع المقاتل

الدرع هو جبة من الزرد المنسوج، يلبسها المقاتل للوقاية من السيوف والسهام، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام أنه ألان له الحديد، فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى:

«ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير» (٤).

وقوله تعالى:

«وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون» (٥)

ومن الدروع ما يقال لها «السلوقية» نسبة إلى «سلوق» وهي قرية من قرى اليمن، وربما قيل للدروع «حطومية» نسبة لحطوم. رجل من عبدقيس. (٦).

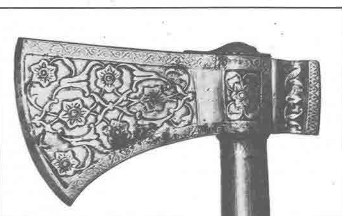
لبس المسلمون الدروع من الزرد، ثم غلب عمل «الفرملات» (٧) من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها فوق بعض، وكان للعرب أقوال في الدروع، فقد رؤي الجراح بن عبدالله بين درعين، فقيل له فيم ذلك فقال: «لست أقي بدني، وإنما أقي صدري» واشترى زيد بن حاتم أدرعاً فقال: «إنني لست أشتري أدرعاً، وإنما أشتري أعماراً»، وقال حبيب بن المهلب ينصح بنيه: «لا يقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لابد فاعلين، فإلى زراد (صانع الدروع) أو سراج، أو وراق.

أما عن الدروع في الفن الإسلامي، فقد أتى الكتاب بلوحات بديعة عن أشكالها، وألوانها، وأنواعها سواء منها ماصنع في سوريا والعراق، أو في مصر وإيران، أو في مختلف بلاد العالم الاسلامي. وأبرزت لوحات الشيرازي والتبريزي روعة هذه الدروع، ودقة نسجها، ثم ذكر الكتاب عن تطور صناعتها، لتناسب تطور الاسلحة من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

القوس والنبل

حذق المسلمون استعمال القوس، فسموا في الحروب الاسلامية بالرماة، والقوس في اللغة العربية مؤنثة، وجمعها القسي، وهي على ضربين، أحداهما عربية، وهي التي تصنع من خشب، فإذا كانت من عود واحد قيل لها «قضيب»، وإن كانت من فلقين، قيل لها «فلق»، والثانية فارسية، وتتكون من أجزاء من خشب، وقرن، وعقب، وغراء. والقوس بالنسبة للمحارب كالبندقية، والنبل أو النبال كطلقاتها.

اهتم المسلمون بالقوس والنبل، فقد روي عن عقبة بن عامر (٨) قال: «سمعت رسول الله ﷺ وهو قائم على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من



رأس فأس استخدمه المقاتلون في معاركهم الشهيرة، وهو من صنع عمال مدينة «لاهور» بباكستان

الأسلحة والدروع الإسلامية

والاسلام «صمصامة» عمرو بن معدي كرب، الذي ضرب له المثل في كرم الجوهر، وحسن المنظر، والمخبر، والمضاء. يقول العتبي (٣): بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، إلى عمروبن معدي كرب، أن يرسل إليه بسيفه المعروف «الصمصامة» فبعث به إليه. فلما ضرب به، وجده دون ما كان يبلغه عنه، فكتب إليه بذلك، فرد عليه «عمرو»: «إنما بعثت إلى أمير المؤمنين بالسيف، ولم أبعث إليه بالساعد الذي يضرب به». ويقول في سيفه:

سنانـي مـاحق لاعيب فيه
وصمصامـي يصم إلى العظام

ثم وهبه عمرو بن معدي كرب، إلى خالد بن العاص، عامل رسول الله على اليمن، وقال فيه:

خليل لـم أخنـه ولـم يخني
إذا مـا الخطب أنحى بالعظام
حبـوت بـه كريمـاً من قريش
فسـر بـه وصيـن عـن اللئام

لقد أكثر الشعراء العرب في وصف السيف، فهذا أبوعبادة البحتري يقول:

يتنـاول الـروح البعيـد منـالـه
عفوا، ويفتـح في القضاء المقفل
مـاض وإن لـم تمضـه يـد فـارس
بطـل، ومصقـول وإن لـم يصقل
يغشى الوغى، فالترس ليس بجنته
مـن حـده، والـدرع ليس بمعقل
وإذا أصاب فكل شــيء مقتل
وإذا أصيب فمـا لـه مـن مقتل

ويقول عبدالله بن المعتز في سيفه:

ولي صارم فيـه المنايا كـوامـن
فما ينتضي إلا لسفك دمـاء
ترى فوق متنيـه الفرند كأنه
بقيـة غيم رق دون سمـاء

أما ابن الرومي فيقول:

خير ما استعصمت به الكف عضب

ذكـر هـزه أنيـث المهـز
مـا تـأملتـه بعينيك إلا
أرعـدت صفحتـاه دون هـز

ومن الافراط في وصف السيف قول النابغة:

يقد السلوقي المضاعف نسجه
ويوقد بالصفاح نار الحباحب

ومعنى هذا القول: أن هذا السيف يقد الدرع المضاعف والفارس والفرس ويصل إلى الأرض فيقدح ناراً!

وللهند شهرة في صناعة السيوف. وقد وصف كاتب المبحث الأول من الكتاب عن سيفين من الهند. على طرازين، أولهما السيف المستقيم ذو الحدين المتوازيين، والثاني يعرف «بالكوبيس» وهو على شكل المدية الافغانية الطويلة، وقد سمت العرب السيوف الهندية بالمهند، ويقول في ذلك ابن المعتز:

ولقـد هززت مـهنـداً
عضب المضـارب مـرهفـا
وإذا تـولـج هـامـة
الجبـار، سـار فأوجعـا
عضب المضـارب كـالغدير
نـقي القـذى حتـى صفـا

دروع المقاتل

الدرع هو جبة من الزرد المنسوج، يلبسها المقاتل للوقاية من السيوف والسهام، وقد أخبر سبحانه وتعالى عن داود عليه السلام أنه ألان له الحديد، فكان يعمل منه الدروع بقوله تعالى.

«ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد. أن اعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير» (٤).

وقوله تعالى:

«وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون». (٥)

ومن الدروع ما يقال لها «السلوقية» نسبة إلى «سلوق» وهي قرية من قرى اليمن: وربما قيل للدروع «حطومية» نسبة لحطوم. رجل من عبدقيس. (٦).

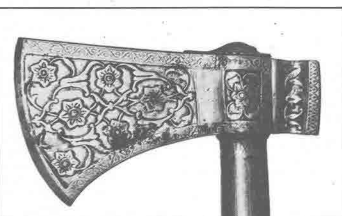
لبس المسلمون الدروع من الزرد، ثم غلب عمل «الفرملات» (٧) من الصفائح المتخذة من الحديد المتواصل بعضها فوق بعض، وكان للعرب أقوال في الدروع. فقد رؤي الجراح بن عبدالله بين درعين، فقيل له فيم ذلك فقال: «لست أقي بدني، وإنما أقي صدري»، واشترى زيد بن حاتم أدرعاً فقال: «إنني لست أشتري أدرعاً، وإنما أشتري أعماراً»، وقال حبيب بن المهلب ينصح بنيه: «لا يقعدن أحدكم في السوق، فإن كنتم لابد فاعلين، فإلى زراد (صانع الدروع) أو سراج، أو وراق».

أما عن الدروع في الفن الإسلامي، فقد أتى الكتاب بلوحات بديعة عن أشكالها، وألوانها، وأنواعها سواء منها ماصنع في سوريا والعراق، أو في مصر وإيران، أو في مختلف بلاد العالم الاسلامي. وأبرزت لوحات الشيرازي والتبريزي روعة هذه الدروع، ودقة نسجها، ثم ذكر الكتاب عن تطور صناعتها، لتناسب تطور الاسلحة من القرن الثامن إلى القرن الخامس عشر الميلادي.

القوس والنبل

حذق المسلمون استعمال القوس. فسموا في الحروب الاسلامية بالرماة، والقوس في اللغة العربية مؤنثة، وجمعها القسي، وهي على ضربين، أحداهما عربية، وهي التي تصنع من خشب، فإذا كانت من عود واحد قيل لها «قضيب»، وإن كانت من فلقين، قيل لها «فلق». والثانية فارسية. وتتكون من أجزاء من خشب، وقرن، وعقب، وعراء. والقوس بالنسبة للمحارب كالبندقية، والنبل أو النبال كطلقاتها.

اهتم المسلمون بالقوس والنبل، فقد روي عن عقبة بن عامر (٨) قال: «سمعت رسول الله، وهو قائم على المنبر: وأعدوا لهم ما استطعتم من



رأس فأس استخدمه المقاتلون في معاركهم الشهيرة، وهو من صنع عمال مدينة «لاهور» بباكستان

قوة . ألا إن القوة الرمي . ألا إن القوة الرمي » .

ويقول صلوات الله وسلامه عليه : « اركبوا وأرموا ، وإن ترموا أحب إلي من أن تركبوا . »

ويقول أيضاً عليه السلام : « كل لهو المؤمن باطل إلا في ثلاث : تأديبه فرسه ، ورميه من كبد قوسه ، وملاعبته امرأته ، فإنه حق ، وإن الله ليدخل الجنة بالسهم الواحد عامله المحتسب ، والقوى في سبيل الله » أي الرامي في سبيل الله .

وكان أرمي أصحاب رسول الله صلوات الله وسلامه عليه « سعد بن أبي وقاص » لأن رسول الله دعا له فقال :

« اللهم سدد رميه ، وأجب دعوته » فكان لايرد له دعاء ، ولا يخيب له سهم .

ويقول الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « لن تخور قواكم ما نزوتم ونزعتم » أي نزوتم ركبتم ظهور الخيل ، ونزعتم القوس وجاء الكتاب بأنواع القسي والسهام ، بلوحات تصويرية جميلة .

آلة المحارب

الترس آلة يحملها المحارب ، يتقي بها الضرب والرمي على الرأس والجسم ، وتسمى « الجنة » بضم الجيم ، أخذاً من الاجتنان أي الاختفاء ، وهي تارة ماتكون من خشب ، وتارة ماتكون من حديد .

بعث أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، إلى عمروبن معدي كرب ، فسأله عن السلاح ، فقال له : فما تقول في « الترس » ؟ قال : « هو المجن وعليه تدور الدوائر » .

تفنن المسلمون في صناعتها في العصور الاسلامية المختلفة ، من حيث القوة والمتانة ، وقد وشيت بالزخارف ، وجملت بالرسوم .

آلة الطعن

الرمح آلة الطعن ، والرمح ضربان ، أحدهما متخذ من القنا ، وهو قصب مسدود من الداخل ، ينبت في بلاد الهند ، ويوصف بالقنا الخطي ، نسبة إلى الخط ، وهي بلدة بالبحرين ، يجلب إليها الرماح من الهند ، وتنقل منها إلى بلاد المسلمين .

أما الضرب الثاني ، فيتخذ من الخشب كالزان ونحوه ، وتسمى « الذابل » وجمعها ذوابل ، ويقال للحديد الذي في أعلى الرمح « السنان » .

عن ابن عمررضي الله عنهما أن رسول الله قال (٩) : « جعل رزقي تحت ظل رمحي ، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري »

السلاح الفردي

ويسمى الطبر وهو الفأس ، سلاح فردي ، استعمل في العصور الاسلامية المتأخرة ، فقد



خنجر أفغاني له غطاء مزخرف من الخشب

استعمله الأتراك العثمانيون ، والمماليك ، وغالباً مايحمله حراس الملوك والأمراء ، لذلك كان التفنن كبيراً في صناعته ، فكان منها مايكون مقبضه من الذهب ، أما نصله فكان على أشكال مختلفة ، فيها الكثير من التفنن ، وعليها كثير من الزخارف والكتابة ، والرسوم ، حتى أتى بعضها تحفاً فنية ، تزهو بها المتاحف في بلاد العالم المختلفة .

والخنجر أيضاً سلاح فردي يتمنطق به المحارب ، ويستعمله للطعن ، ولكنه أصبح في العصور الاسلامية المتأخرة ، زينة يتمنطق بها الناس ، لذلك كان التفنن في صناعتها ، فكانت له أشكال كثيرة موشاة بالألوان والخطوط والزخارف .

كان قسم من نساء المسلمين يحملن الخناجر في الغزوات المختلفة للدفاع الشخصي .

ولا زال هذا السلاح مستعملاً في بعض البلاد إلى يومنا هذا ، مع زيادة في الزينة .

وهناك أسلحة فردية أخرى يحملها المقاتل أثناء الحرب ، ويرتب حاملوها حسب أوامر القائد . ومن أهمها :

« الدبوس : ويسمى العمود ، وهي آلة من حديد ، ذات أضلاع ، وتستخدم لقتال لابس البيضة والدرع ، ويقال بأن خالد بن الوليد رضي الله عنه ، كان يقاتل بها .

« البيضة : وهي آلة من حديد توضع على الرأس للوقاية من الضرب ، وقد يكون لها أطراف مسدولة على الرقبة والأذنين ، وربما جعل منها وقاية للأنف ، وقد تكون من زرد الدروع .

آلات الحصار

عندما توسعت الدولة العربية الاسلامية في فتوحها ، مجاهدة في سبيل الله لنشر دين الله ، أصبحت تواجه جيوشاً منظمة ، تملك الوسائل والآلات ، والعقلية الاسلامية ، عقلية صقلها الايمان ، فأصبحت متطورة إبداعية ، فاخترعوا الآلات الحربية ، إما اقتباساً من الأعداء ، أو بتطوير مالديهم ليتناسب والمعارك التي يخوضونها . ومن أهم هذه الآلات :

« المنجنيق اسم أعجمي ، لأن الجيم والقاف ، لا يجتمعان في كلمة عربية ، ويجمع إلى مجانيق أومناجيق ، ويقول الجوهري أصله « من جي نيك » وتفسيره بالعربية « ماأجودني » ، ويقول ابن قتيبة في كتابه « المعارف » ، وأبو هلال العسكري في كتابه « الأوائل » : « المنجنيق آلة من خشب لها دفتان قائمتان ، بينهما سهم طويل ، رأسه ثقيل ، وذنبه خفيف ، وفيه تجعل المنجنيق التي يوضع بها الحجر ، ويجذب حتى ترفع اسافله على أعاليه ، ثم يرسل ، فيرتفع ذنبه الذي فيه الكفة ، فيخرج الحجر منه ، فما أصاب شيئاً إلا اهلكه » .

ويقال بأن أول من وضع المنجنيق جذيمة الأبرش ، ملك الحيرة على العرب .

وللمنجنيق ملحقات كالزبارات ، وهي اللوالب والحبال التي يجذب بها المنجنيق ، حتى ينحط أعلاه ليرمي به الحجر .

« مكاحل البارود : وهي المدافع التي يرمى عنها بالنفط ، وهي على عدة حالات ، فبعضها يرمى عنه بأسهم عظام تكاد تخرق الحجر ، وبعضها يرمي عنه ببندق من حديد من زنة عشرة أرطال إلى مائة رطل ، ويقول القلقشندي في كتابه صبح الأعشى : « وقد رأيت بالأسكندرية في الدولة الاشرفية ، شعبان بن حسين ، في نيابة الأمير صلاح الدين بن عرام رحمه الله ، مدفعاً قد صنع من نحاس ورصاص وقيد بأطراف الحديد ، رمي عنه في الميدان ببندقة من حديد عظيمة محماه ، فوقعت في بحر السلسلة خارج باب البحر ، وهي مسافة بعيدة » .

« قوارير النفط : هي قدور يجعل فيها النفط ، ويرمى بها بواسطة المنجنيق أومكاحل البارود (المدافع) على حصون الأعداء وقلاعهم فتحرقها ، على أن القوارير في اللغة اسم للزجاج ، وإنما استعيرت في آلات النفط مجازاً .

« الستائر : وهي آلات للوقاية من الطوارق ، تستر بها الأسوار والسفن ، للتمويه على الأعداء .

مخطوطات هامة

التراث العربي الاسلامي العسكري ، تراث عريق ، ولكن أكثر ماكتب عنه ، لازال في

الأسلحة والدروع الإسلامية

مخطوطات تقبع على رفوف المكتبات ودور الكتب في البلاد العربية والاسلامية والأجنبية . ولما تحظ بعد بالعلماء الراغبين في تحقيقها ونشرها . ومن أشهر هذه المخطوطات (١٠) ومن أهم المصادر المصورة عن الاسلحة الاسلامية . ما وضعته مدرسة بغداد بعد القرن الثاني عشر الميلادي التي تنسب إليها بعض مخطوطات الكتب النادرة ، العربية والفارسية . فقد اشتملت على مناظر للقتال ، وللأحداث الهامة ، التي توضح أشكال الأسلحة الاسلامية ، ومن أهمها :

ــ مخطوطة كتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، الذي يرجع تاريخه إلى عام ٦١٤ هـ الموافق ١٢١٧م في الجزء الحادي عشر .

ــ مخطوطة من مقامات الحريري ، الموجود بدار الكتب الأهلية بباريس ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٦٣٤هـ وقد كتبه وزينه بالصور ، يحيى بن محمود بن الحسن الواسطي . ويشتمل على تسع وتسعين صورة .

ــ مخطوط الآثار الباقية من القرون الخالية للبيروني . وهو موجود بمكتبة أدنبره . ويرجع تاريخه إلى ٧٠٧هـ الموافق ١٣٧٩م وفي هذا المخطوط صورتان للسيف المشهور ذو الفقار بطرفه المزدوج .

ــ جوامع التاريخ لرشيد الدين . وهو موجود في مكتبة الجمعية الآسيوية الملكية في لندن ، وهذه المخطوطة حافلة بالصور التي توضح بجلاء أنواع الأسلحة في عصر المغول .

أما المخطوطات الخاصة بالسلاح الاسلامي (١١) فقد ورد ذكر أسمائها في ثنايا أسفار الموسوعات العربية الأدبية والتاريخية ، ففي كتاب الفهرست لابن النديم ، جمع أهم ماكتب من الكتب المخطوطة في موضوع السلاح والحرب عند المسلمين حتى القرن العاشر الميلادي . ومن أهم هذه الكتب :

ــ كتاب الحيل للهرثمي الشعراني ، الذي ألفه للخليفة المأمون عن الحروب .

ــ كتاب آداب الحروب وصورة العسكر ، ألفه عبدالجبار بن عدي للخليفة المنصور .

ــ كتاب الأشميطي في الفروسية .

ــ كتاب آداب الحروب ، وفتح الحصون والمدائن ، وتربيص الكمائن ، وتوجيه الجواسيس ، والطلائع والسرايا ، وقد عمل لأردشير بن بابك وترجم إلى العربية .

ــ كتاب السيوف ، نعتها ، وصفاتها ، ورسومها ، وعلاماتها لباجهار الهندي .

ــ كتاب أمر تدبير الحرب ، ومايبنغي للملك أن يتخذ من الرجال ، لشاناق ، الهندي .

ــ كتاب السيوف التي كانت عند العرب ، ويغلب الظن أن هذا الكتاب للفيلسوف الكندي .

ــ كتاب كفاية الملوك وأدب المملوك ، وهو في فن الحرب ، كتبه بالفارسية محمد بن منصور بن سعيد بن الفرج القريشي ، المعروف بفخر المدبر ،

خوذة مع « جاكيت » من المعدن لحماية المقاتل المسلم أثناء خوض القتال

القوات الاسلامية تواجه قوات المغول بأسلحتها المتنوعة

وأهداه إلى شمس الدنيا والدين أبي المظفر « إيلتتميش » السلطان الناصر أمير المؤمنين من سلاطين الأتراك ، وقد حكم في دهاي من ٦٠٧ هـ ــ ٦٣٣ هـ الموافق ١٢١٠ م ــ ١٢٣٦ م ، ويتألف المخطوط من أربعين باباً في فن الحرب ، ومنها باب في فضائل وخصائص وأنواع السلاح .

ــتحفة المجاهدين في العمل بالميادين ، للأمير لاجين بن عبدالله الذهبي الحسامي الطرابلسي عام ٧٣٨ هــ ١٣٣٧ م ، وتحتفظ مكتبة برلين بنسخة نادرة منه موضحة بالصور والرسوم .

ــكشف الكروب في معرفة الحروب لعماد الدين موسى بن محمد اليوسفي المصري . كتبه عام ٧٠٩ هـ الموافق ١٣٥٨م بناء على أمر السلطان حقمق وقسمه إلى عشرة أبواب . تبحث في فن الحرب . ونظام الجند . وتحتفظ دار الكتب المصرية بهذا المخطوط .

ــالأحكام الملوكية والضوابط الناموسية ، لمحمد بن منكلي نقيب الجيش في أيام الأشرف شعبان سلطان مصر . ويبحث الكتاب في فنون القتال . وهو مقسم إلى ١٢٢ باباً . اشتملت على الرمي . وعلى السفن الحربية وآلاتها وتحركاتها ، وتناول المؤلف الكلام عن السيف . وتوجد صورة لهذا المخطوط في دار الكتب المصرية . ولابن منكلي مخطوط آخر « التدبيرات السلطانية في سياسة الصناعة الحربية » موجود في مكتبة المتحف البريطاني .

ــالجهاد والفروسية وفنون الآداب الحربية ، لطيبوغا الأشرفي الرومي عام (٧٧٠ هــ ١٣٦٨ م) وتبحث أقسامه في ركوب الخيل في الحرب . وأسلحة الفارس واللعب بالسيف والرمح ، وفي دار الكتب المصرية نسخة مصورة للمخطوط .



درع لحماية الأيدى عند المبارزة ، وعليه نموذج من الخط العربي يعود تاريخه إلى عام ١١٠٣ هـ . اضافة لبعض الزخارف الاسلامية

ــالأنيق في المجانيق ، ألفه أرنبغا الزردكاش صانع الزرد ، وصف فيه أنواع المجانيق وكيفية استخدامها ، وأوضح كلامه بالرسم . إذ يبلغ عدد الرسوم فيه حوالي خمسمائة رسم . وتوجد صورة من المخطوط في دار الكتب المصرية .

إن السلاح الاسلامي جزء لايتجزأ من العسكرية الاسلامية عقيدة وتاريخاً ، ولغة وسلاحاً ، هذه العسكرية هي روح انتصاراتنا ، وفخر تاريخنا ، ونحن في هذا العصر ، ماأحوجنا إلى هذه الروح العسكرية الاسلامية لنعيد المجد والعز والنصر .

حسني شحاده

هوامش

(١) العسكرية العربية الاسلامية للواء الركن محمود شيت خطاب
(٢) العسكرية العربية الاسلامية للواء الركن محمود شيت خطاب ص ١٤٣
(٣) العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي حـ١ ص ١٧٩
(٤) القرآن الكريم ــ سورة سبأ آية ١٠ ، ١١
(٥) القرآن الكريم ــ سورة الأنبياء آية ٨٠
(٦) نهاية الأرب في فنون الأدب للنويري حـ٥ ص ٢١٤
(٧) الدروع
(٨) العقد الفريد لابن عبدربه الأندلسي حـ ١ ص ١٨٦
(٩) صبح الأعشى للقلقشندي حـ ٢ ص ١٣٨
(١٠) السيف في العالم الاسلامي للدكتور عبدالرحمن زكي ص ١٨
(١١) الفهرست لابن النديم ص ٤٣٦

نزيف العقول الذي نعاني منه

هجرة الكفاءات العربيّة إلى الأقطار الغربيّة

بقلم الدكتور: جلال عبدالله معوض

من أبرز مشكلات التنمية العربية هجرة الآلاف من أصحاب الكفاءات العربية إلى الأقطار الغربية ، فهذه الهجرة التي توصف بحق ، بنزيف العقول ، تؤدى إلى تبديد عنصر بشرى نادر تملكه الأقطار العربية وتحتاج اليه بشدة من أجل تنميتها الاقتصادية والاجتماعية .. وقبل تحليل آثار هذه الهجرة من الضرورى تحليل أسبابها ، وكذلك عرض بعض الاحصاءات عن حجمها وتخصصات المهاجرين .

تشير الاحصاءات المتاحة إلى أنه فى الفترة ١٩٥٣ ــ ١٩٧٤ بلغ عدد المهاجرين العرب من ذوى الكفاءات العلمية إلى الولايات المتحدة وحدها (١٠٢,٦١٩) مهاجراً، جــاء في مقدمتهم المصريون (٣٠,٧٩١) مهاجراً وتلاهم الأردنيون والفلسطينيون (٢٨,٨٧٠) وأعقبهم اللبنانيون (١٩,٤٠٥) ثم العراقيون (١٣,٥٢١) وأخيراً السوريون (١٠,٠٣٢) مهاجراً (١)

ومن الملاحظ أن التكوين النوعى لهؤلاء المهاجرين تغلب عليه صفة التخصص العلمى الدقيق . فخلال الفترة الممتدة من ٣٠ يونيو ــ حزيران ١٩٦٢ إلى ٣٠ يونيو ــ حزيران ١٩٦٩ كان من بين المهاجرين العرب إلى الولايات المتحدة : (٢)

- (١٢٨٣) من المهندسين ، منهم (٥٦٤) من مصر و (٢٧٧) من لبنان و (١١٧) من الأردن ــ فلسطين و (١٦٥) من العراق و (١٢٩) من سورية و (١٨) من المغرب و (٩) من الجزائر و (٤) من تونس .
- (٤٨١) من علماء الطبيعة ، منهم (٢٣١) من مصر و (٩٥) من لبنان و (٤٧) من الاردن ــ فلسطين و (٦٧) من العراق و (٣٠) من سوريا و(٦) من تونس و(٣) من المغرب و(٢) من الجزائر .
- (٦٥٦٠) من الفنيين المتخصصين ، منهم (٢٧٦١) من مصر و(١٢١١) من لبنان و(٨٨٦) من الاردن ــ فلسطين و(٧٩٤) من العراق و(٤٦٣) من سورية و(٢٣٨) من المغرب و(١٣٩) من تونس و(١١٣) من الجزائر .
- (٤٨٣) من الأطباء ، منهم (١٧١) من مصر و(١٦٩) من لبنان و(٢٧) من الأردن ــ فلسطين و(٤٥) من العراق و(٤٣) من سورية و(١٤) من المغرب و(١٣) من تونس و(١) من الجزائر .
- (٧٩) من علماء الاجتماع ، منهم (٣٢) من مصر و(٢٠) من لبنان و(١١) من الأردن ــ فلسطين و(٤) من العراق و(٥) من سوريا و(٦) من الجزائر و(١) من تونس .

وتأتى كندا فى المرتبة الثانية بعد الولايات المتحدة فى اجتذاب الكفاءات العربية ، حتى أنه فى الفترة ١٩٥٩ ــ ١٩٧٣ بلغ عدد المهاجرين العرب من ذوى الكفاءات إلى كندا (٧٨٩ و٣٣) منهم (١٤٦ و ١٦) من مصر و(٧٣٠ و ١١) من لبنان و (٩١٣و١) من سورية و(٤,٠٠٠) من العراق والاردن ــ فلسطين . وهؤلاء المهاجرون هم أيضاً فى معظمهم من أصحاب الكفاءات العلمية العالية ، فخلال الفترة المذكورة كان من بين المهاجرين المصريين والسوريين واللبنانيين وحدهم (٨٢٤) من المهندسين و(٨٠٦) من اساتذة الجامعات و(٧٦٣) من الأطباء و(٣٠٢٤) من الفنيين المتخصصين .(٣)

ونلاحظ منذ منتصف السبعينات استمرار تزايد أعداد المهاجرين من ذوى الكفاءات من الوطن العربى إلى الأقطار الصناعية الغربية ، حتى أنه فى خلال عام ١٩٧٩ وحده فقد الوطن العربى نتيجة لهذه الهجرة (٢٤) ألف طبيب و(١١٧) ألف مهندس .(٤)

أسباب الهجرة

ترجع هجرة الكفاءات العربية إلى الأقطار الغربية إلى مجموعة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يمكن اجمالها فى :

١ ــ انخفاض دخول ومستويات معيشة أصحاب الكفاءات العلمية فى الأقطار العربية عموماً

بالمقارنة بفئات اجتماعية أخرى أدنى علماً وثقافة كالتجار ورجال الأعمال والفنانين بل والحرفيين ، مما لايوفر لأصحاب الكفاءات العلمية الشعور بالرضا والاستقرار النفسى والاجتماعى والقدرة على التفرغ للبحث والدراسة .

٢ ــ تعيين أصحاب الكفاءات العربية فى وظائف ادارية وحكومية لا تتفق مع تخصصاتهم ، بالاضافة إلى التعقيدات البيروقراطية التى تقتل قدرتهم على الابتكار والابداع .

٣ ــ طبيعة النظم التعليمية فى الأقطار العربية تشكل فى حد ذاتها عاملاً طارداً للكفاءات العربية ، حيث مناهج التعليم بما تتضمنه من معارف واتجاهات غربية تعد الفرد ليصير أكثر دراية وانبهاراً بالمجتمعات الصناعية الغربية ، ومن هنا يتطلع الفرد حال تخرجه إلى الهجرة إلى هذه المجتمعات متى سنحت له الفرصة حيث يجد مجالات خصبة لتطبيق ماتعلمه فى مجالات الطبيعة والذرة والالكترونيات ــ فى الوقت الذى لم تؤهله دراساته لمواجهة مشكلات الصناعات الصغيرة والمتوسطة والزراعة والبحث عن مصادر المياه الجوفية ومحو الأمية وغير ذلك من مشكلات مثارة فى البيئة العربية .

٤ ــ بعض الظروف السياسية التى تؤدى إلى عدم الاهتمام بتوفير مستلزمات الحياة الاجتماعية اللائقة بالعلماء والمفكرين وإلى تقييد حرية البحث العلمى مع إضفاء درجة كبيرة من السرية على تداول البيانات اللازمة لإجراء البحوث الانمائية ، كل هذا يدفع بمعظم العلماء العرب إلى الهجرة للخارج . ومن الجدير بالذكر أن هناك اكثر من دراسة أجريت حول دوافع هجرة أصحاب الكفاءات العربية إلى الأقطار الغربية بما فيها الدوافع السياسية ، ومن هذه الدراسات تلك التى قامت بها فى عام ١٩٧٣ مؤسسة علمية امريكية هى « مؤسسة العلم القومى National Science Foundation » على عينة من (٨٠٠٠) من أصحاب الكفاءات العربية الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة فى الفترة ١٩٦٤ ــ ١٩٦٩ مع التركيز على المستقرين منهم فى « كاليفورنيا » ، وبخصوص اجابات المبعوثين العرب عن الأسئلة التى تضمنتها استمارة هذه الدراسة يلاحظ مايلى : ــ(٥)

• فى معرض الاجابة عن سؤال يتعلق « بكراهية البيئة فى الدول الأصلية كعامل للهجرة » ، رد (٣٧,٥ فى المائة) من أفراد العينة بالايجاب و(١٦,٨ فى المائة) بالنفى و(٤٥,٧ فى المائة) بعدم العلم .

فى معرض الاجابة عن سؤال يرتبط « بعدم توفر الحرية الفكرية والسياسية فى الدول الأصلية كعامل للهجرة » ، رد (٢٥,٥ فى المائة) بالايجاب و(٢٠,٢ فى المائة) بالنفى و(٥٤,٣ فى المائة) بعدم العلم .

• وفى معرض الاجابة عن سؤال يتعلق « بعدم الرضا عن النظام الاجتماعى فى الدول الأصلية كعامل للهجرة » ، رد بالايجاب (٢٠,١ فى المائة) وبالنفى (١٧,١ فى المائة) وبعدم العلم (٦٢,٨ فى المائة) .

آثار هجرة الكفاءات العربية

تفرز هجرة الكفاءات العربية إلى الأقطار الغربية العديد من الآثار السلبية ــ من وجهة النظر العربية ، ومن هذه الآثار :

١ ــ فقدان الجهود والطاقات الانتاجية لهذه الكفاءات والتى تصب فى شرايين الاقتصاديات الغربية لتزيدها قوة وتقدماً .

٢ ــ ضياع ما أنفقته الأقطار العربية من أموال على اعداد وتعليم أصحاب هذه الكفاءات .

وتشير احدى الدراسات إلى أنه بالنظر إلى ضخامة تكاليف اعداد وتعليم أصحاب الكفاءات العربية الذين يهاجرون إلى الاقطار الغربية ــ حيث يقدر متوسط هذه التكلفة بحوالى (٢٢٧) ألف دولار بالنسبة للمهندس و(١٩٨) ألف دولار بالنسبة لعالم الطبيعة و(٥٣٥) الف دولار بالنسبة للطبيب ، فإن الخسائر التي منيت بها الأقطار العربية نتيجة لهذه الهجرة تجاوزت (١١) بليون دولار فى عقد السبعينيات (٦)

٣ ــ تعثر جهود التنمية الاجتماعية العربية فى مجالات الصحة والتعليم والتخطيط الحضرى وغيرها من المجالات . نتيجة هجرة أعداد كبيرة من الأطباء والاساتذة الجامعيين وعلماء الاجتماع وغيرهم من الاقطار العربية إلى الاقطار الغربية .

٤ ــ ضعف الانتاج العلمى فى الأقطار العربية حتى بالمقارنة بالانتاج العلمى للباحثين العرب المقيمين فى أوربا وامريكا . تشير احدى الدراسات إلى أنه فى عام ١٩٧٧ بلغ عدد البحوث التى اجريت فى الأقطار العربية فى العلوم الهندسية والتقنية (٤٧٠) بحثاً مقابل (٥٧٦) بحثاً فى نفس المجال أجراها العلماء العرب فى أوربا وأمريكا . وبلغ عدد البحوث الفيزيائية والرياضية داخل الأقطار العربية (٢٢٦) مقابل (٨٠٩) فى أوربا وأمريكا على يد الباحثين العرب ، وبلغ عدد الأبحاث الكيمائية (٦٢٧) داخل الأقطار العربية مقابل (٧٩٢) فى أوربا وامريكا على يد الباحثين العرب ، وبلغ عدد أبحاث علوم الحياة (٨٦٦) داخل الأقطار العربية مقابل (١٦٣٣) فى أوربا وامريكا على يد الباحثين العرب .(٧)

المطلوب من المهاجرين

يتضح مما تقدم ، أن هجرة الكفاءات العربية إلى الأقطار الغربية نتاج شبكة معقدة من العوامل الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ، وأن هذه الهجرة تطرح العديد من الآثار السلبية على التنمية العربية الشاملة ، خاصة وأنها لم تعد قاصرة على أصحاب الكفاءات من أبناء الاقطار العربية غير النفطية بل صارت تشمل أيضا بعض أبناء الأقطار العربية النفطية .

يتبقى أن نشير إلى أن محاولات بعض النظم العربية لاستعادة المهاجرين العرب من ذوى الكفاءات والانتفاع بهم فى تنمية بلدانهم الأصلية (العربية) لم يقدر لها النجاح ، سواء أخذت هذه المحاولات سبيل الاغراء بالمراكز المرموقة والامتيازات المالية أو تنظيم مؤتمرات « للمغتربين » لطلب مساعدتهم وخبرتهم بصدد نقل التكنولوجيا والمشاركة المالية فى بعض المشروعات ، ويرجع اخفاق هذه المحاولات إلى رفض المهاجرين العرب الاستجابة لها فى ظل خشيتهم من بعض العواقب . بالاضافة إلى ما يترتب على عمق اندماجهم فى المجتمعات الغربية من صعوبة ادراكهم لحقيقة مشكلات البلدان العربية ومتطلبات التنمية فيها .

ومن هنا تبرز أهمية تحرك جامعة الدول العربية للاستفادة من هؤلاء المهاجرين ، ولو من خلال توظيفهم كقوة ضاغطة على صانعى السياسة فى الأقطار الغربية فى مواجهة القوى الضاغطة الصهيونية المساندة لاسرائيل .

جلال عبدالله معوض

هوامش :

(1) Hossein Askari and John Thomas Cummings, Middle East Economic in the 1970's: A Comparative Approach New York Praeger Publishers, 1976, P. 314.

(٢) د. محمد رشاد الحملاوى ، « السوق الرأسمالية للتكنولوجيا والدول النامية » ، بحث مقدم إلى المؤتمر العلمى السنوى الأول للاقتصاديين المصريين (التنمية والعلاقات الاقتصادية الدولية) ، القاهرة : الجمعية المصرية للاقتصاد السياسى والاحصاء والتشريع ، ٢٥ ــ ٢٧ مارس ــ آذار ١٩٧٦ ، ص٣٣٨ .

(3) Hossein Askari and John Thomas Cummings, OP. Cit., P. 323.

(٤) د. محمد دويدار ، الاقتصاديات العربية وتحديات الثمانينات : البترول العربى نعمة أم نقمة ، الاسكندرية : منشأة المعارف ، ١٩٨٢ ، ص٧١ .

(5) Hossein Askari and John Thomas Cummings, OP. Cit., PP. 327-328.

(٦) د. محمد هشام خواجكية : « استنزاف العقول العربية : نتائج الظاهرة وأسبابها السياسية والاجتماعية » ، مجلة المستقبل العربى ، بيروت : مركز دراسات الوحدة العربية ، عدد (٢٢) ، ديسمبر ١٩٨٠ ، ص٤٣ .

(٧) نفس المصدر ، ص٣٥ .



معالى الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثانى وزير المالية والبترول بدولة قطر فى اجتماع الأوبك الأخير فى فيينا .

بمناسبة مرور ربع قرن على قيام منظمة الأقطار المصدرة للبترول

كيف تتخلص "الأوبك" من مخاطر الأزمة الرّاهنة؟

بقلم : بسام طالب

واجهت منظمة البلدان المصدرة للبترول ، والمعروفه باسم أوبك ، خلال ربع القرن الماضي العديد من العقبات والأزمات ، وفي وقت من الأوقات لم يراود الشك الغالبية العظمى من المراقبين من أن أوبك آيلة للسقوط لا محالة ، والمسأله برمتها تنتهي عند تحديد موعد هذا السقوط .

لكن واقع الحال أن هذه المنظمة استطاعت رغم المنعطفات الخطيرة التي مرت بها أن تحافظ على الحد الأدنى لتماسكها ووجودها . ويكاد التاريخ أن يسجل لها الأسبقية في كونها واجهت خندقا معاديا يسيطر على معظم مصادر القوة والتحكم العالميين ، ومسخرا له آخر ما وصلت اليه الحضارة من علم وخبره وتكنولوجيا ، ورغم كل هذا ورغم كل عثراتها الداخلية ، ورغم كونها تنضوي بمجموع دولها الى معسكر دول العالم الثالث السائرة في طريق النمو ، أحرزت منظمة الأوبك انتصارات مشهودة لعل أبرزها أنها مازالت مستمرة وبفعالية حتى الآن . كما أدخلت تغييرات جذرية وأساسية في العلاقات الاقتصادية الدولية خلال العقدين الأخيرين من الزمن لصالح الدول المنتجة والمصدرة للسلع الاستراتيجية عامة ولسلعة النفط بشكل خاص ، في حين أن التاريخ يشهد بأن التغيرات العميقة في البنى الاقتصادية للعلاقات الدولية لا يمكن أن تتحقق الا نتيجة تغيرات عميقة في الخارطة السياسية العالمية ، لاتصنعها الا الحروب الكونيه .

الأزمة الراهنة للأوبك

تمتد جذور الأزمة الراهنة للأوبك لسنوات عدة خلت ، ويمكن تحديداً القول بأن من أهم الأسباب



آفاق الغد الذهبيّة قادمة ولكن؟

وزير النفط الجزائري ووزير النفط الأكوادوري وعدد آخر من وزراء نفط الأوبك



وزراء النفط في المملكة العربية السعودية ودولة الامارات العربية المتحدة وليبيا وايران .

التي أدت الى هذه الأزمة :

ـ غياب استراتيجية واضحة بعيدة المدى لعمل المنظمة وخاصة ما يتعلق بمسألتي الانتاج والأسعار .

ـ الافتقار الى الحد المطلوب من ايمان والتزام أعضاء المنظمة بمنظمتهم .

ـ توافر مصادر للنفط خارجية ومنافسة لنفط الأوبك .

ـ نجاح سياسات وكالة الطاقة الدولية بأن تتولى ادارة الطلب العالمي على النفط بما فيه نفط أعضاء المنظمة .

ـ تحول مستمر في استهلاك الطاقة وذلك بالاعتماد المتزايد على مصدرى الفحم والطاقة النووية .

وكان من نتيجة ذلك انخفاض شديد في الطلب على نفط الأوبك ، ففي حين كانت الأوبك تغطي مساحة ثلثي الاستهلاك العالمي أصبحت صادراتها الآن تمثل ١٤٫٥٪ من الاستهلاك العالمي . ولقد أسفرت جهود وكالة الطاقة الدولية الى هبوط انتاج أوبيك من ٣١ مليون برميل يوميا عام ١٩٧٣ الى ما يقارب ١٤ مليون برميل عام ١٩٨٥ ، هذا بالاضافة الى الضغوط المستمرة على الأسعار والتخوفات المستمرة من انهيار التركيبة السعرية للمنظمة ، بمعنى آخر فإن أوبك تعاني من تراجع حاد في عائداتها النفطية في الوقت الذى تواجه ضغوطا كبيرة في الانفاق تعود الى خطط تنمية طموحة ومتسرعة بعض الشيء .

وقد لخصت صحيفة « زوددويتش تسايتونغ » الألمانية الغربية الموقف بكلمات أصابت كبد الحقيقة ، بغض النظر عن النوايا التى تقف خلفها ، عندما قالت الصحيفة :

إن الصعوبات الحالية للأوبك هي نتيجة للسياسة القصيرة النظر التي اعتمدتها دول المنظمة في الماضي والتي كانت تهدف في الدرجة الأولى الى جني أكثر ما يمكن من الأرباح في الوقت الذى كانت فيه الدول المستهلكة تعمل على دفع مواطنيها لتوفير الطاقة وتطوير مصادر جديدة كبديل للنفط .

إذن هناك تهديد حقيقي يواجه المنظمة ويدعوها الى مواجهة حقائقه بمنتهى الجرأة والوضوح . ولعل من أهم النجاحات التي حققها المؤتمر الرابع والسبعون للمنظمة الذى عقد أواخر يوليو الماضي في جنيف هو أنه تعامل مع المعطيات المستجدة في السوق النفطية تعاملا مباشرا ومرنا ، ولئن أتخذت القرارات التي انتهى اليها المؤتمر بالأغلبية إلا أن أحدا ما كان يتوقع أن ينتهي المؤتمر إلى ما إنتهى اليه من نتائج تعتبر بالقياس النسبي ايجابية وباهرة أيضا .

كيف تتخلص "الأوبك" من مخاطر الأزمة الراهنة؟

معالي الشيخ عبد العزيز بن خليفة آل ثاني وزير المالية والبترول القطري أثناء توجهه لحضور إحدى جلسات مؤتمر الأوبك الأخير



الحاضر وتجاوز الأزمة

هناك اذن ثلاث إلى خمس سنوات عجاف أمام المنظمة يرجح أن يستمر انخفاض الطلب فيها على نفط الأوبك أو أن يستقر في أحسن أحواله ، يرافق ذلك تصاعد في الحملة الموجهة من دول وكالة الطاقة الدولية بقيادة الولايات المتحدة لتحطيم التركيبة السعرية للمنظمة والوصول إلى سعر ٢٠ دولارا لبرميل النفط أى بانخفاض يقارب ٨ دولارات للبرميل الواحد ، وإذا ماتم تحقيق ذلك ، دون أن يواجه بأية احتياطات وقائية من قبل الدول المنتجة فالنتيجة المعروفة ستكون انهيار الأوبك ودفع اقتصاديات معظم دولها نحو أزمة خطيرة .

لذا فإن التحرك الجدى من قبل المنظمة الآن هو الذى سيحدد ماذا ستكون عليه صورة الغد ، ولعل من أهم مظاهر هذا التحرك ما يلي :

ــ على دول المنظمة أن تؤكد قولا وعملا على تماسكها ووحدتها وذلك بالتزامها الجدى بأن تتقاسم رغيف الخبز اليابس إلى أن ينضج رغيف الخبز الطازج .

ــ عليها منذ الآن أن توظف هذه الأزمة لازالة هذا الترهل الذى لحق بجسم هذه المنظمة وتسعى لوضع قاعدة راسخة لمواجهة الأزمات المتوقع أن تواجهها وأن تبحث عن الوسائل الكفيلة بفرض النظام داخل المنظمة .

ــ على المنظمة أن تولي جهدا مضاعفا لتنسيق سياساتها وتكثيف اتصالاتها مع المنتجين الآخرين خارج أوبك بهدف التشاور والتنسيق وتنظيم المعطيات المستقرة والمستجدة في السوق .

ــ على دول المنظمة أن تضع سياسات ملزمة لترشيد انفاقها ووضعة على المستوى الحدى ، والتخلص من ذلك النمط الاستهلاكي المضر بعملية التنمية الاقتصادية حتى تستطيع مواجهة ضغوط السيولة التي تدفع بعض دولها للتصرف بشكل انفرادي تضر بها وبدول المنظمة في آن واحد .

ــ يجب اعادة النظر كليا في الأجهزة الفنية والادارية للمنظمة بحيث تكون المرجع الأول الذى يستند عليه في اتخاذ القرار ، ولابد لتحقيق ذلك من أن يتوفر لها التمويل الكافي لتكون بمستوى تقديم مثل هذه الخدمات .

ــ يجب على المنظمة أن تفكر جديا بانشاء صندوق مشترك للوقوف بشكل فعال ومباشر مع الدول التي تواجه تراجعا حادا في عائداتها أو التي تحاول دول الغرب الصناعية أن تستفرد بها لتفرط عقد المنظمة دولة تلو أخرى .

ــ على المنظمة أن تبذل أقصى جهدها للحفاظ على التركيبة السعرية لها فقد اثبتت تجارب السوق السابقة أن الهبوط في الأسعار لن يؤدى الى زيادات المجموع الكلي للصادرات ، كما أثبتت معطيات السوق أنه حتى في أفضل الحالات فإن ارتفاع الطلب لا يكون بنسبة الهبوط الحاصل في السعر وذلك عائد للهيكل المتغير في سوق الطاقة ولوقوف حكومات الدول المستهلكة في وجه أن يكون المستهلك النهائي هو المستفيد المباشر من انخفاض السعر .

إن منظمة أوبك اذا استطاعت أن تتجاوز بأمان عنق الزجاجة هذا فلاشك بأن آفاق الغد الذهبية قادمة ...... ولكن ؟

ماذا تحمل الآفاق ؟

هناك حقيقة واضحة ومؤكدة وهي أن منظمة أوبك التي تملك ثلثي الاحتياطي العالمي من النفط تنتج ثلث الانتاج العالمي ، ويمكن التعبير عن هذه الحقيقة بصيغة أخرى وهي أن من يملك ثلث الاحتياط العالمي ينتج حاليا ثلثي الانتاج العالمي ، وبعملية حسابية بسيطة يمكن الاستنتاج أنه مع بداية التسعينات سيزداد الطلب على نفط الأوبك في الوقت الذى ستنخفض فيه مصادر البترول خارج الأوبك ، هذا بالاضافة الى النمو الكبير المتوقع في

الطلب على النفط في منطقة الدول المتقدمة صناعيا من دول العالم الثالث كالهند والبرازيل والأرجنتين والدول الأخرى المرشحة للدخول للمعترك الصناعي .

وقد كشفت وزارة الداخلية الأمريكية ، كما تقول مجلة روزاليوسف بأن احتياطيات الولايات المتحدة من النفط والغاز في مناطق التنقيب تحت سطح البحر ، أقل بنسبة ٤٤ في المائة عما كان مقدرا لها . ومعنى ذلك أن أمريكا سوف تضطر الى الاستيراد من الأوبك بكميات كبيرة قدتبلغ ٩ ملايين برميل يوميا في المستقبل .

وتقول دراسة قامت بها مكتبة الكونجرس الامريكي بأن أزمة الطاقة العالمية سوف تتجدد ، وأن دولا منتجة للنفط سوف تتحول الى دول مستوردة له ، كما أن الاقبال على استهلاك النفط سوف يزداد مستقبلا نتيجة لاجتياز العالم لحالة الكساد التي تكتنفه وتخيم بظلالها عليه في الوقت الحاضر .

وتوقعت دراسة لشركة « كونوكو » ازدياد الاعتماد العالمي على نفط الأوبك طوال التسعينات القادمة ليبلغ ٢٨ مليون برميل يوميا بحلول عام ٢٠٠٠ .

ويقول « الكس سالمون » مستشار بنك اسكتلندا لشئون النفط ، بأن تحسن الطلب على النفط لصالح الأوبك سيكون أقرب مما هو متوقع عموما ، فسوف يبلغ انتاج بحر نفط الشمال ذروته هذا العام ، بينما سيشهد العام المقبل ذروة انتاج كافة الدول الأخرى غير المنتمية لعضوية الأوبك .

ويؤكد تشارلز إيبينغر مدير برنامج الطاقة الاستراتيجية بجامعة « جورج تاون » الأميركية أن منظمة أوبيك سوف تستعيد قوتها في التسعينات حيث يتضاعف نصيبها في السوق النفطية العالمية ، وأن كل برميل نفط اضافي ستظهر الحاجة اليه في التسعينات سوف يرد من الأوبك .

وهذا ما أكدته دراسة علمية أعدتها جامعة الامارات كما جاء في صحيفة « البيان » حيث أشارت الدراسة الى أن الطلب العالمي على الطاقة سيتضاعف ثلاث مرات عام ٢٠٢٠ عما هو عليه حاليا وخاصة اذا استمر متوسط النمو الاقتصادي العالمي على نحو ما وصل اليه خلال الخمسين عاما الماضية .

ومن المؤشرات الهامة ايضا لصالح دول الأوبك انخفاض عمر الاحتياطي النفطي لدى الاتحاد السوفيتي ودول المعسكر الشرقي نتيجة الفارق الكبير النسبي بين الانتاج والاحتياطي ، فقد انخفض عمر الاحتياطي النفطي لدى دول هذا المعسكر من ٢٢ عاما إلى ١٦ عاما الآن بينما ارتفع عمر الاحتياطي في دول الأوبك من ٣٧ عاما سنة ١٩٧٣ الى ٨٥ عاما هذه الأيام بمعدل انتاجها الحالي .

وكذلك فمن الحقائق المعروفة في هذا المجال هو التفاوت الكبير في تكلفة الانتاج بين خام الأوبك والخام المنتج في الدول الصناعية .

وتقول بعض التوقعات الأمريكية بأن حوالي ٥٦ بالمائة من احتياطي العالم المعروف من البترول و٢٣ في المائة من الاحتياطي غير المكتشف ما زال يكمن في الشرق الأوسط .

وأن حصة أوبك من سوق البترول العالمي سوف تتضاعف في التسعينات وتصل إلى حوالي ٥٥٪ من الطلب العالمي .

ويشارك « بيتروولكر » وزير الطاقة البريطاني العديد من المحللين النفطيين الغربيين آراءهم بأن الحالة الراهنة للأوبك لن تدوم طويلا ، وأن أوبك سوف تستعيد قوتها في أسواق النفط في منتصف التسعينات .

معنى هذه المؤشرات

ماذا تعني كل هذه المؤشرات .... إنها ببساطة تدعو الى التفاؤل ، لكنها تدعو أكثر الى الحذر ،

أولاً وبادىء ذي بدء يجب التنبيه الى أن ما يصدر عن دول الغرب الصناعية من الضروري أن ينظر اليه في منتهى الحيطة ، وأن يوضع تحت أدق المجاهر ، فكثيرا ما تلجأ وسائل الاعلام الغربية والدوائر المعلنة والمستترة التي تخدم أغراض وكالة الطاقة الدولية ، كثيرا ما تلجأ هذه المؤسسات الى اطلاق بالونات اختبار وبالونات تجربة ، الهدف منها هو توجيه الآراء باتجاه معين بهدف تنفيذ سياسة معينة ، فيجب إذن عدم التسليم ببساطة بما جاء به الغرب الصناعي من توقعات على هذا الصعيد .

ويجب ثانيا اعداد الدراسات الدقيقة من قبل أجهزة منظمة الأوبك والمؤسسات المتخصصة لدى الدول المنتجة الأعضاء في أوبك لتحرى الدقة واستكناه حقيقة الأمر .

وفي حال التوصل الى يقين حوله يجب ثالثا اعداد الخطط المستقبلية للتصرف حياله بشكل يوظف هذه الفرصة القادمة توظيفا استراتيجيا لصلحة دول الأوبك خاصة ولمصلحة دول العالم الثالث بشكل عام .

كما يجب على دول الأوبك رابعا أن تضع نصب أعينها أن الدول الصناعية التي تعرف هذه الحقيقة ستسعى بأقصى ما تملكه من وقت وقوة وجهد لكي لا تعود قيادة السفينة النفطية ثانية بين يدى الأوبك ، ولن تتورع في استخدام حتى الوسائل غير المشروعة في النزاعات الدولية للحيلولة دون الوصول الى هذا الغد المشرق بالنسبة للأوبك ، وقد تكون مساهمتها في اشاعة بعض القضايا الراهنة حول مستقبل الطلب على نفط الأوبك هو لتوجيه مسار هذه المنظمة ، توجيها خاطئا ولتكريس عوامل الفرقة بين صفوفها .

إن التماسك والوحدة كفيلان بايصال الأوبك الى بر الأمان ، واذا ما استعادت الأوبك على مشارف التسعينات سيطرتها على إدارة الطلب العالمي على النفط فلاشك بأنها ستعود لاستلام فرصتها التاريخية ثانية وبمعطيات جديدة . وهذا يدعو الى الحيطة والحذر أكثر مما يدعو الى الراحة والاسترخاء ، وهذا يدعو أيضا الى مزيد من التنسيق والتكاتف أكثر مما يدعو الى تكريس الانقسام والفرقة .

إن التاريخ الطويل لصراع الأوبك مع الأزمات وتجاوز هذه الأزمات لدليل على حرص أعضاء هذه المنظمة على بقاء منظمتهم ، ولعل الحرص وحده لم يعد كافيا في هذه المرحلة ولابد أن يترافق بالتزام حقيقي بروح الفريق لتجاوز أزمة هذه السنوات العجاف ، واذا ما تم ذلك فلابد أن تبزغ آفاق الغد الذهبية لا محالة .

بسام طالب

تقديرات الطلب العالمي على النفط حتى ١٩٩٥

	بآلاف البراميل يومياً				تغير
الدول الصناعية	١٩٨٥	١٩٨٦	١٩٩٠	١٩٩٥	٨٥ـ١٩٩٥
الولايات المتحدة	١٤٥٢٢	١٤٣٠٢	١٤٦١٦	١٤٨٤٠	+ ٣١٨
اوربا الغربية	١١٠١٢	١٠٨٥٩	١٠٩٠٦	١٠٨٤٦	ـ ١٦٦
اليابان	٤١٣٦	٤١٥٣	٤٢٤٠	٤٤٠٢	+ ٢٦٦
كندا ، استراليا ، نيوزيلندا	٢٣٢٥	٢٣٠٨	٢٢٩٢	٢٣١٦	ـ ٩
مجموع الدول الصناعية	٣١٩٩٥	٣١٦٢٢	٣٢٠٥٤	٣٢٤٠٤	+ ٤٠٩
الدول النامية					
آسيا ، الباسفيك ، الصين	٥٦٩٠	٥٩٠٩	٦٦٨٤	٧٩٦٣	+ ٢٢٧٣
امريكا اللاتينية	٤٧٣١	٤٨٨٤	٥٤٣٢	٦٣٣٥	+ ١٦٠٤
الشرق الاوسط	٢٩١٨	٣٠٦٦	٣٦٧٨	٤٢٥١	+ ١٣٣٣
افريقيا	١٩٩٣	٢١٠٧	٢٥٠٤	٣٠٦٧	+ ١٠٧٤
مجموع الدول النامية	١٥٣٣٢	١٥٩٦٦	١٨٢٩٨	٢١٦١٦	+ ٦٢٨٤
الاتحاد السوفييتي واوروبا الشرقية	١١٤٢٤	١١٥٥١	١٢١٣٠	١٢٥٣٥	+ ١١١١
مجموع بقية العالم	٢٦٧٥٦	٢٧٥١٧	٣٠٤٢٨	٣٤١٥١	+ ٧٣٩٥

● تذكار من فلسطين



بقلم : يوسف الخطيب



لعل من أدل الشواهد إطلاقاً على الوحدة القطرية الراسخة للإقليمين الفلسطيني والأردني ـ منذ فجر التاريخ العربي الاسلامي على الأقل ـ أن مدينة طبرية التي نستذكرها الآن في عداد البلدانية الفلسطينية المحتلة ، لم تكن مجرد مدينة أردنية وحسب ، بل لقد اتخذت أيضاً في عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب عاصمة لإقليم الأردن بأكمله . فيما كان يدعى آنئذ بالمصطلح الجغرافي العربي القديم « جند الأردن » .. وقد كان هذا الجند يضم ـ إضافة إلى شمال شرق الأردن الحالي ـ شمالي فلسطين كله ، بما في ذلك بيسان ، والناصرة ، وصفد ، وعكا ، وحتى مدينة « صور » أيضاً من لبنان الحالي بحدوده الانتدابية الفرنسية ..

كل ما في الأمر أن « جند الأردن » كان مفروزاً عن « جند فلسطين » في تاريخنا الجغرافي العربي ، بخط عرض أفقي قد نتخيله وهو يصل « وادي سرحان » ، تقريباً ، بشاطىء المتوسط الفلسطيني ربما على مقربة من « حيفا » الحديثة نسبياً ، فأصبح في زماننا ، وبموجب تقسيمات اتفاقية « سايكس بيكو » الذميمة بوجه خاص ، مفروزاً بخط طول شاقولي ينحدر مع انهدام الغور من جنوب بحيرة طبرية ، حتى خليج أيلة ، أو العقبة ، سيان ..

* * *

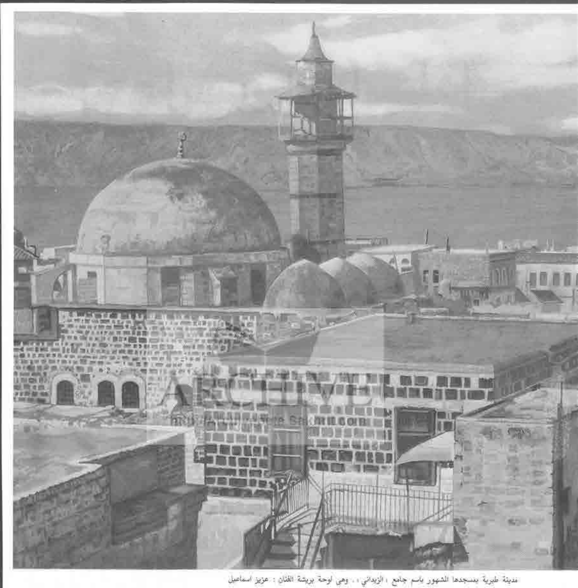
لم تكن طبرية إحدى المدن الرئيسية في فلسطين الانتدابية ، ونادراً ما كانت كذلك خلال القرون الثلاثة الأخيرة من العهد العثماني .. وأما فيما سبق ذلك من سفر التاريخ الاسلامي المجيد ، فيبدو لنا أنها كانت ذات شأن بلداني خطير ، بدلالة الحيز الهائل الذي شغلته من مصنفات المؤرخين والرحالة العرب القدامى ، على نحو قل أن نجد له نظيراً بالنسبة لكبريات المدن الفلسطينية المعاصرة .. فلقد أتى اليعقوبي على ذكرها اعتباراً من القرن الثالث الهجري .. وكذلك الأصطخري والمقدسي من القرن الرابع .. والبكري وناصر خسرو من القرن الخامس .. والادريسي وابن جبير والهروي من القرن السادس .. وياقوت الحموي وابن الأثير من القرن السابع .. والدمشقي والقزويني وصاحب المراصد وصاحب حماة وابن بطوطة من القرن الثامن .. والقلقشندي من القرن التاسع .. ومجير الدين الحنبلي من القرن العاشر ..

فهي عند اليعقوبي : « طبرية مدينة الأردن » .. وعند الاصطخري : « وأما الأردن فمدينتها الكبرى طبرية » .. وعند المقدسي : « وطبرية قصبة الأردن » .. وعند الادريسي : « طبرية مدينة الأردن الكبرى وهي قصبتها » .. ثم يبدو أن شأنها المركزي هذا قد أخذ يتضاءل تدريجياً بعد الحروب الصليبية حيث نرى صاحب المراصد وقد اكتفى باعتبارها مجرد « بلدة من أعمال الأردن » وتبعه الدمشقي فإذا هي « من عمل صفد » .. ذلك إلى أن زارها ابن بطوطة في أواخر القرن الثامن الهجري فألفاها أشبه ما تكون بمدينة أطلال : « ثم سافرت (من صيدا) إلى مدينة طبرية ، وكانت فيما مضى مدينة ضخمة ، ولم يبق منها إلا رسوم تنبىء عن ضخامتها وعظم شأنها » في سالف الأيام ..

من أوسمة الشرف التاريخية الرفيعة التي تتقلدها مدينة طبرية أن كان تحريرها العربي الاسلامي من نير الاحتلال البيزنطي على يد الصحابي الجليل شرحبيل بن حسنة سنة ١٣ هجرية .. وإذ كانت المدينة مركزاً لسك الدراهم الرومية فقد حولها خالد بن الوليد إلى سك الدراهم الاسلامية لأول مرة في بلاد الشام سنة ١٥ للهجرة ..

كذلك شهدت المدينة وبحيرتها موكب الفاتح العربي الفلسطيني العملاق موسى بن نصير ـ من جبل الخليل ـ إذ هو مقبل وطارق بن زياد على الوليد بن عبد الملك في عاصمة الخلافة دمشق سنة ٩٦ للهجرة .. « وكان يوماً مشهوداً من أيام النصر في تاريخ الاسلام ، إذ لم يسبق أن شوهد مثل هذا العدد من أمراء الغرب والأسرى الأوروبيين ذوي الشعور الصهباء ، وقد جاؤا يقدمون خضوعهم لأمير المؤمنين » (برواية العلامة الدباغ عن فيليب حتي) ..

على أن أكثر الصفحات إشراقاً في مجمل تاريخ طبرية هي معركة حطين الفاصلة التي حسمت إلى حد كبير موجة الطاعون الصليبية التي اجتاحت



مدينة طبرية بمسجدها الشهور باسم جامع «الزيداني»، وهي لوحة بريشة الفنان: عزيز اسماعيل

سواحل المشرق العربي .. وقرية حطين هذه، وتلالها التي شهدت أوار المعركة الظافرة، هي من ضواحي طبرية التي تبعد عنها أقل من عشرة كيلو مترات..

* * *

أخيراً.. سقطت مدينة طبرية بأيدي الغزاة الصهيونيين صبيحة يوم ١٩ نيسان عام ١٩٤٨، وحولوها منذ ذلك التاريخ إلى مدينة يهودية خالصة، لا أثر فيها لأي عربي على الإطلاق..

تظهر اللوحة المقابلة ــ بريشة الفنان عزيز إسماعيل ــ جامع طبرية المعروف «بالجامع الزيداني»، نسبة إلى قبيلة «الزيادنة» الحجازية التي هاجرت، في أواخر القرن العاشر الهجري على الأرجح، إلى الشمال السوري أولاً فاستوطنت ما بين إدلب ومعرة النعمان، ثم اتجهت إلى الجنوب الفلسطيني في جبل الخليل، ومن هذه القبيلة بزغ نجم «ظاهر العمر» الذي انطلق من مدينتي صفد، وطبريه ــ حيث بني مسجدها هذا ــ ليقود أول ثورة عربية هائجة ضد الحكم العثماني، استطاع من خلالها أن يستقل ردحاً من الزمن بكل من فلسطين، والأردن، ونصف لبنان الجنوبي حتى بيروت، ودخل دمشق بعد أن هزم حاميتها العثمانية، واتخذ من مدينة عكا، في أقصى شمال الساحل الفلسطيني، عاصمة لدولته العربية الفتية، إلى أن اغتيل في ظروف تاريخية غامضة سنة ١٧٨٢ للميلاد، فانتهت بذلك أسطورته البطولية التي شغلت البرالشامي بأكمله قرابة نصف قرن من الزمان..

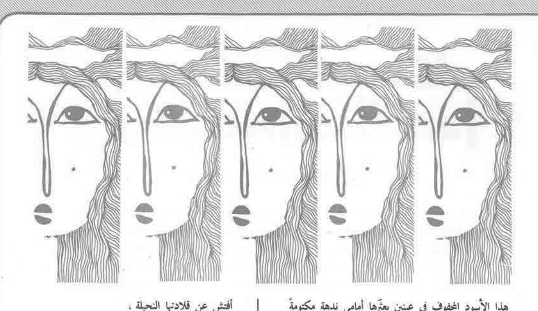
تجعل شريانها بلداً

(إلى سعاد الدجاني، الفلسطينية الحزينة)

شعر: حلمي سالم

تحاشتْ وردتي ،
وانسلَّ إصبعها إلى الأفق المُغيّم ،
كنت أرمقها وراء الراقصين تمد سماء عينيها
إلى قوسٍ يجاوزني ويطبق جمره في راحتيَّ ،
فأنتشي بالأسود المحفوف في عينين.
كان سؤالها فخاً لطير الروح :
« هل تأتي القصيدة بالأسى ؟ » .
هربتْ حروفُ إجابتي خلف المقاعد ،
قلتُ : رمحُ الشعر عكسُ القلب ،
والحزن اختباء من فضيحة وردتي .
هذي التي قَطعتْ مسافةَ كونها بثيابها الصيفية البيضاء ،
مَرّتْ كالربابة في حقول القمح ،
ميَّلَت النخيلَ إلى أناملها ، ودسَّتْ ظله بيديّ .
داريتُ انخطافي في الكئوس ، سألتُ في غيبوبتي :
« زهراتُكِ الزرقاء في عينيكِ للغُيّاب ؟ » .
قامت عن أريكتها الصغيرة نحو مدفأة الجدار
وأخرجتْ رسماً قديماً :
كان ساعات مفتتةً ،
تسيل على بلاط الروح ،
والعينان مثقلتان بالسفر.
استدارتْ وهي تهمس لي وللساعات :
« جرحُ الزهرة انفتحَ » ،
استدلّتْ بالأغاني الخافتات على المدينة ،
خلّصتْ أنفاسها من رملها المنثور في القمصانِ ،
قالت : « كنتَ محزوناً كأنك عاشق »
وبكتْ .
لماذا لم أُقَبِّلْ دمعها المحبوس ؟
خطوتُنا على صمت الطريق تشابهت والليل ،
حُلكةُ هذه الأشجار عرّتْ وجهها المأخوذَ ،
فانسابت على طرقاتها الجنيّةُ المدفونةُ ،
انحلّتْ أغانيها القليلةُ .
كنتُ أمشي حذوَ مهجتها ،
ولكني إختبأت ، كهِرّةِ عطشى ، وراء قصائد الشعراء ،
حتى لا أذيعَ جنون قلبي .
هذه الخطواتُ تكشف آهة الرئتين
إصبعها إلى الأفق المُغيّمِ ذاهبٌ ، لكن جمرتَها على كفيَّ .
« هل نمشي قليلا ؟ »
لم أبُحْ إلا بأن الليلَ حَفّاظُ السريرة ،
والطريق مجهَّزٌ للسائرين .

« يداكِ باردتان »
وانكفأتْ تُسِرُّ لآلة الطبع الحقائق ،
لم تراقبْ جمرها بيديَّ .
رقصتُنا الأخيرة طوّحت بالوردةِ ،
انفرطتْ على أقداح مائدة العشاء .
« الآن نَخبُ الزهرة الزرقاء »



هذا الأسود المحفوف في عينين بعثّرها أمامي ندهة مكتومةً
ومدىً مشعّاً من ضباب الخلقِ .
سرَّبتُ احتضاري في الحديث عن الطرازات العتيقة للبيوتِ
وعن مضامين التصوف . « هل سكرتَ » ؟ .
النايُ مفلوتٌ على أوراقها السرية .
انتبهتْ على نغمٍ يقول :
« لقاؤنا كان افتتاحا للوداع » .
ختمتُ كذبتي الأخيرة سابحاً في فخّها الخفيّ .
لم ألمسْ إلى شجر يرفُّ وراء أضلاعي ،
وقلتُ : البدرُ مكتملٌ ، وأمنية الغريبِ قريبةٌ .
أنهتْ تراجمَها ، وخشّتْ حلمَها المستوحشَ ،
المطرُ القليلُ يدبُّ فوقَ فؤادها المبلولِ ،
تركض باتجاه المنزل الرّحالِ ، تدخل ذاتَها وتقول :
« كنتُ اقرُّ مني »
ثم تسكن كاليمامة وهي تصنع قهوةً .
لو أنني كوَّمتُها بيديّ ،
لو أخفيتُها بالصدر مثل فراشةٍ بردانةٍ ،
لو شلتُ دمعتَها بعمري ،
هل أكون جرحتُ سُرَّةَ سرِّها المكنون ؟
هذا الدربُ يفتح بغتةً صندوقَ ذاكرتي ،
ويُدْني من دمي أسطورةً جرّاحةً ، ويغيبُ .
« هل تعبتْ خُطاكَ » ! .
الراقصون يخبئون فضاءها عني ،
أفتش عن قلادتها النحيلة ،
عن عيونٍ نبضها عصفورتان كسيرتان .
القلبُ قربَ القلبِ ،
أشهدُ لحنها يهوي إلى قاعي ،
فتُبعدُ نابَها عن وردتي ، وتقول :
« أعوامي ترفرف في شراع يس لي »
وتواصل الطقسَ .
استراحتْ برهةً من حزنها ،
واستأنفتْ عزفاً بعيداً بُعدَ نجمتها عن النجماتِ .
كنتُ أرمق مقلتيها وهي ترشف كأسها المنقوصَ ،
تضحك ملْءَ عينيها ، كأن لم تضحك العمرَ .
الخُطى شرختْ سكونَ القوس بين سمائها وثراي ،
كان القلبُ قربَ القلبِ ،
لكن الخرابَ الحلو بينهما يُراقص نفسَه ويطلُّ في ألقٍ .
وكنتُ كذوباً .
اختبأتْ حروفي ، هِرَّةٌ عطشى ، وراء قصائد الشعراء .
طائرةٌ تُقِلُّ الجسم .
أسألُ خافقي الساجي :
لماذا لم أقل لها
أنك تشبهين الشجرة التي ترف في قلبي ؟
لماذا لم آخذها في كفيّ
وأجري
إلى البحر؟]

ملتصقان معاً.. ومن المهد إلى اللحد!

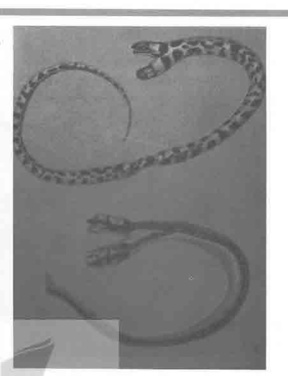
بقلم: الدكتور عبد المحسن صالح

ظل أحدهما ملازما للآخر كظله .. وهذا وصف حقيقي لا خيال فيه ولا مبالغة ، فقد نشآ في بطن أمهما ملتصقين ، ثم ولدا معا ملتصقين ، ورضعا وحبيا ومشيا ونميا وتزوجا معا ملتصقين ، وأنجبا ذرية كثيرة ، ثم ماتا أيضا ملتصقين ، لكن أحدهما توفى قبل الآخر بساعات ، ولهذا دفنا ملتصقين ، ولا شك أن مجرد التفكير في حياة تتم بتلك الصورة المثيرة ، قد تصيب النفس بالغثيـان والحيرة ، لكنها حالة واحدة من حالات غريبة على هذا الكوكب ، لتبين لنا كم في الحياة من عجائب تستحق أن تعرف ، وغ. رائب لزم أن تطرح .. وهذا ما سنتناوله في هذه الدراسة ، لتتضح لنا أمور ربما لم تخطر لأحد على بال !



شكل (١) توأما سيام الملتصقان شانج وانج اللذان عاشا في القرن الماضي حتى بلغا من العمر ٦٢ عاما . ويلاحظ الرباط النسيجي الممتد بينهما أسفل عظام صدريهما ؛ مما جعلهما أسيرين لبعضهما بداية من المهد حتى اللحد .

● التوائم الملتصقة في عصرنا الحاضر أسعد حظا ، لأن الجراحة المتطورة ساعدت على فك القيود الأبدية للتوأمين !





شكل (٢) حية جاءت بجسد واحد ورأسين مستقلين ، وفى أسفل الصورة تظهر الحية مصورة بالأشعة ، حيث تنقسم تفرع السلسلة الظهرية إلى سلسلتين تنتهى كل منهما برأس كامل

شكل (٣) صورة مكبرة لجنين سمكة السلمون ، وترى فيها رأسين مستقلين وجسدين ملتحمين لكنهما ينتهيان بذيل واحد. لاحظ مسار بداية السلسلة الظهرية فى كل توأم ، والتحامهما عند بداية الذيل

فى أثناء تكوين الأجنة فى بطون أمهاتها ، قد تحدث أمور فى غير صالحها ، فيؤدى ذلك إلى تشوهات خلقية تتخذ أنماطا شتى ، وعندما تولد ، فانها تولد غالبا ميتة ، أو تعيش لبضع ساعات أو أيام ، ولكن القليل منها قد يعمر لعشرات الأعوام ، وهنا تصبح من أغرب الحالات التى تعيش بين الناس ، فتجذب انتباههم ، وتثير فضولهم ، ولهذا فعلينا أن نختار واحدة من هذه الحالات المشهورة ممثلة فى التوأمين الملتصقين عند أسفل القفص الصدرى ، والمعروفين باسم توأمى سيام (شكل ١) ، نسبة إلى مملكة سيام (تايلاند الآن) التى شهدت ولادتهما فى عام ١٨١١ ، ثم نشأتهما حتى بلغا سن الشباب .

لقد جاء هذان التوأمان المعروفان باسم انج وشانج لأب صيني وأم سيامية ، وعندما وضعتهما ، خرج رأس كل منهما بين ساقى الآخر ، ولقد مات أبوهما وهما فى الثامنة ، ورعتهما أمهما حتى بلغا سن الشباب ، ورغم التصاقهما غير المريح ، الا أنهما كانا متفقين فى الصفات الوراثية ، ولا بد أن يكونا كذلك ، لأنهما نشأ من بويضة واحدة ملقحة ، ولقد عاشا حياة عادية ، وكان بمقدورهما أن يلعبا ويجريا ويقفزا ويعوما معا ، ولقد جذبا أنظار الناس بشقاوتهما ونشاطهما وخفة روحهما .. وعندما بلغا من العمر ١٨ عاما ، اتفقا على أن يهاجرا إلى أمريكا ، فربما تكون الفرصة أمامهما متاحة لحياة أفضل ، وهاجرا إليها ، حيث عرضا نفسيهما فى دور السيرك والمعارض التى تقام هناك ، واشتهر أمرهما ، وذاع صيتهما ، ولهذا دعتهما بعض دول أوربا لرؤية هذه الحالة الغريبة والفريدة من نوعها ، وذهبا إليها ، واستضافهما بعض الملوك والأمراء فى بلاطهم ليروهما رؤية العين ، ويتحدثوا إليهما ، وهما بالفعل يستحقان المشاهدة ، ولقد ظلا بذلك سعيدين ، حيث كانا يحصلان على مبالغ طائلة من المال أينما رحلا أو أقاما ، ولقد فضلا أن يطلق الناس عليهما اسم « الأخوان المتحدان » بدلا من اسميهما اللذين عرفا بهما .

ولقد قرر المتحدان أو الملتصقان أن يتزوجا ، وكان ذلك أخطر قرار فى حياتهما ، اذ أن ذلك أثار أسئلة رديئة فى أذهان الناس ، اذ كيف سيتم هذا الزواج وهما ملتصقان ؟ المهم أنهما تشجعا وتقدما للزواج من أختين من نورث كارولينا تدعيان سارة وآديليد بيتس ، ووافقتا على ذلك ، وتم الزواج بالفعل فى عام ١٨٤٣ ــ أى عندما بلغا من العمر ٣٢ عاما ، واستأجرا لذلك بيتين مقامين على مزرعة ، وبينهما مسافة تقدر بحوالى الميل ، وقررا أن يتبادلا زيارة زوجتيهما كل ثلاثة أيام ، ودون أن يخلا بهذا القرار مرة واحدة ، وكان كل منهما يدير شئون منزله بالطريقة التى يراها مناسبة لحياته ، ولقد كان زواجا خصيبا ، فأنجبا من زوجتيهما ٢٢ طفلا ــ عشرة أطفال لشانج وسارة ، و ١٢ طفلا لانج وآديليد !

ورغم أن هذين التوأمين الملتصقين كانا متشابهين ، الا أن ذلك لم يمنع ظهور بعض الاختلافات فى المرض والطباع ، فلقد كان شانج أكثر عصبية ، لكنه كان الأضعف فى تكوينه الجسمانى ، وكان يكثر الشرب ، فى حين أن انج كان بليد الحس ، ولا يقرب الخمر ، ولقد ساعدته بلادته فى تحمل شقيقه وصبره على تصرفاته الحمقاء أثناء فترات الشراب ، وكانا ــ بطبيعة الحال ــ يمرضان ككل الناس ، لكن المرض لا يصيبهما فى نفس الوقت .. وفى السنوات الخمس الأخيرة من حياتهما أصيب شانج بشلل فى نصفه الأيمن ، وكان على انج أن يتحمله طوال هذه الفترة فى تنقله وترحاله .

على أن أدق وصف جاء عن هذين التوأمين ، هو ما أورده العالم البيولوجى ايزودور جيوفروى الذى عاصرهما فى القرن التاسع عشر . وكان مما كتبه « عندما يكون هذان التوأمان هادئين أو مفعمين

ملتصقان معاً.. ومن المهد إلى اللحد

بالحيوية والنشاط ، كان تنفسهما ونبضات قلبيهما تسير على وتيرة واحدة ، لكن ذلك لم يكن كذلك فى كل الأحوال . فعندما ينحنى أحد التوأمين ليفحص آلية ساعة وهى تشتغل ، كان نبضه يرتفع ، فى حين أن نبض الآخر لا يطرأ عليه أى تغير يذكر .. ومع ذلك فقد كانا فى حالات الأنشطة الأخرى يتطابقان ، لكن ليس بالدرجة المذهلة التى ذكرتها الصحف الصادرة فى الولايات المتحدة ولندن وباريس لتجذب بها القراء ، وتثير فضولهم .. صحيح أن وقت النوم كان متوافقا بينهما ، وكذلك رياضة المشى ، والشعور بالجوع والسعادة والغضب والألم ، لكن ليس صحيحا أن هذه الأحاسيس كانت تحل بهما فى نفس اللحظة ، وبنفس الدرجة ، ولا كذلك كانا ينامان ويستيقظان معا فى وقت محدد بالدقيقة والثانية ، بحيث لم ير أحدهما الآخر مطلقا وهو نائم ــ كما تذكر الصحف ــ (وهذا صحيح لأن أحدهما مات بينما كان الآخر نائما) .

ويستطرد جيوفروى فيذكر : ولقد كان كل منهما يتحدث مع الناس دون أن يلقى بالا للآخر ، وقلما يتبادلان الحديث معا وهما يتحدثان مع الناس ، واذا حدث ذلك ، تفوها بكلمات قليلة مبهمة .. والمرة الوحيدة التى هاجا فيها وماجا سويا كانت عندما أخبرهما دكتور هاريس أنه سيجرى لهما عملية جراحية ليفصل أحدهما عن الآخر ! (ربما لعلمهما أن العملية قد تودى بحياتهما) .

وفى عام ١٨٧٤ مات التوأمان عن حوالى ٦٢ عاما ، لكن شانج هو الذى مات أولا من جراء جلطة أصابته بينما كان انج يغط فى نومه ، وعندما استيقظ ووجد أخاه ميتا ، مات بعده بثلاث ساعات ، ويقال إن موته بعد أخيه يرجع إلى صدمة عصبية أصابته نتيجة للرعب الفجائى الذى حل به عندما شعر بموت شانج الذى لازمه كظله من المهد إلى اللحد .

ولقد رفضت عائلتاهما أن يفصل الأطباء جسديهما ليستقر كل واحد فى تابوته ، ولهذا وضعا معا ، ودفنا معا ، لكن بعد أن سمح أفراد العائلتين بتشريح جسديهما بعد إلحاح من طبيبيهما دكتور هولينزويرث . ففى ذلك خدمة للعلم والطب . وكان هذا الطبيب قد أسر إليهم أنه فى حالة وفاة أحد التوأمين ، وبقاء الآخر على قيد الحياة ، أن يسارعا بابلاغه ذلك ، حتى ينقذ الحى من الميت ، ولقد حضر بالفعل من مسافة بعيدة ، لكن بعد فوات الأوان ، إذ لم تكن سبل المواصلات فى ذلك الوقت ميسرة كما هو الحال الآن ، فقد كانت عربات تجرها الجياد .

ولقد قام فريق من جراحي فيلادلفيا بعملية التشريح ، فوجدوا أن الرباط اللحمي كان يوصل بين صفاق هذا وذاك (أي الغشاء البريتوني المبطن للبطن من الداخل) ، ويعني ذلك أن التجويفين البطنيين كانا متصلين ، كذلك كانت الأوعية الدموية متصلة بين كبد شانج وكبد انج عن طريق هذا الرباط ، ويقال إن أمهما كانت تهدئ من غضب التوأمين وتضع حداً لشجارهما بربط الرباط الواصل بينهما بخيط غليظ ، وكأنما هي كانت تعتقد أن ذلك يحول بين سريان « دم الغضب » بين هذا وذاك ، ويقال إن هذه الطريقة قد أثبتت جدواها في تهدئة الصبيين ، ولا أحد يعرف تعليلاً مقنعاً لذلك ، وربما يكون نوعاً من الايحاء الذي يعتقد التوأمان في جدواه !



شكل (٤) : حالة توأمية غريبة ظهرت في موسكو عام ١٩٣٨ .. وهي ــ كما ترى ــ برأسين ورقبتين وأربعة أذرع وجذع واحد ينتهي بساقين ، وكأنهما واحدة في اثنتين !

حالات أخرى تتخذ أنماطاً شتى

ولقد كانت حالة توأمي سيام أشهر حالات التوائم الملتصقة على المستوى العام والخاص ، فما من توأمين جاءا بعد ذلك ملتصقين ، سواء في الحيوان أو الانسان ، إلا ويطلق العلماء عليهما اسم « توأمي سيام » Siamese Twins ، نسبة لهما ، هذا وتقدر الاحصائيات التي جمعت من القرن الماضي حتى وقتنا الحاضر أن عدد التوائم الملتصقة في الانسان قد بلغت حوالي الألف حالة ، كما تبين أيضاً أن من بين كل خمسين ألف حالة ولادة ، تأتي حالة واحدة بتوأمين ملتصقين ، لكن ليس حتماً أن يأتيا على غرار توأمي سيام ــ أي ملتصقين عند أسفل الصدر ، بل قد يتخذ الالتصاق أنماطاً شتى ، فقد يحدث بين العجزين ، أو بين الجبهتين ، أو بين قمتي الرأسين ، أو أسفل البطنين ، أو بين الصدرين أو الظهرين .. الخ .

هذا ، وخروج التوأمين المتماثلين إلى الحياة ملتصقين يرجع إلى أن البدايات الأولى من تكوين الأجنة قد فشلت في عملية الانفصال التامة ، فينتج عن ذلك التصاق مستديم بين أجزاء متشابهة في مناطق من جسميهما . وأغرب مثال لذلك حالة وحيدة لفراشتين جاءتا ملتصقتين عند الصدرين ، وقد سبق أن قدمناهما على صفحات هذه المجلة (في لقطات من الكون المثير) ، لكن مجيء التوائم الملتصقة في الحيوانات الثديية والطيور قد عرف من قديم الزمن ، فقد حدث ذلك في العجول والظباء والقطط والخنازير والحملان والأرانب البرية والحمام والبط والدجاج .. الخ ، وأيضاً في الأسماك والضفادع والحيات الخ (شكل ٢ ، ٣) .

ولقد وصف أرسطو حيات برأسين ، وجسد واحد ، وإن كانت هناك حالات جد نادرة لحيات برؤوس ثلاثة ، وكأنما ذلك يعيد إلى أذهاننا بعض الحيات الخرافية التي وردت في الأساطير ، كذلك يصف لنا فرانسيسكوريدي باسهاب حية غريبة عاشت برأسين لمدة ثلاثة أسابيع ، وكان لها في جسمها الملتصق قلبان وكبدان ومعدتان ..الخ ، والأغرب أن رأسها الذى إلى اليمين قد مات قبل الرأس الذى إلى اليسار بسبع ساعات ، وأحياناً قد تأتي الحية بذيلين منفصلين !

وفي عام ١٨٨٨ تحدث باربور عن سلحفاة كانت تعيش برأسين يبرزان من صدفة واحدة أي بجسم واحد مشترك ، ولقد كان كل رأس مستقلا

بنشاطه عن الآخر تماماً ، بمعنى أن كلا منهما كان ينظر وينصت ويأكل ويشرب ويتنفس ويتحرك ويفتح عينيه في الوقت الذي يكون فيه الرأس الآخر مغمض العينين ، أو أن يكون أحدهما بارزاً خارج الصدفة ، والآخر مستكين في داخلها ، أو قد يبرزان معا ، فتنثني رقبة هذا إلى اليمين لتأكل ، والأخرى إلى اليسار لتشرب . وكأنما يبدو للناظر إليهما أنه لا يجمع بينهما تآلف أو توافق . فلقد كان الرأس الأيمن أكثر تهيجاً وجبناً واندفاعاً للاختفاء من الرأس الأيسر !

من السلحفاة إلى البشر

وفي الكتب العلمية والطبية حالات كثيرة من التوائم الملتصقة ، ولن نتعرض لها هنا لضيق المجال ، لكن حالة السلحفاة ذات الرأسين والجسد الواحد ، تجرنا إلى الحديث عن حالة غريبة ظهرت بين البشر ، وبالتحديد عام ١٨٢٩ بفرنسا ، وتدعى حالة (ريتا ـــ كريستينا) ، ثم ظهرت حالة أخرى مماثلة في موسكو عام ١٩٣٨ وتدعى ايرا ـــ جاليا (شكل ٤) وعليك أن تقرر بنفسك إن كانت هذه المخلوقة واحدة أو اثنتين ؛ لأن الأمر يدعو حقاً إلى الحيرة . فهي برأسين مستقلين يشتركان في جسد واحد قمعي أو مخروطي الشكل .. هذا بالاضافة إلى ساقين وأربعة أذرع ، ولقد عاشت أو عاشتا (كما تحب في التعبير عنها أو عنهما) ثمانية شهور ونصف الشهر ، ووصف عالم التشريح الفرنسي سيريه حالة ريتا ـــ كريستينا في مرجعه « بحوث تشريحية في الشواذ » الذي ظهر عام ١٨٣٢ ، وقال عنها جيوفروي سانت هيلير « ما أعجبها من حالة تدعو للتأمل في هذا الكائن المزدوج الذي يتصرف بإرادتين وإحساسين مختلفين . فبينما يغط أحد الرأسين في نوم عميق ، تــرى الرأس الآخــر يصرخ من الجوع ، ثم يهدأ عندما يرضع ، أو قد يكون الرأسان مستيقظين . وعندئذ قد يبكي واحد ، ويتطلع الآخر إلى وجه أمه ويبتسم ، وعندما تدغدغ الأم ذراع إحداهما ، فان رد الفعل يظهر على هذا النصف دون النصف الآخر ، وإذا وخزت القدم اليسرى وخزاً خفيفاً بدبوس ، شعرت به ريتا وحدها ، لكنها لا تشعر بالوخز إذا حدث في القدم اليمنى ، بل تشعر به كريستينا ، والغريب أيضاً أن إحساسهما بالجوع ليس متزامناً ، لكن اخراج الفضلات الصلبة يتم دائما في نفس الوقت » !

وطبيعي أن تموت مثل هذه المواليد عند ولادتها ، أو بعد ذلك بشهور قليلة ، وحسناً أن يكون ذلك ، لأن استمرارها في الحياة يضعها ويضعنا في مآزق فكرية عويصة . لأن مجرد التفكير في انسان يعيش برأسين منفصلين ، وله عقلان وفكران وذاكرتان وإرادتان مختلفتان ، سوف يجعلنا نضرب أخماساً في أسداس ، لأن حياة بمثل هذا النمط الغريب لا يمكن أن يعقلها العقلاء ، ولهذا فان الموت هنا رحمة بها وبنا !

مثل هذه الفوضى التكوينية ليس لها بيننا مكان ، ولهذا تختصر الطريق بموت يريحها ويريح والديها ويريح البشرية كلها .. فهناك حالات أخرى كثيرة جاء ذكرها في مراجع علمية متعددة ، فعالم التشريح الفرنسي بافون قد ألف مجلداً أطلق عليه « التاريخ الطبيعي » وضمنه وصفاً دقيقاً لمثل هذه الشواذ من الوجهة الشكلية والتشريحية ، وكذلك فعل سانت هيلير وبارثولين ومونتين .. ولا زالت هذه الحالات تسجل حتى الآن كلما جاءت التوائم ملتصقة ، وتستوي في هذا إن ولدت حية أو ميتة ، فان ماتت ، تحفظ في متاحف التاريخ الطبيعي ، وإن عاشت ، تناولها العلماء بالفحص والدراسة .

لكن .. كيف نقول « وإن عاشت » ؟ .. فهل يمكن أن تعيش رغم أننا قد سلمنا بأن الموت هو المنقذ الوحيد لها ولنا ؟

الواقع أن مثل هذه التشوهات والالتصاقات درجات ، فما كان منها سطحياً ومحتملاً ، تحمله التوأمان وعاشا به ، وغير ذلك ففوضى لا تستقيم بها ومعها الحياة .



شكل (٥) كانتا ملتصقتين من جهة الأرداف ، لكن الجراحات الحديثة قد حررتهما من قيد أزلي كان من الممكن أن يجعلهما بالصورة التي نراها عليهما هنا !

توائم من نساء ملتصقات

وكما عاش التوأمان شانج وانج حياة شبه عادية ، وتزوجا فيها وأنجبا ، كذلك تحدثنا المراجع العلمية عن حالات من الإناث التوائم الملتصقات اللاتي عشن أيضاً حياة شبه عادية ، نظراً لأن الالتصاق بين التوأمين كان محتملاً .. ومن هذه التوائم حالة روزا ـــ جوزيفا بلازيك اللتين جاءتا ملتصقتين عند الأرداف .. ومن المثير حقاً أن نذكر أن واحدة منهما قد تزوجت من رجل ، ومنه قد أنجبت ، وبقيت الأخرى عذراء ، وقد يدفعنا مثل هذا الزواج لأن نضرب الأخماس في الأسداس ، فهو بلاشك ـــ يثير في أذهاننا أسئلة حرجة عن الكيفية التي تمت بها المعاشرة الزوجية بين اثنين في وجود ثالثة تلازمهما كظلهما ، لكن الشأن شأنهم ، والناس فيما يعشقون مذاهب !

وفي المجر ، وفي مدينة زوني تمت في مطلع القرن الثامن عشر ولادة التوأمتين الملتصقتين عند الأرداف أيضاً ، وتدعيان هيلينا ويوديث ، ولقد وصفهما بافون في مرجعه ، وذكر أنهما كانتا مختلفتين في المزاج وفي بعض الوظائف الفسيولوجية ، فلقد كان الطمث الشهري عندهما يحدث في أوقات مختلفة ، كذلك كان يختلف في شدته وفترته ، هذا رغم أن لهما عضواً تناسلياً مشتركاً ، لكن احساسهما بالتخلص من فضلاتهما الصلبة كان متزامناً ، ولم يكن كذلك في التبول ، كما أنهما كانتا تنامان في أوقات غير متزامنة ، فحيث تنام واحدة ، قد تبقى الأخرى مستيقظة ، ولقد توفيتا في ريعان الشباب عن ٢٢ عاماً ، ولم يتقدم لهذه أو تلك أحد للزواج !

وطبيعي أن ولادة التوائم الملتصقة ليس مقصوراً فقط على القرون الماضية ، لكنها تجيء نادرة في كل آن وحين ، ففي يناير عام ١٩٥٠ ولدت سيدة في الاتحاد السوفييتي توأمتين ملتصقتين أطلق عليهما اسم ماشا وداشا ، ولقد جاءتا برأسين وجسد واحد وأربعة أذرع ورجلين ، وماتتا بعد أيام من ولادتهما .

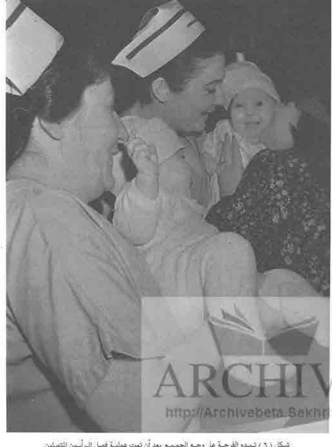
ملتصقان معاً.. ومن المهد إلى اللحد

الأمل في فصل ما اتصل

لكن مما لاشك فيه أن التوائم الملتصقة التي تولد في عصرنا الحاضر أسعد حظاً من التوائم التي ظهرت في القرون الماضية ، إذ أن التقدم الطبي في مجالات الجراحة المتطورة قد ساعد على فك القيود الأبدية التي كانت تلزم التوأمين بالحياة معاً ، والموت معاً كذلك !

صحيح أن عمليات الفصل الجراحي هي وليدة عصرنا الحاضر ، لكن هناك محاولة وحيدة قد تمت في القرن العاشر الميلادي بالقسطنطينية (استانبول) لتوأمين ملتصقين عند بطنيهما ، ولقد ولدا بأرمينيا ، وصحبهما بعض ذويهم وهما صبيان إلى القسطنطينية ، ليشدا انتباه الناس على أنهما من عجائب المخلوقات ، وبهذا يدران الشفقة والمال ، لكن الهيئة الحاكمة اعتبرت هذا التكوين البشري الغريب فألاً سيئاً ومن عمل الشيطان ، ولهذا أمرت بطردهما وترحيلهما من المدينة ، وبعد فترة من الزمن عادا اليها ، ولم يلبث أحد التوأمين أن مرض ثم مات ، وحاول جراحو المدينة أن ينقذوا التوأم الآخر (الذي كان لا يزال حياً) فقاموا باجراء عملية جراحية لفصل بطن الميت عن بطن الحي ، ودفن أولهما ، أما الآخر فقد عاش ثلاثة أيام ثم مات ، ولحق بأخيه .

هذا وتذكر المراجع الطبية الحديثة حالات توائم ملتصقة تم فصلها وتحريرها من قيودها ، وعلى شرط أن يكون الالتصاق فيها محتملاً ومحدوداً ، ومن هذه الحالات نذكر حالة طفلتين فرنسيتين ولدتا ملتصقتين عند الردفين ، وتم فصلهما في أحد مستشفيات باريس منذ أكثر من ٣٥ عاماً ، ولا زالتا تعيشان حتى الآن (شكل ٦) .. كذلك تم حديثاً فصل توأمتين ملتصقتين عند قمة رأسيهما ، وكانتا أيضاً فرنسيتين.



شكل (٦) تبدو الفرحة على وجه الجميع بعد أن تمت عملية فصل الرأسين المتصلين عند القمة لهاتين التوأمتين .. ولولا ذلك ، لكان من الصعب عليهما مواصلة الحياة

وفي مايو عام ١٩٥٣ تكررت بتايلاند حالة ولادة سيامية لطفلتين ملتصقتين من بطنيهما (شكل ٧) إحداهما تدعى بريسنا والأخرى نابيت ، وعندما بلغتا من العمر ١٧ شهراً نقلتا إلى مستشفى بيلنجز التابع لجامعة شيكاغو ، وقام الجراح الشهير ليستر دراجستيد وفريق معاون من الجراحين باجراء العملية ، وتبين أن هناك اتصالاً بين كبديهما ، كما أن قلب نابيت كان جهة اليمين ، وبريسنا إلى اليسار ، وكانت عملية جراحية صعبة ، لكنها نجحت ، واستمرت الطفلتان تحت الرعاية الطبية حوالي خمسين يوماً ، ثم عادتا إلى بانكوك عاصمة تايلاند ، وظلتا تحت الملاحظة في أحد مستشفيات الأطفال هناك ، وبعد أن اطمأن الأطباء على أن حالتهما طيبة ، خرجتا لتواصلا الحياة .

ويبدو أن تايلاند هي بلد العجائب ، ولو كان ذلك على مستوى ولادة التوائم ، إذ ظهرت فيها بعد ذلك أيضاً حالتان سياميتان ، وكانت كل حالة من طفلتين ، وكلاهما ملتصقتان خلف عظام الصدر ، وتم فصلهما بعد أشهر من الولادة بواسطة الجراح التايلاندي سيم نيتيا ومعاونوه في أحد مستشفيات بانكوك الجامعية ، وفي حالة منهما عاشت التوأمتان ، وفي الأخرى ماتت واحدة ، وواصلت الأخرى الحياة .

آفاق جديدة

لكن مما لاشك فيه أن التقدم العلمي والطبي قد فتح للانسان آفاقاً واسعة ليتعامل مع أمور الكون والحياة بعقل راجح ، وفكر واضح ، ثم هو يحاول أن يستفيد مما بين يديه ، ليطور الأمور لصالحه ، ويوجهها وجهة تعود عليه بالخير ، حتى ولو كان ذلك على مستوى توائم ملتصقة أو متحررة .

فلقد جرته معرفته بأصول الاخصاب ، ونشأة الأجنة ، وأسباب مجيء المواليد مثنى وثلاث ورباع ، وظهورها كتوائم متشابهة أو غير متشابهة .. مستقلة أو متصلة ، ثم تحرير ما اتصل بعمليات جراحية .. كل هذا وغيره قد مد له السبيل لارتياد ميدان آخر يبشر بآمال عريضة في الاكثار من التوائم المتشابهة .. ليس على مستوى البشر ، لكن في عالم البقر .. فحاجة الانسان إلى سلالات ممتازة من الثروة الحيوانية ، قد دعته إلى التدخل الجراحي الدقيق على بدايات الأجنة ، أي عندما تكون البويضة الملقحة قد انقسمت إلى عدد قليل من الخلايا المتشابهة تماماً (أي قبل مرحلة

تمييزها إلى خلايا متخصصة) .. ومن الممكن الآن ــ وكما هو معروف ــ أن يتم الإخصاب بين خلايا جنسية من سلالة حيوانية في الأنابيب والأطباق ، ويمكن أيضاً أن تنقسم البويضة المخصبة إلى خلايا متماسكة ، ثم تنقل إلى رحم أنثى الحيوان ، لتواصل نموها .

لكن طرأ على عقل بعض العلماء فكرة وتساؤل : إذا كانت الحياة ذاتها هي مصدر التوائم المتماثلة تماماً ، فلماذا لا نقلدها في الأطباق ، ونشق كتلة الخلايا (أي البداية الجنينية) إلى شقين بعملية جراحية دقيقة تحت عدسات الميكروسكوب (شكل ٨) ، ثم نزرع كل نصف في بقرة . لعل هذا النصف وذاك يتمخضان عن توأمين متماثلين تماماً ، وبهذا نحصل على اثنين من واحد ؟ !

جرب .. لتتعلم وتعرف ، لأن التجربة العلمية هي الحد الفاصل بين الغث والسمين ، وقد كان ، والذي كان ، تستطيع أن ترى باكورته في شكل (٨) أيضاً .. فهذان الثوران التوأمان المتشابهان تماماً ، قد جاءا نتيجة لتدخل الانسان ، وقيامه بالسيطرة على انتاجهما بشق كتلة الخلايا التي تراها في أعلى الصورة .. أما الجهازان المثبتان فوق ظهري الثورين فمهمتهما دراسة فسيولوجية التوأمين ، لجمع مزيد من المعلومات ، لكشف المزيد من الأسرار ، وبها تتطور المفاهيم ، وتتسع آفاق العقل البشري .

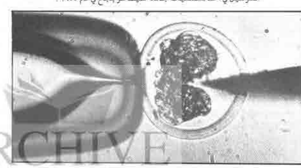
ولكن مما لاشك فيه أن البحوث العلمية تبدأ بسيطة ، ثم تتطور إلى الأرقى والأكفأ ، لتحقق أهدافا لم تكن لتطرأ لأحد على بال .. إذ ما يدرينا مثلاً أن الواحد قد يصبح عشرة أو عشرين أو أكثر .. يعني أن بداية الجنين الواحد من السلالة الحيوانية الممتازة قد يمكن تفصيصها إلى عشرات الخلايا ، لتتحول كل خلية إلى توأم ممتاز له كل الصفات الحسنة التي تحملها التوائم الأخرى ، وبهذا يمكن الحصول على ثروة حيوانية ممتازة تجود علينا باللحم الكثير ، واللبن الوفير ، والصوف الغزير ، والبيض الكبير ، والزبد الذي يسر الناظرين ؟ .. إن هذا ليس بالأمر العسير ، فأول الغيث قطرة ، وإن غداً لناظره قريب .

وأخيراً .. فلقد كانت المجتمعات البدائية القديمة تعتبر التوائم الملتصقة نذير نحس وشؤم ، ثم يجيء الطب الجراحي الحديث ليخلص أمثال هذه التوائم من قيودها التي ولدت بها ، وأخيراً يضع العلم التجريبي كل امكاناته ليجري جراحات دقيقة على بدايات الأجنة ، فيفصصها إلى أجزاء خلوية ، ليصير كل جزء توأماً ، بغرض الاكثار من التوائم الممتازة ، لتساهم في ازدهار الثروة الحيوانية ، علها تسد جزءاً من حاجة البطون الجائعة ، وهذا ــ في حد ذاته ــ هدف عظيم يسعى العلماء إلى تحقيقه ، ولكل ما سعى ، فخير الناس ، أنفعهم للناس .. عملاً لا كلاماً ، وتطبيقاً لا شعاراً .

عبدالمحسن صالح



شكل (٧) حالة توأمية من تايلاند ملتصقة عند البطن ، وتم فصل التوأمين في أحد مستشفيات جامعة شيكاغو بنجاح في عام ١٩٥٥ .





شكل (٨) ١و٢ .. وهو ماتراه في تلك الصورة . إذ يمكن اجراء عملية جراحية دقيقة تحت عدسات الميكروسكوب لفصل هذه الكتلة الخلوية لبداية جنين بقرة في طبق ، ثم ينقل كل نصف إلى رحم بقرة مستعدة لذلك ، ليصبح الواحد اثنين أي توأمين متماثلين تماماً .. هما الثوران .

في هذه الحلقة الجديدة يواصل الكاتب الكبير الدكتور يحيى الجمل رواية « قصة حياة عادية » بعد ما قدمه في الفصول الثلاثة السابقة من حديث ممتع عن حياة القرية والمدينة الصغيرة في الثلاثينيات



مرحلة خصبة وقلقة



بقلم : الدكتور يحيى الجمل

كانت مدرسة شبرا الثانوية تتمتع بين مدارس القاهرة بشهرة خاصة . ولم تكن شهرة طيبة على أي حال . اشتهرت تلك المدرسة إبان الحرب العالمية الثانية بأنها تضم عدداً من الطلاب الذين تكررت مرات رسوبهم . والذين اشتهروا بالعنف عند قيام المظاهرات . والذين فضلاً عن ذلك كله يسيئون إلى أساتذتهم على عكس ماكان شائعاً في تلك الأيام من احترام الأساتذة احتراماً مبالغاً فيه أحياناً إن جاز أن يصل احترام الأستاذ إلى حد المبالغة في أي وقت من الأوقات .

كذلك فقد كانت شبرا الثانوية تضم قسماً داخلياً يأوي اليه بعض الطلاب ويتخذون منه سكناً . وكان أغلب طلاب هذا القسم من الطلبة السودانيين بل يبدو أن القسم الداخلي في تلك المدرسة كان واحدا من الاقسام الداخلية المخصصة للطلبة السودانيين الذين يتلقون العلم في القاهرة .

ويبدو أن سمعة المدرسة وعنف الطلاب وحدة ماكانوا يقومون به من اضرابات لسبب ولغير سبب جعلت سلطات الدولة تفكر جدياً في أن تفرض على تلك المدرسة المشاغبة نوعاً من الحزم الحازم والضبط الشديد . وكانت وسيلة الدولة إلى ذلك هي أن يقذفوا تلك المدرسة بواحد من أشد نظار المدارس بأساً وأكثرهم حزماً وقسوة .

وعندما قدر لفتانا أن يبدأ دراسته الثانوية في تلك المدرسة كان ذلك الناظر الحازم قد أخمد جذوتها وفل حدتها وجعلها من أكثر مدارس القاهرة انتظاماً و « أدباً » وكانت الكثرة من أولياء الأمور يفضلونها على « التوفيقية » رغم سمعتها التاريخية . أما مدرسة « الأمير فاروق الثانوية » فكان ينظر اليها من الجميع على أنها من مدارس الدرجة الثانية .

وهكذا دخل صاحبنا المدرسة الثانوية وبدأت مرحلة جديدة من حياته . مرحلة خصبة وقلقة في آن معاً . بدأ يحس أنه لم يعد ذلك التلميذ الصغير ، وإنما هو الآن شاب أو مايشبه أن يكون شاباً . وبدأ يتفتح للحياة ويتطلع اليها ويريد أن يعرف أكثر وأن يعيش أكثر . وبدأت أجواء الاهتمامات السياسية تقترب منه ويقترب منها . بدأت حياته تتشكل من جديد على نحو مختلف عما كانت عليه . ساعد في ذلك نضجه من ناحية العمر ودخوله المدرسة الثانوية وانتقاله إلى القاهرة ، تلك المدينة الكبيرة الساحرة الصاخبة في آن واحد .

وتطلع أول ماتطلع إلى أن يلبس « بنطلون طويل » بدل ذلك البنطلون القصير الذي كان يلبسه في المدرسة الابتدائية . وأنه ليذكر ذلك اليوم الذي ذهب فيه مع والده إلى محلات « عمر أفندي » في قلب القاهرة ليشتري تلك « البدلة » ذات اللون الكحلي التي كان كل من يراها من أقارب الفتى يثني عليها وعليه فيها ثناءاً مستطاباً .وكان الفتى يسر لذلك سروراً شديداً .

ومازال حتى يومنا هذا يحب عندما يلبس شيئاً جديداً أن يسمع رضاً عليه أو ثناءاً ممن حوله . ماأعجب تلك النفس البشرية إنها لتبلغ في بعض جوانبها قمة النضج ولتظل في جوانب أخرى تلازم عمر الطفولة لاتكاد تتجاوزه .

وكان يقطع الطريق من حيث تقيم العائلة إلى المدرسة سيراً على الأقدام . كان يسير أغلب الطريق في شارع شبرا قادماً من ناحية الحدائق ماراً بالدوران إلى أن يصل إلى شارع طوسون فيدخل فيه إلى أن يصل إلى المدرسة . وكانت المدرسة تحتل قصراً منيفاً من قصور الأمير عمر طوسون . وكانت تحيط به حدائق واسعة بها أشجار عتيقة ضخمة . وكانت تلك الأشجار الباسقة تحيط بالمدرسة من جوانبها ثلاثة أما الجانب الرابع فكان شارعاً عمومياً . وكان القصر القديم هو المبنى الرئيسي للمدرسة . وحول القصر كانت توجد الملاعب المختلفة . ملعب كرة القدم وملعب كرة السلة وملاعب التنس . وفي أقصى أطراف الأفنية الواسعة المتعددة بنيت بعض الفصول . وكان الفصل الذي ألحق به صاحبنا واحداً من تلك الفصول التي ابتنيت على حدود الفناء الذي يصل اليه الداخل أول مايدخل من باب القصر الضخم الذي يشبه أبواب قصور القرون الوسطى التي نراها أحياناً في الأفلام التاريخية .

كان ذلك الباب السامق الارتفاع لا تصل إليه الا بعد أن تمر في شارع تحيط به الأشجار الضخمة الكثيفة من كل جانب وتلقي في النفس قبل الوصول اليه نوعاً من الرهبة والاكبار والتهيؤ في آن معاً .

ويبدو أن الأمير عمر طوسون كان واحداً من القلائل المثقفين في أسرة محمد علي . . . وكان أيضاً فيما يبدو واحداً من القليلين جدا في مثل هذه البيوتات الذين يدركون حركة التاريخ واتجاهه . وقد تبرع عمر طوسون بهذا القصر لوزارة المعارف لكي تقيم عليه تلك المدرسة الثانوية ومع ذلك فإن المدرسة لم يطلق عليها اسمه وانما أطلق عليها اسم الحي الذي أقيمت فيه . وقد يكون مرجع ذلك أن الأمير عمر طوسون لم يكن على علاقة طيبة بالملك فؤاد الذي تم في عهده اهداء القصر .

وكان المبنى الرئيسي للقصر ضخماًفخماًمازال يحتفظ بكثير من رونقه وعظمته وفخامته . كنت تصعد عدة درجات قبل أن تدخل إلى تلك الردهة البالغة الاتساع الشاهقة الارتفاع المزينة الجدران .

ويذكر الفتى أنه بعد أن تدخل إلى تلك الردهة الضخمة فانك كنت تجد على يسارك مباشرة مرآة ضخمة جميلة إلى جوارها يقع باب حجرة الناظر ويجلس أمام تلك الحجرة عم « نور » وهو « فراش » سوداني طويل القامة مشوق القوام جميل التقاطيع وقد كان عم « نور » في نظر تلاميذ المدرسة أقرب الناس إلى ناظرها الرهيب . ولكن عم « نور » على عكس الناظر كان قريباً أيضاً من نفوس الطلاب وكان لايرى إلا مبتسماً .

وقد قدر لفتانا أن يدخل إلى حجرة الناظر بعد أقل من شهر من التحاقه بالمدرسة . وكان الدخول إلى تلك الحجرة أمراً يحسب له الطلاب كل حساب . كان الرجل – ناظر المدرسة – قصيراً أميل إلى النحافة لاترى وجهه إلا صارماً أقرب إلى أن يكون عابساً . وكان يلبس نظارة سميكة الزجاج تبدو من ورائها عينان ضيقتان حادتان . وكان ذلك الرجل رغم قصره يبدو قوي الشخصية ثابت الجنان لا يهتز أمام شئ قط مما يتصور الطلاب أنه يهز الجبال . هكذا كانت صورته في نظر طلابه وهكذا ساعدته تلك الصورة في السيطرة الكاملة على المدرسة وبث الرعب في نفوس أولئك النفر من التلاميذ الذين كانوا مصدراً لكل الشغب وكل العبث الذي اشتهرت به مدرسة شبرا الثانوية في الماضي وقبل أن يأتيها ذلك الناظر .

أما كيف قدر لصاحبنا أن يرى ذلك الناظر ويتحدث إليه فقد كان لذلك قصة . كان الفتى في السنة الأولى الثانوية الفصل الثاني . ويبدو أن أوائل الطلبة المقبولين في السنة الأولى وزعوا حسب أعمارهم – إلى فصلين وكان هو في سنة « أولى ثاني » وكان أستاذ الانجليزي الذي يعلم طلاب ذلك الفصل رجلاً رياضياً مختالاً فخوراً تكاد الأرض لاتسعه وهو يسير فوقها . وكانت ربطة عنقه متميزة بحجمها الضخم وكان عادة يلبس الجاكته والبنطلون من لونين مختلفين . وكان ذلك الأستاذ – على الرغم ماأشيع عن علمه ودراسته في انجلترا – غير قادر على أن يصل بعلمه إلى طلابه أوهكذا كان إحساسنا . لم نكن نفهم منه على النحو

الذي نتوقع أو نريد . ولما كان طلاب الفصل جميعاً من أوائل الشهادة الابتدائية ومن أصحاب المجاميع العالية فلم يكن من السهل أن ينسب اليهم الكسل أو الغباء ولم يكن من السهل على هؤلاء الطلاب أنفسهم أن يقتنعوا بشئ من ذلك ولم يكن أمامهم من حل — في تقديرهم غير أن يطلبوا تغيير ذلك المدرس . واتفقوا على أن يختاروا واحداً أواثنين منهم لمقابلة « المشرف » وعرض الأمر عليه . وكان صاحبنا هو الذي وقع عليه اختيار زملائه لحمل تلك الرسالة . وكان هو واحداً من المتحمسين لضرورة تغيير ذلك الاستاذ . وذهب إلى المشرف وطلب مقابلته وشرح له ماكلفه به زملاؤه . واستمع إليه المشرف غير ضجر ولكن في غير حماس . ولم يبد عليه أنه اقتنع بهذا الكلام ولكنه وعد أنه سينقله إلى ناظر المدرسة .

ومضى على مقابلته للمشرف يوم أو يومان عندما جاءه استدعاء ليقابل « حضرة الناظر » بين حصتين من حصص النهار .

وذهب وجلاً لايعرف ماذا ينتظره . وكان وجيب قلبه يرتفع كلما اقترب من حجرة ذلك الرجل الذي ذهب خيال التلاميذ في رسم صورته مذهباً فاق كل تصور .

ووقف على باب الحجرة فترة . ودخل « عم نور » ليخبر الناظر أن التلميذ المستدعي قد حضر . وخرج عم نور ولكن صاحبنا لم يؤذن له بالدخول . وبعد فترة كانت من أطول الفترات عليه وأقساها أذن له بالدخول . وكانت الحجرة واسعة جداً . الحجرة الرئيسية في قصر كبير . واضطربت خطوات صاحبنا وهو يسير من الباب متجهاً إلى نهاية الحجرة حيث مكتب الناظر . وكان هناك بعض الأساتذة وبعض الزائرين ممن لايعرفهم . وكان الناظر مشغولاً مع بعض الإداريين في المدرسة . وكادر تعليماته حادة صارمة لاتحتمل الأخذ والرد . وكان الموظفون لايكادون ينبسون ببنت شفه . كان المدرسون الأوائل هم وحدهم الذين يجلسون عندما يدخلون تلك الحجرة وكذلك الزائرون بطبيعة الحال . أما غير هؤلاء فما كان يجوز لهم غير الوقوف .

واقترب فتانا من منتصف الحجرة ثم وقف حائراً لا يعرف ماذا يفعل . ومضت برهة من الزمن كأنها دهر ورفع الناظر رأسه عن الأوراق التي أمامه ونظر إلى فتانا نظرة رهيبة ثم استدعاه ليقترب بصوت حاد غاضب . واقترب الفتى خائفاً يترقب .

وسأله الناظر عما يريد وهم بالحديث عن أن طلبة الفصل لايفهمون كما ينبغي لهم أن يفهموا عن أستاذ اللغة الإنجليزية . ولم يكد يكمل عبارته حتى انهالت عليه ألفاظ التقريع والتوبيخ والاتهام بالجهل وقلة التربية وعدم الإدراك السليم . وجزم الناظر بأن هذا الأستاذ وأن كل أساتذة المدرسة هم من خيرة الأساتذة في المدارس الثانوية جميعاً وأنه انتقاهم بنفسه وأنه لا يقبل من مجموعة من التلاميذ الجهلة الأغبياء أن يقيموا من أنفسهم حكماً على الأساتذة . وحذر صاحبنا من العودة إلى مثل ذلك في المستقبل وإلا حل عليه أشد العقاب . وبعد ذلك صرفه صرفاً غير كريم ليعود إلى فصله كاسف البال مكسور الخاطر فقد كان يظن في لحظة من اللحظات أنه قادراً على اقناع ذلك الناظر الرهيب .

وعلى أي حال فان التلاميذ لم يصدقوا أن الناظر لم يودعه « بقلم » من تلك « الاقلام » المدوية التي كان يصفع بها وجوه الطلاب خاصة من كان منهم يتصور أن له وضعاً أوأنه يتمتع بين زملائه بقدر من النفوذ . ولكن الذي حدث أن الناظر لم يضربه فعلاً وإن كان قد نهره لينصرف ونهاه عن العودة لمثل هذا التصرف وأنذره إنذاراً شديداً .

ويبدو أن أستاذ اللغة الإنجليزية قد علم بما حدث من الطلاب . ويبدو أنه قد علم أيضاً أن صاحبنا هو الذي ذهب نيابة عن زملائه إلى المشرف ثم إلى الناظر . ويبدو أنه عرف ولكنه لم يقل شيئاً صريحاً ينبئ عن معرفته . ولكن سلوكه كله ونظراته كلها نحو فتانا كانت تقطع بأنه بكل ماقد حدث عليم . وكان الرجل كريماً فلم يدفعه ذلك إلى اضطهاد الفتى أو النيل منه بل عكس ذلك هو ماحدث فقد أحس الفتى أن الاستاذ يعطيه اهتماماً قد يكون أكثر من غيره — أو هكذا كان إحساسه — وكان يدعوه إلى الاجابة وإلى المناقشة وإلى القراءة وكان الفتى سعيداً بذلك كل السعادة مرحباً به كل الترحيب . وبدأ وجله وتهيبه وبعده النفسي عن ذلك الاستاذ يذوب قليلاً قليلاً حتى لم يعد منه شئ في نفسه .

وكم كانت سعادة فتانا غامرة عندما دعاه استاذه ذلك لحضور محاضرة كان سيلقيها في جمعية الشبان المسيحية . وكان هذا أول عهده بدخول تلك الجمعية ولكنه لم يكن آخر العهد بها .

وكان الفتى معجباً الاعجاب كله بأستاذ اللغة العربية « الأستاذ علي فريج مهنا رحمه الله » الذي كان إلى جوار كونه أستاذاًقديراً شاعراً وحافظاً ومتعصباً أشد التعصب لشعر أحمد شوقي .وكان فتانا — على صغر سنه — ورغم أنه حفظ كثيراً من شعر شوقي وحفظ أغلب « مجنون ليلى » وأغلب « كليوباترا » — كان فتانا يريد أن يبدو وكأنه من أنصار حافظ ابراهيم وليس من شيعة شوقي . كان إحساسه منذ البداية قوياً في التعاطف مع المظلومين أومن يحس أنهم من المظلومين .

وكان لأستاذ اللغة العربية شقيق في كلية اللغة العربية بالأزهر وكان شقيقه ذلك زميلاً وصديقاً « لأمين » وكان أمين سعيداً بما يسمع عن ذلك الفتى الذي يحس أنه شارك في تنمية ملكاته الأدبية وحبه للقراءة والاطلاع .

وفي يوم من الأيام طلب الأستاذ من تلاميذه كتابة موضوع للانشاء في قضية معينة لايذكرها الفتى فقد مضى على ذلك أكثر من أربعين عاماً — الآن — وأذكر أنه كان موضوعاً سترصد درجته في واحدة من تلك الاختبارات التي كانت تجرى للطلاب على فترات أثناء العام . ولم يكن مفروضاً أن يسلم الطلاب موضوعات الإنشاء في نفس اليوم ولكن ضرب لهم أستاذهم موعداً . وفي الموعد المحدد قدم صاحبنا إلى أستاذه الموضوع . ومرت أيام . وجاء الأستاذ ومعه الأوراق .ووضعها أمامه ثم انتظر قليلاً — كعادته — وبدأ بعد ذلك الحديث فاذا به يثني ثناءً غير عادي على ماكتبه الفتى وإذا به يسلمه ورقته ويطلب منه أن يقرأ ماكتبه على زملائه . وكان الاستاذ قد أعطاه تسعة عشر درجة من عشرين .

وبعد أن انتهى الفتى من قراءة موضوعه أعاد الاستاذ ابداء استحسانه ثم ختم تعليقه بكلمة لم يدرك الفتى معناها أول الأمر ولكنه أدرك ذلك المعنى بآخره . قال له أستاذه ليتك لا تستعين بأحد وانما تعتمد على نفسك اعتماداً كاملاً . ولعل إدراكه وثقته أنه لم يستعن بأحد وأن الموضوع كله من إنشائه جعله لايلتفت إلى مايقصده الأستاذ .

وكان فتانا يذهب في كل يوم جمعة إلى دار الكتب في باب الخلق يعيد بعض الكتب ويستعير غيرها وكان ابن عمه أمين يسكن قريباً من دار الكتب في شارع محمد علي في عقار مملوك للأزهر كان طلاب الأزهر يطلقون عليه اسم « السراي » — وماكان له من اسمه أدنى نصيب — وكان الفتى بعد أن يفرغ من دار الكتب يذهب عادة لزيارة أمين .

وفي يوم من الأيام لقيه ابن عمه ذلك الكبير الذي كان يوشك أن ينتهي من دراسته الجامعية بحفاوة بالغة وترحاب غير عادي ثم أعطاه كتاباً اسمه « من عيون القصص الغربي » من منشورات لجنة التأليف والترجمة والنشر وكتب له على الكتاب بعض عبارات الاهداء والاطراء والتشجيع . وسر الفتى بالكتاب أيما سرور ولكن وجهه كان يعكس تساؤلاً من غير ريب عن مناسبة ذلك الاحتفاء وذلك الاهداء . وأدرك أمين ماعلى وجه الفتى من تساؤل . وضحك — وقلما كان يضحك رحمه الله — وقال للفتى لماذا لم تقل للاستاذ أنني أنا الذي كتبت لك موضوع الانشاء « تخيل أن الرجل لم يصدق أنك وأنت في السنة الأولى الثانوية تستطيع أن تكتب بهذا الأسلوب وذهب ظنه أنني ساعدتك في الكتابة وأسر بذلك إلى أخيه لكي يطلب مني أن لاأفعل مثل ذلك مرة ثانية وكانت دهشة الاستاذ ودهشة أخيه بالغة عندما علما أنني لم أسمع من قبل عن هذا الموضوع كله وأن الأمر كله يرجع اليك وحدك .

وكان « أمين » سعيداً بحق .

أما الفتى فلاتسأل عن شعوره .

لقد كان عيداً بالنسبة له .

وما أكثر ماقتني من كتب وما أكثر مافقد منها . ومع ذلك كله ورغم مضي أكثر من أربعين عاماً حتى الآن على تلك الواقعة فمازال يحتفظ بذلك الكتاب الذي أهداه إليه « أمين » بهذه المناسبة التي مازال الفتى يذكرها بغير قليل من الرضا والسرور .

« إلى اللقاء في العدد القادم »

فـاروق اباظـة

قناة السويس
بين الألغام البحريّة وأزمة أسعار البترول!



كان إغلاق القناة في عام ١٩٧٣ سبباً في فقدان العالم ١٧٠٠ مليون دولار في كل عام

قناة السويس التي يمتد عمرها لأكثر من مائة عام.

● ماذا تعني القناة بالنسبة لتجارة الصادر والوارد في دول الخليج العربي؟

● عندما تعرّض نابليون للغرق في المستنقعات وهو يعاين بقايا برزخ السويس!

تفردت قناة السويس بين الأمكنة بصياغتها لملحمة استغرقت أحداثها مساحة زمنية طويلة فى التاريخ المعاصر ، فعندما شقتها السواعد العربية امتزج ترابها بدم ربع مليون من الضحايا ، وأصبحت بعد حفرها ليست مجرد مجرى للمياه يحمل السفن العابرة من الغرب إلى الشرق ، وإنما تركز حولها جشع وطموحات وأطماع المستعمر ..

إن قناة السويس تمثل أهمية خاصة لدول مجلس التعاون الخليجى فهى تحمل ثلث تجارة هذه الدول فى رحلة ذهاب ناقلات النفط إلى أوروبا وعودة الحاويات محملة بالسلع والبضائع ..

وطوال عمر القناة الذى يمتد إلى أكثر من مائة عام تأثرت بالأحداث السياسية والإقتصادية وأثرت فيها وكانت مياهها مؤشرا صادقا لهذه الأحداث ..

وعندما أغلقت عام ١٩٧٣ خسر العالم ١٧٠٠ مليون دولار عن كل سنة تعطلت فيها عن العمل وتجمدت أطراف القارة الأوروبية واستخدم أهلها الخيول والدراجات بدلاً من السيارات والحافلات ..

منذ فجر التاريخ والمحاولات لم تنقطع لإستغلال الموقع الفريد لمصر كركيزة إتصال بين الشرق والغرب ، وذلك بشق قناة تصل بين كل من البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر ، وكان أول من فكر فى هذا المشروع الملك المصرى « سنوسرت الثالث » ، وطوال وقوع مصر تحت طائلة الإحتلال الفارسى والرومانى إستمرت هذه المحاولة ، فالتاريخ القديم يؤكد أن العالم إعتمد على مصر فى نقل تجارته باعتبارها شريان الإتصال بين قارات الدنيا ، وعندما قام الرحالة البرتغالى « فاسكو دى جاما » ، بالالتفاف حول رأس الرجاء الصالح واكتشف الطريق الجديد المؤدى إلى الهند تبين التكاليف الباهظة لإستخدامه ، وعاد ليفكر مرة أخرى فى ضرورة شق برزخ السويس ، واستمرت المحاولات حتى قام المهندسون الفرنسيون الذين صاحبوا نابليون فى حملته إلى الشرق بدراسة المشروع ، وانتقل نابليون بنفسه إلى موقع الدراسة ، وكاد أن يغرق فى المستنقع الواقع فى الجهة الشمالية الشرقية من مدينة السويس وهو عائد من عيون موسى ، وكلف مهندس الحملة جاك لوبير برسم خريطة مفصلة للبرزخ القديم.

ولم تنج القناة من إستخدامها كوسيلة للتعصب الصليبى الذى بدأ يعود إلى أوروبا خلال القرن التاسع عشر ، وذلك من خلال جماعة « سان سيمون » الفرنسية التى كان يرأسها قسيس يدعى (أنفنتان) فقد زار هذا القسيس الفرنسى مصر على رأس بعثة أقامت فى مصر أربع سنوات كاملة وأعدت مشروعا لشق قناة مستقيمة بين البحرين الأبيض والأحمر ، وقد كتب هذا القسيس رسالة

التفريعات الجديدة فى القناة التى جعلت حركة الناقلات تنساب بسهولة بين الاتجاهين

قناة السويس بين الألغام البحرية وأزمة أسعار البترول!

لأحد أصدقائه قال فيها « إن علينا أن نضع أحد قدمينا على نهر النيل والأخرى فى بيت المقدس وتصل يدنا اليمنى إلى مكة فنلمس باليد الأخرى روما متكئة فوق باريس .. ولكن يبدو أن القس « أنفنتان » فشل فى إقناع الوالى المصرى محمد على باشا بالمشروع ..

وبعد موت محمد على يظهر على مسرح الأحداث دبلوماسى فرنسى مغمور هو « فردينان ديلسبس » وكان والده ماثيوديلسبس قد خدم فى السلك القنصلى فى مصر إبان حكم محمد على ولقد أجمعت كتب التاريخ على أن فردينان ديلسبس لم يكن له دراية بالاقتصاد أو التجارة والهندسة ولكنه نجح فى أن يقيم أكبر مشروع هندسى بحرى فى القرن التاسع عشر وهو شق قناة السويس .

يقول المؤرخ الإنجليزى « مارلو » إن ديلسيس كان له صلات قوية مع سعيد باشا إبن محمد على وكان شابا بدينا ضخم الجثة وفرض عليه والده نظاما معينا فى الطعام على أن يجرى يوميا حول سور القلعة كى يخفف من الشحم الذى يغلف جسمه .. وكان ديلسبس يعرف مدى شره الشاب البدين للطعام فحرص على أن يقدم له أطباق المكرونة الشهية فى كل زيارة ..

وعندما تولى سعيد باشا الحكم إنتقل ديلسبس على الفور من فرنسا إلى القاهرة واستقبله صديقه البدين إستقبالاً حارا وانتهز « ديلسبس » الفرصة ليعرض عليه مشروع شق القناة ، وعلى الفور أصدر سعيد فرمانا بموافقته فى ٣٠ نوفمبر عام ١٨٥٤ وجاء فى صدر هذا الفرمان ما يلى :

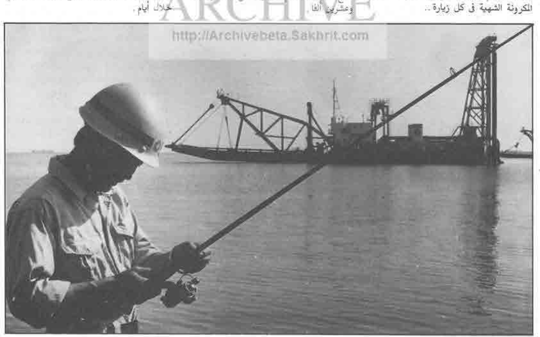
« وجه صديقنا فردينان ديلسبس نظرنا إلى الفوائد التى تعود على مصر من وصل البحر الأبيض بالبحر الأحمر بانشاء طريق للملاحة صالح لمرور السفن الكبرى ، وأبان لنا أن فى الإمكان تأسيس شركة لهذا الغرض تؤلف من أصحاب رؤوس الأموال من شتى الأمم ، وقد إرتضينا ما عرض علينا ورخصنا له بموجب هذا ترخيصا خاصا فى تأسيس وادارة شركة عامة لشق برزخ السويس واستغلال القناة بين البحرين .. » ومنح سعيد لديلسبس حق إستخدام من يريد من الفلاحين المصريين فى عمليات الحفر ..

يقول المؤرخ الإنجليزى « إدوار ديزى » إنه لم يحدث أن منح أحد إمتيازا يكفل لصاحبه هذه المزايا ، فقد أصبح ديلسيس بموجبه أبرز أبطال السخرة فى التاريخ . فقد وصل عدد من يستخدمهم من الفلاحين المصريين فى عمليات الحفر كل شهر ما يزيد على أربعين ألفا ، وقد اضطر ديلسيس إلى جلب ألف مشعل من القاهرة لاستخدامها فى الحفر أثناء وردية الليل ، ووصل الذين شاركوا فى عمليات شق القناة أكثر من مليون ونصف مليون فلاح استشهد منهم ما يزيد على مائة وخمسة وعشرين ألفا

الموت عطشا

هؤلاء الرجال الذين لفحت الشمس المحرقة أجسامهم كانت تعج بهم الصحراء . يملأون القفف بالرمال وهم فى قاع القناة يفرغونها بعيدا عن المجرى يستعينون على التعب بأغان عميقة الشجن مغلفة بالأحزان بينما يقف المشرفون عليهم من حولهم ويحولون دون هروبهم .. لقد زادت حملة الهجوم على « ديلسبس » وامتدت من لندن إلى عدد من العواصم الأوربية وإن كانت حملة لندن على تسخير الفلاحين المصريين قد شنت لغرض فى نفس يعقوب وليس لوجه الإنسانية فقد كانت إنجلترا تخشى من كساد زراعة القطن فى مصر وتأثير ذلك على مصانعها وهى لم تنس بعد ما فعله نابليون فيها عند غزوته لمصر ..

لقد تعرض أبناء مصر الذين حفروا القناة لأبشع أنواع التعذيب من الجوع والعطش وقتل من حاول الفرار من هذا الجحيم كما يقول الدكتور عبدالعزيز الشناوى فى كتابه « السخرة فى حفر قناة السويس » .. كان العامل يعيش على قطعة الجبن القديم والمش والبصل .. وكانوا يسقطون وهم يطلبون جرعة ماء . ومات أغلبهم بالدوسنطاريا الحادة والكوليرا ، كما ظهرت مادة طينية سائلة كانت تحتوى على الفوسفور الحارق للجلد مما أصاب الآلاف بالأمراض التى أودت بحياتهم خلال أيام .



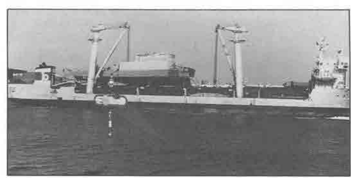
شاركت الخبرات العالمية فى أعمال تطوير القناة لتستقبل الناقلات العملاقة

... ومات محمد سعيد وتولى الحكم الخديوى إسماعيل باشا الذى عمل جاهدا لإتمام المشروع وكرس موارد مصر كلها من أجل هذا الهدف حتى أشرفت على الإفلاس ، وتحدد حفل إفتتاح القناة فى نوفمبر عام ١٨٦٩ ، ووجه إسماعيل الدعوة إلى أكثر من ٦ آلاف من عظماء وملوك أوروبا لحضوره .. وقد إستمرت ترتيبات الإحتفال نحو ٤٠ يوما . وجاءت « أوجينى » إمبراطورة فرنسا قبل الإحتفال بـ ٤٣ يوما .. وأقام الخديوى السرادقات الفخمة المكسوة بالديباج والحرير ، وقد أصطف الجنود بملابسهم الزاهيه بين رصيف « أوجينى » وبين السرادقات وقام بطريرك كنيسة القصر الامبراطورى بباريس بعقد قران ديلسبس (٦٤ سنة) على هيلين دى براجار (٢١ سنة) .. وأقبل المدعوون على تناول الغذاء المكون من أصناف عديدة من الأطعمة التى زادت عن الألف صنف ، .. وأسرف بعض المدعوين فى الطعام ..

كانت كما وصفها المؤرخون أشهر ولائم التاريخ وحضرها الإمبراطور « فرانز جوزيف » والامبراطورة أوجينى وأميرة هولندا وولى عهد روسيا والأمير جورج ولى عهد هانوفر والأمير عبد القادر الجزائرى ، وبعد إنتهاء العشاء إفتتحت الحسناء « أوجينى » الحفل الراقص بردائها الأرجوانى المرصع بالجواهر واليواقيت . رقص الجميع عدا الأمير عبدالقادر الذى آثر أن يحتفظ بوقاره ، ثم إنتقلت « أوجينى » على ظهر حصان عربى مطهم إلى قصر ضيافتها الفاخر على شاطىء بحيرة التمساح ، وضاقت قصور واستراحات إسماعيل بهذا العدد الكبير من الضيوف ، فأقام الخديوى ١٢٠٠ خيمة لإقامتهم ، بينما إنتقل العجوز « ديلسبس » مع عروسه الصغيرة إلى إستراحته بمبنى إدارة الهيئة بالاسماعيلية والتى تحولت اليوم إلى متحف يضم عربته التى كان ينتقل بها فى مواقع الحفر وحجرة نومه الصغيرة وتضم سريرا صغيرا .. وطشت «كان يستخدمه فى إستحمامه ومكتبا وبعض الصور له ولأسرته وخزينة خشبية تضم متعلقاته الشخصية وأهمها عملات فضية قديمة عثر عليها أثناء حفر القناة وقد زارت حفيدته الحجرة منذ سنوات وطلبت تذكارا عبارة عن قطعة ورق كان يزين بها جدها حجرته وقد أهديت إليها ..

وبعد إفتتاح القناة وإفلاس مصر ، بدأت محاولات فرنسا وبريطانيا فى أكبر عملية سطو لشعب فى التاريخ خطط لها ديلسبس بنفسه ، فدبر بيع نصيب مصر من أسهم القناة وكذلك حصتها فى الربح من إيرادها ، كما خدع ديلسبس الثائر أحمد عرابى الذى هب ليدافع عن مصر مع جيشها ضد غزو إنجلترا عندما كسر حياد القناة وسمح لسفن الجيش البريطانى بعبورها عام ١٨٨٢ ..

وفى عام ١٩١٠ حاول رئيس الوزراء المصرى بطرس غالى أن يمد إمتياز القناة لصالح كل من



الحاويات فى طريقها إلى دول الخليج العربية عبر القناة بعد أن توافرلها الأمان

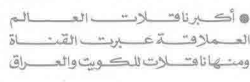


جولة ديلسبس اليومية فى موقع الحفر



سرير ديلسبس وتحته طشت الاستحمام

م . محمد عزت عادل



قناة السويس

بين الألغام البحرية وأزمة أسعار البترول!

فرنسا وانجلترا وعارض مجموعة من أعضاء الجمعية التشريعية هذا القرار بزعامة العضو إسماعيل أباظه باشا وتطوع الشاب إبراهيم الوردانى لقتل رئيس الوزراء الذى أراد أن يبيع بلده للمستعمر...

وبعد ما يقرب من خمسين عاما وقف جمال عبدالناصر فى الاسكندرية. (٢٦ يوليو عام ١٩٥٦) ليعلن تأميم القناة لصالح مصر فطاش صواب الساسة فى إنجلترا وفرنسا وتحالفوا مع إسرائيل فى غزو مصر فيما عرف بحرب السويس عام ١٩٥٦..

التوقف ... ثم التطوير

وبعد حرب يونيو عام ١٩٦٧ تم إغلاق القناة ...وظلت مغلقة لفترة ثمانى سنوات بلغت فيها خسارة العالم ١٧٠٠ مليون دولار سنويا تحملتها الدول التى تعتمد عليها وذلك طبقا لتقرير مؤتمر الأمم المتحدة بجنيف فى أكتوبر ١٩٧٣. كما عانت الدول النامية فى جنوب القناة من تأخر خطط تنميتها، ووضحت أهمية القناة كممر مائى دولى فهى توفر ٦٦٪ من المسافة بين بومباى وأوديسا، ٥٥٪ من المسافة بين الخليج العربى وجنوا، ٤٦٪ من المسافة بين الخليج العربى ولندن..

وعندما بدىء فى تطهير القناة بعد حرب أكتوبر تبين أن هناك عشرة عوائق كبيرة تعترض مجراها من بينها ناقلات غارقه وكراكات بالإضافة إلى سد أسمنتى كبير يحتوى على ٨٠ ألف متر مكعب من الأتربه، هذا السد أقامته إسرائيل لتستر إنسحابها عام ١٩٧٣ من الغرب إلى الشرق، وكان هناك أيضا بعض الأجسام الحديدية وألغام وبقايا حطام وقنابل لم تنفجر.

وقامت الخبرات المصرية بأعمال التطهير تساعدها الامكانيات الفنية لكل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا.. وبعد التطهير بدأ مشروع التطوير وتحقق إزدواج مجرى القناة الحالى من خلال ثلاث تفريعات رئيسية جعلها قابلة لإستقبال ١٢٠ سفينة، كما حدثت طفرة هائلة فى نظام إرشاد السفن بالقناة من خلال بناء أحدث شبكة الكترونية للإشراف على تمرير وعبور السفن والناقلات، وذلك لتحقيق أقصى درجات الأمان للناقلات العملاقة وسفن الشحن والحاويات.. وقد تم فى العام الماضى عبور الناقلات العملاقة لقناة السويس من بينها الناقلة الكويتية العملاقة «الريجة» (٤٠٠ ألف طن) من بورسعيد إلى السويس فى رحلة العودة من أوروبا إلى موانىء الشحن بالخليج، وتعتبر هذه الناقلة من أعرض عشر ناقلات فى العالم، ويبلغ طولها ١٢٤٠ قدما وعرضها ٢٢٩ قدما وارتفاعها ٧٥ مترا. وقد شارك فى عملية إرشاد الناقلة فى رحلتها من غاطس بورسعيد إلى غاطس السويس ١٢ من أكفأ المرشدين فى القناة كما عبرت أيضا الناقلة العراقية حطين (٣٥٠ ألف طن) والناقلة التركية «سكولكو» ٤٢٣ ألف طن، كما عبرت أخيرا الناقلة الكويتية «الرقة» حمولة (٤٠١) ألف طن، ودفعت رسوما قدرها ٢٦٥ ألف دولار لهيئة القناة، كما عبرت عشرات الناقلات العملاقة من جنسيات مختلفة.

وفى لقاء مع المهندس محمد عزت عادل رئيس هيئة قناة السويس قال: ـ لا شك أن الصراعات السياسية العالمية وبؤر الحروب تؤثر على قناة السويس ودخلها، فقناة السويس هى «ترمومتر» للأوضاع السياسية والاقتصادية فى العالم، والأمثلة على هذا كثيرة ومتعددة، ومنها الصراع بين العراق وإيران فبمجرد نشوبه تطور ليشمل ضرب ناقلات البترول فى الخليج العربى، وكان لذلك تأثيره المباشر على قناة السويس، ولنا أن نعرف بأن تجارة الخليج العربى سواء المصدر منها أو المستورد تمثل ثلث حجم التجارة العابرة لقناة السويس.

وهناك مثل آخر على تأثير الأوضاع السياسية بالنسبة لقناة السويس وهى مشكلة الألغام البحرية فى البحر الأحمر، وخاصة فى مدخل القناة وتسميتها بالألغام البحرية ليست تسمية صحيحه، فاللغم البحرى من المفروض إنفجاره فى



أكبر الناقلات العملاقة التى تعبر قناة السويس





ثلاث لقطات : الأولى موقع حفر قناة السويس بالقرب من الاسماعيلية .. والثانية مكتب ديلسبس وعليه بعض أوراقه .. ثم عربة ديلسبس في متحف التاريخ

جسم المركب ليحدث فجوة فى قاعه ، أما ماحدث فقد كان مجرد إنفجارات بسيطة فى قاع البحر لاتمس جسم السفينة ، ولكنه يسبب تأثيرا لا وزن له ينتج عنه الفزع والخوف فقط ، وقد تأثرت الملاحة فى القناة لفترة بسيطة نتيجة هذه الانفجارات ، ثم عاد الإطمئنان لأصحاب السفن مرة أخره ونتيجة لهذه التهديدات بدأ العالم يفكر ويدرك أن البحر الأحمر يمكن أن يهدد من الناحية الأمنية فبحث عن وسيلة أخرى لنقل البترول العربى إلى مناطق إستهلاكه فى أوروبا سواء بإستخدام خط الأنابيب لنقل البترول أو الإستغناء عن البترول العربى بالكامل ووضع سياسة للإعتماد على البترول فى غرب قناة السويس مثل بترول بحر الشمال والمكسيك ونيجيريا وخط غازات سيبريا وغيرها ...

ومن هنا بدأ التفكير فى مد خط أنابيب لنقل البترول من البحر الأحمر عبر قارة إفريقيا ، ويبدأ من بورسودان في السودان ثم إفريقيا الوسطى حتى يصل إلى الكاميرون على المحيط وأنا أعتبر التفكير فى هذا المشروع لا يتسم بالنضج فلو حدث وأقيم هذا الخط فإن قناة السويس ستدخل معه فى منافسة شديدة وتقضى عليه بالافلاس ، فليس عندنا مصروفات ولا إستهلاكات على مستوى إلتزامات هذا الخط الذى يمتد طوله إلى ٣٦٠٠ ميل عبر دول بينها تنافر سياسى ولا تمتلك ضمانات أمن وسلامة هذا الخط الطويل الذى يمر فى أرض لا يملكها أصحابه .

● كلهم رقصوا في "البالو" ماعدا المجاهد العربي عبد القادر الجزائري

● ربع مليون فلاح ماتوا من العطش والمرض وهم يحفرون القناة

● ديلسبس والخديعة الكبرى التي انتهت بفرمان "الشخرة" وبيع الأسهم

وقبل حرب ١٩٦٧ كان البترول يمثل بالنسبة لعائدات القناة ٧٠٪ من إيراداتها نتيجة مرور ناقلات البترول وكانت حركة نقل البضائع تمثل نسبة قليلة ، بينما كان البترول من أرخص مصادر الطاقة ، وبعد حرب ١٩٧٣ بدأت أسعار البترول فى الارتفاع بصورة متلاحقة وسريعة ، والنتيجة أن الدول المستهلكة فكرت فى البدائل كالبحث عن البترول فى مناطق غرب السويس مع إيجاد بدائل للطاقة بإستخدام الفحم والطاقة النووية والشمس والرياح ، كما حاولوا زيادة كفاءة المعدات المتحركة والتى تستخدم الطاقة لتعطى نفس القدرة بأقل كمية من الوقود ...

ويضيف رئيس هيئة قناة السويس أن عدد الناقلات العابرة للقناة قد بلغ منذ أول يناير ١٩٨٤ حتى ديسمبر من نفس العام ٣٥٧٦ ناقلة من بينها ست ناقلات قطرية وواحدة ليبية ، ٣٩ ناقلة عراقية ، ١٩ من الإمارات ، ٥١ من المملكة العربية السعودية ، ١١٧ ناقلة من الكويت ، ٨٢ من المغرب ، ٨ من الجزائر .. وبلغت الحمولة الصافية للناقلات العابرة خلال عام ١٩٨٤ ــ ١٣١٫٢٥٨ مليون طن .

إن قناة السويس التى قال عنها الدكتور جمال حمدان مؤلف « شخصية مصر » منذ أن شقت ، ومنذ أن حل البخار محل الشراع الذى تعاكسه رياح البحر الأحمر أصبحت شريان المواصلات العالمية ، وتحولت إلى قبلة عالمية كأن العالم كله كان على ميعاد معها .

وقال عنها « هالفورد هوسكنز » « إنه من المحتمل أن عملا من أعمال الإنسان المادية لم يؤثر على علاقات الأمم بصورة أكثر عمقا من قناة السويس » ...

هذا الشريان المائى الحيوى ما زال أعظم منجزات الإنسان لتطويع البر والبحر لصالح البشرية فى أركان الدنيا .

والآن وصلت قناة السويس إلى أعلى مستوى عالمى فى الأداء داخل الممرات المائية . وأصبحت تضم خبرات نادرة من المرشدين والفنيين الذين يؤدون الخدمات للسفن العابرة بأقصى كفاءة وتشهد شركات التأمين العالمية بانعدام الحوادث على صحفتها .. ومما يزيد فى إطمئنان القائمين عليها أن دول الخليج العربى مازالت تملك أكبر إحتياطى بترولى فى العالم ولا يمكن أن يستغنى عنه وبعد إنتهاء الحرب بين العراق وإيران وظهور الحاجة إلى تعمير ما خربته هذه الحرب ستتضح الأهمية الأكبر للقناة .

فاروق أباظة



السندباد أنا..

شعر: شجاع الأسد

السندباد أنا.. تنقاد أشرعتي — نحو الجمال فمن ايحائه زادي
سفينتي رفعت في البحر رايتها — وفي الشواطىء غنّى باسمها الشادي
وذكرها في مروج الشوق وشوشة — تموج .. تسرح في أنغام عَوّاد
هي التي نصبت للحب ألوية — وضمّختها بعطر للهوى صادي

* * *

السندباد أنا .. تنقاد أشرعتي — نحو الجمال فمن إيحائه زادى
أطوف في جزر الأطيار شابكة — عنقاً بعنق ومنقارا بمنقار
تدور في حلبات الرقص ساجعة — كأنما هي في أعياد ميلاد
وفي الحقول فراشات متيمة — في حب سوسنة أو زهر عباد
وفي الشواطىء أنغام مغردة — من نفخ عُرْس .. ومن أصداء أعياد
والبحر يروي من الأسرار قصته — عن الهوى والجوى .. عن حرق أكباد
عن نجمة حلوة حيرى معذبة — تلتف في مئزر لليل مداد
عشيقة القمر النشوان .. تتبعه — برفقة فى نجوم الليل سهاد
تصوغ للبدر في الأشواق ملحمة — يلهو بها الكأس أو يشدو بها الحادي
هذي الطبيعة لوحات أناغمها — كما أناغم بالتحنان أولادي

* * *

السندباد أنا تنقاد أشرعتي — نحو الجمال فمن ايحائه زادي
إني لأبحر في العينين تسلمني — أبعاد لونهما الصافي لأبعاد
ومثلما يتغذى النبت في دعة — من بسمة الشمس في استسلامها الهادي
أمتص من نظرات الغيد فتنتها — وأرشف السحر من أعطاف ميّاد
ومثلما يتمطى العطر منفلتا — صبيحة العيد من لفتات أجياد
ينساب للحسن إيماء يخدرني — فالشمس متكئي والنجم ميعادي
وأنظر الكون من علياء أخيلتي — كنظرة القمم الشماء للوادي

عمان ــ الأردن





بقلم: محمد أحمد الشدي

السفر معك إلى المدن البيضاء

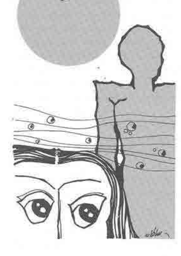
أتذكر .. أفتش بين أيامي المالحة عن قطرة من الندى .. أبحث بلهفة العاشق القديم .. عن لحظة يغتسل فيها القلب .. أمشي بذاكرتي المجهدة على الشوك والجمر .. والزجاج المكسور .. وأظل هكذا .. لا أنا أتعب ...... ولاينتهي المشوار .

أمس .. أمس فقط .. قررت أن أبوح وأن أكتب وأن أحمل النار بين أصابعي فما أنا أول من ينزف .. ويعشق .. وتشتهي دمه العشيرة .... ها أنا أكتب اليك أيتها المسافرة في دمي .. المبحرة في شراييني .. شوقا وولعاً وتذكاراً .. ها أنا بكل البراءة ... والعفوية .. والتحدي أسأل أين أنت ... أين أجدك : في أي الموانيء .. والمدن الأسطورية تقيمين وتحاشرين وتكتبين قصائد الحب اليتيمة ....

أول لقاء لنا .. كان صدفة عجيبة .. وما أندرها الصدف الجميلة في هذا العالم ! ماكنت ... ماذا كنت أفعل .. أنا البدوي الشرقي المتوهج تحت شمس الصحراء .. في ذلك المكان البعيد .. على بحيرة العشاق وفي مطار جنيف غريب الوجه واليد واللسان .. لا أدري ولكنك كنت هناك أيضا .. تقفين كرمح أفريقي الى جانب النافذة بكل الثقة والكبرياء .. تنظرين الى لاشيء .. والى كل شيء وكان قلبي يحترق ويرف كعصفور على زجاج نافذة السيارة المفتوحة على قلبي تماما .

وفي الصالة .... العيون مصوبة اليك بضراعة طفل بريء ... الصالة غابة من الفاتنات الرشيقات .. يرتدين معاطف الفرو الثمينة .. والفساتين الزاهية الأنيقة ويشيع منهن العطر النفاذ .. ولكنك وحدك كل الفاتنات .. وكل العطر وكل الجاذبية والاهتمام .. هادئة جميلة ، تحيط بك القلوب .. وتهطل عليك النظرات كالأمطار الاستوائية الغزيرة ....

همست .. من الداخل .. فرنسية ألمانية .. لندنية .. شعر كأسلاك الذهب وعينان زرقاوان وقوام ممشوق .. وخطوات واثقة .. همست مرة أخرى نجمة سينمائية أم عارضة أزياء .. أم فتاة شرقية .. أم مسافرة الى لامكان...



تقدم شاب أنيق نحوك ... أطلق كلمات سريعة .. أجبته بكلمات حادة وغير مسموعة .. فانكفأ وتلاشى .. عند ذلك عرفت معنى المستحيل ...

جاء صوت أنثوي ناعم .. يعلن عن اقلاع الطائرة المغادرة .. فخفق قلبي كفراشة مشتعلة .. نسيت كل شيء حولي .. ولهثت الى صالة المسافرين .....

في الطائرة ..... حددت الصدفة مكاني ، كان رقمي واضحا قالت المضيفة .. هنا .. فجلست بنشوة الى جانبها .. بانتظار الذي يأتي !

كان علي أن أبدأ .. فهي الآن جارتي في الرقم على الأقل .. ترددت .. تلعثمت .. أخيرا بدأت .. الكلمة الأولى هي أصعب الكلمات .... ردت على تحيتي بكلمات عربية عذبة .. أهلا وسهلا .. فلم أصدق .. وأقلعت الطائرة ...

هذه الجميلة المستحيلة ترتحل الآن معي ....

هذه الوردة الخمرية .. تسافر في دمي .. الى المدينة البيضاء .. شعرها ذهب .. وعيناها زرقة البحر منعكسة عليهما .....

من أين .. والى أين ؟.. ثم بدأ الحوار .. عرفت في تلك اللحظة ماهو السحر ، وماهي الثقافة ، وماهو الشموخ العربي الأصيل .

ومرت الأيام ، ضاع العنوان مع حقائبي في ميناء الوصول ، وبقيت أنتظر الصدفة .. الثانية ، صدفة اللقاء المستحيل .

أيتها النباتية الطاهرة ... إنني انتظر وأحمل جرحي حتى نهاية العالم ..

أيتها الغائبة .. لم يبق .. شارع .. أو ميناء .. الا ومعي منه ذكرى .. انني لازلت أرتحل وأطوف وفي كل مرة أعود بقلب دام أتلفه الحب والسفر والضياع .

الرياض

حول حديث جمال الغيطاني



تلقت الدوحة تعليقين حول حديث الكاتب الفنان المعروف جمال الغيطاني والمنشور في عدد أغسطس ١٩٨٥ ، وقد كتب الغيطاني كلمة غامضة في جريدة الأخبار المصرية ينكر فيها حديثا له في إحدى المجلات ، وذلك دون أن يذكر اسم مجلة « الدوحة » ولا اسم كاتبة الحديث السيدة سارة ، وقد مر الآن شهران دون أن تتلقى الدوحة من الغيطاني أي تكذيب للحديث الذي نشرته أو تعديل لما ورد فيه من آراء ، وكما تحترم الدوحة حرية الغيطاني في التعبير عن آرائه ، فإنها تحترم حرية الآخرين في مناقشة هذه الآراء ، وعلى هذا الأساس ننشر التعليقين التاليين :

الكاتب.. وأخلاق الفارس

أجريت على مدى سنوات عشرات الحوارات ولم أواجه يوماً قط باتهامي بعدم الأمانة . قد أقبل إتهامات العديد من الزملاء الكتاب والصحفيين الذين انهالت على مكالماتهم بعد نشر حواري مع الغيطاني وبعد نشره التكذيب بجريدة الأخبار ، قد أقبل إتهامهم لي بقصر النظر وعدم قدرتي على الحكم الصائب على الأشخاص ، وقد أقبل اتهامهم لي بحسن النية والطيبة إلى حد السذاجة ، وقد أقبل اتهامهم لي بأن حماسي لعمل ما أو لكاتب ما يفقدني وضوح الرؤية ، ويدفعني هذا الحماس للسباحة ضد التيار ، وضد إجماع الآراء ، وقد أقبل أيضاً اتهام البعض لي بالتواطؤ مع الغيطاني لخلق هالة حوله « وهذا غير صحيح طبعا » ، لكني لم أقبل ولن أقبل اتهامي بعدم الأمانة ، لأنني ناضلت طوال حياتي من أجل لحظه صدق أعيشها مع نفسي ومع الآخرين ، وخسرت من أجلها كل شئ ، ولم يبق لي إلا احترامي لنفسي وقلمي ، وهذا ما سأدافع عنه حتى لو كان عمري هو الثمن .

لذلك كانت فجيعتي كبيرة بإنكار الغيطاني لآرائه ، وإدعائه أنني تعمدت الإثارة ، وأنه كان ضحيتي البريئة ! ! !

ولو كنت فعلا أبحث عن الإثارة لنشرت كل ما قاله من آراء ، ولكنني حماية له — بدافع التقدير — حرصت على نشر أقل آرائه إثارة ، وليس هناك ما يمنعني اليوم من نشر الأجزاء التي لم تنشر ، ولعل صنع الله ابراهيم وابراهيم أصلان وفاروق جويده أبرز شهودي على أنني لا أبحث عن الإثارة ، لأنني أثناء « تسجيل » حواري معهم قالوا من الآراء ما يثير ، لكنهم بعد ذلك طلبوا حذف أو تعديل بعض الآراء ، وقد استجبت لرغبتهم ، مع أنه كان بإمكاني الا أستجيب لأن آراءهم مسجلة ولامجال لإنكارهم .

كانت فجيعتي كبيرة لأنني لم أتحمس قط في حياتي لكاتب كما تحمست له — وهو أول من يعلم — وكل من قرأ الموضوع أصابه وهج من حماسي ، والمهزلة أنه في اللحظة التي كنت فيها بمكتب محمد جلال رئيس تحرير مجلة الإذاعة والتلفزيون أعاتبه على هجومه على الغيطاني وأدافع عنه بشراسة ، كان الغيطاني يطعنني في ظهري ، ولن أنسى أبداً صوت محمد جلال — وأصوات أخرى كثيرة — وهو يهاتفني في اليوم التالي بعد قراءته للتكذيب ، لقد كان صوته ذاهلا ورافضاً أن يصدق ماحدث ، لكنه حدث .

لقد واجهت بشجاعة هجوم معظم المثقفين المصريين ، واجهت اتهامهم لي بالتطرف وانحيازي غير المبرر للغيطاني ، وجميعهم شهود بأن ردي عليهم كان « بأنني مؤمنة به ككاتب متميز وأتحمل مسئولية تقديمي له — بالصورة التي أدهشت الجميع — وانني على استعداد للدفاع عنه حتي النهاية ومهما كلفني الأمر » .

و .. لكن

لأن الكاتب — في اعتقادي — يجب أن يتحلى بأخلاق الفارس ، ولأن الكتابة — في اعتقادي أيضاً — فروسية ، ولأن الغيطاني بتكذيبه تخلى عن فروسية الكاتب ، فانني أجد لزاما علي إن كان لي أن أعتذر عن خطأ ، فإنني أعتذر للقارئ أولاً وأخيرا ، لأنني شاركت — بسذاجة — في تضليله بالسطور التي قدمت بها الغيطاني ، وإني أنكرها ، وأتبرأ منها .

وقد يتساءل البعض لماذ أنكر الغيطاني كل الآراء التي أثارت ضجة ، ولم ينكر رأيه في د . يوسف إدريس مع أن رأيه فيه أثار ضده الجميع ، والسبب بسيط جدا وهو أن رأيه هذا منشور وبالحرف الواحد في مجلة تصدرها الجامعة الأمريكية بالقاهرة — وقد تفضل هو باعطائي المجلة — ولكن نظراً لطبيعة المجلة فلم يلتفت أحد لها ، ولذلك لم يكن أمامه مجال للإدعاء بأنني حرفت رأيه هذا أيضا ، ولعل من باب الرحمة — لا أدري لي أم له — أن كاتبنا الكبير جبرا ابراهيم جبرا لم يكن مقيما في القاهرة ، وإلا لأنكر ما قاله عنه أيضا .

ويبقى أن أذكر الغيطاني بأنني نبهته وراجعته قبل نشر الموضوع ، ويبقى أن أذكره أيضا بأنه لم يحتج على ماكتبته على لسان زوجته ولا على مااخترته من « التجليات » وقد قرأه قبل نشره ! !

ويبقى أن أذكره رداً على إشاعته في الوسط الأدبى « باعتقاده بأني » مدسوسة عليه من جهة معادية ، لتدميره « تصوروا ! ! ! » أذكره بأن حماسي الصادق تجاوز كتابة الموضوع ، ودفعني لتنظيم ندوة أدبية لمناقشته في أحد الأندية ، وقد تحملت اللوم لاختياره ، ودافعت عن هذا الاختيار .

ويبقى أيضاً أن أقول إن الغيطاني كاد ينجح في أن يبذر في نفسي النقمة على جيل كامل ينتمي إليه ، جيل آمنت بتميزه وتفرده ، وصرفت وقتي وجهدي لدراسته ، ولكن .. كان عزائي عشرات المكالمات التي انهالت علي تعتذر بالنيابة عنه وعن جيله .

ويبقي أيضاً أن أقول أن تكذيب الغيطاني بمثابة تحد لأمانتي ، وأعلن أنني قبلت هذا التحدي ، وليتخذ ماشاء له من إجراءات ، وسأتخذ ماشاء لي من إجراءات .

كلمة أخيرة أقولها له .

لقد خسرتني ، وخسارتك لي فادحة ، لأننا في هذا الزمن الصعب من المستحيل أن تجد من يدافع عنا بحماس ويقدرنا بحماس ، وقد وقفت إلى جانبك بشجاعة وأصالة ونبل .. لك العزاء .

ملحوظة :

مانشرته على لسان زوجة الكاتب في حديثي الذى نشرته الدوحة « أغسطس ١٩٨٥ » مأخوذ من موضوع مطول كتبته « زوجته » بمجلة صباح الخير ، وقد كان هدفي المخلص من اختيار تلك السطور تسجيل لحظة إنسانية عميقة ومؤثرة ونادرة عاشها الكاتب مع زوجته ، ومانشرته تحت عنوان « الغيطانى يحكى لنا » مأخوذ من « التجليات » وقد قمت بالفصل بينها وبين الأسئلة التى طرحتها عليه بعنوان جانبي « أسأل أنا ويجيب الغيطاني » .

سارة — القاهرة

وقانا الله شر الغرور

شجعتني افتتاحية عدد أغسطس ١٩٨٥ من مجلة الدوحة الرصينة والجميلة، حول فتح باب «المناقشة والرد على ما جاء من آراء في الحديث المثير» الذي أدلى به الأديب جمال الغيطاني إلى السيدة سارة، والمنشور بنفس العدد، على كتابة هذه السطور، رداً وتصحيحاً لما تضمنه الحديث من آراء.

فقد تضمن هذا الحديث عدة مغالطات واتهامات وتجاوزات تمس مكانة الكثير من النقاد والكتاب والمفكرين، وتشي بالنرجسية والاستعلاء والاستخفاف وتضخم الذات، وهو ما سأوضحه في السطور التالية. ولكن الأخطر من هذا هو نقل الغيطاني فقرة كاملة من دراسة لي منشورة منذ نحو ثلاث سنوات ونسبتها لنفسه. ودراستي المقصودة عنوانها «الزيني بركات وتأصيل الرواية العربية»، وقد نشرت بمجلة «البيان» الكويتية، العدد ٢٠١ ديسمبر (كانون أول) ١٩٨٢. ومن الغريب أن الغيطاني أشار في حديثه إلى الدراسات المكتوبة عن روايته «الزيني بركات» في حين تعمد إغفال كل إشارة إلى دراستي واسمي، بالرغم من نقله نص كلماتي، في الحديث، وتضمينه جوهر أفكاري حول موضوع التراث وتأصيل الرواية العربية في مواضع أخرى. لذا تعجبت من ذكر السيدة سارة، التي أجرت الحديث، أنه سجل في مقهى الفيشاوي بالقاهرة. فمع احترامي وتقديري للسيدة سارة وثقافتها الواضحة في الحديث، إلا أني أتساءل: هل يمكن للغيطاني أن يحفظ كلماتي عن ظهر قلب ويمليها عليها!؟

يؤلمني أن أكتب هذه الكلمات عن أخ وكاتب تحمست كثيراً لكتاباته. وقد مررت بهذه التجربة أكثر من مرة عندما أقدم بعض الأصدقاء من الكتاب على تضمين بعض الكلمات والعبارات والأفكار من كتاباتي دون إشارة لأصولها. وكنت أسكت حرصاً على الصداقة، بل كنت أفرح وأبتهج عندما أجد كلماتي وأفكاري تتردد في الصحف والمجلات والكتب مضمنة بأقلام كتاب آخرين.

ولكن أن يصل الأمر إلى النقل بالكامل وإلى انكار جهودي فهذا أمر غير مقبول.

وكنت قد أعددت منذ سنوات دراسة كبيرة بعنوان «نحو ثقافة عربية أصيلة»، وأعلنت عنها في كتبي الصادرة خلال السنوات الأخيرة، حول تأصيل الأشكال المسرحية والتمثيلية والقصصية والروائية في التراث العربي وبعثها في ثقافتنا العربية الحديثة، بغية التحرر من التبعية للغرب والخلاص من آثار الغزو الفكري الاستعماري، واستكمالا لشخصيتنا القومية المستقلة، وتجديداً للابداع العربي وتأصيله، ومن أجل تقديم إضافة عربية أصيلة في هذا المجال. وكتبت في هذا الصدد عدة دراسات ومقالات، منها: «نحو تأصيل المسرح العربي»، و«محاولات على طريق تأصيل الرواية العربية»، و«الزيني بركات وتأصيل الرواية العربية»، وهي الدراسة التي نقل منها الغيطاني كلماتي وأفكاري ونسبها إلى نفسه، في حديثه لمجلة الدوحة.

ولقد اهتممت برواية «الزيني بركات» لأنها دخلت ضمن دراستي ودعوتي لإحياء الأشكال الفنية والأدبية التراثية في الأعمال الأدبية والفنية الحديثة. ومن هنا رحبت برواية «الزيني بركات»، بالرغم من عيوبها الفنية التي أوضحتها في دراستي، بسبب اتجاهها التراثي بقدر ترحيبي بأعمال روائية عربية أخرى تتجه نحو استلهام التراث شكلا ومضموناً.

ولما كنت أعتزم الاستمرار في متابعة الدراسة التطبيقية على الأعمال الروائية والمسرحية والقصصية التي تستلهم الاشكال والموضوعات التراثية، فقد خشيت أن ينسب جهدي إلى غيري، خاصة بعد نشره في مجلة منتشرة ورصينة كمجلة «الدوحة».

أما الفقرة المنقولة بالنص من دراستي المشار إليها من قبل، فهي: «.. نشأت الرواية العربية الحديثة غربية في أحضان الرواية الغربية منذ تحول الروائيون العرب الأوائل من ينابيع الفن القصصي والروائي في تراثهم العربي، عندما شرعوا في كتابة رواية عربية حديثة، واتجهوا صوب الغرب لينقلوا عنه رواياته ويقلدوها ويبدعوا على منوالها. فوقعوا في شباك الغزو الفكري الغربي متأثرين بالانموذج الحضاري الغربي المتقدم الوافد مع الاستعمار الغربي لبلادنا في أوج عنفوانه وازدهاره. وبدأت غربة الرواية العربية عن أصولها التراثية كاملة بتبنيها لموضوعات غربية وأشكال غربية نابعة من حضارة غربية وتراث غربي وثقافة غربية ...».

وفي فقرة تالية من الدراسة كتبت: «.. إذ أن الأشكال القصصية العربية في التراث العربي هي أشكال متميزة لا تخضع للشروط الغربية لفن القصة والرواية، فلكل حضارة أشكالها وتراثها ومن ثم فإن استبعاد الأصول القصصية العربية على أسس ومقاييس غربية كان عملا تعسفياً من قبيل الخضوع للغزو الفكري الغربي.».

(مجلة «البيان» الكويتية، عدد ديسمبر ١٩٨٢ ص ٩٤ و ٩٥)

وفي رده على سؤال السيدة سارة: هل هناك ثمة تناقض بين التجديد والاستفادة من التراث؟ أجاب الغيطاني بكلماتي سالفة الذكر على هذا النحو: «الاستفادة من التراث هو لب التجديد، فلقد نشأت الرواية العربية الحديثة غربية في أحضان الرواية الغربية منذ تحول الروائيون الأوائل عن ينابيع الفن القصصي في تراثهم العربي، عندما شرعوا في كتابة رواية عربية حديثة، واتجهوا صوب الغرب لينقلوا عن رواياته ويقلدوها ويبدعوا على منوالها، فوقعوا في شباك الغزو الفكري الغربي (؟!) بالانموذج الحضاري الغربي المتقدم الوافد مع الاستعمار الغربي لبلادنا في أوج عنفوانه وازدهاره. وبدأت غربة الرواية العربية عن أصولها التراثية كاملة بتبنيها لموضوعات غربية، وكان المطلوب إيجاد خصوصية للرواية العربية، إذ أن الأشكال القصصية العربية في التراث العربي هي أشكال متميزة لاتخضع للشروط الغربية لفن القصة والرواية، فلكل حضارة أشكالها وتراثها، ومن ثم فإن استبعاد الأصول القصصية العربية على أسس ومقاييس غربية كان عملاً تعسفياً من قبيل الخضوع للغزو الفكري الغربي.» (مجلة الدوحة) عدد أغسطس ١٩٨٥ ص ١٠٦) وقد صورت هاتين الفقرتين وأرفقتهما بهذه الرسالة.

هذا هو النقل الكامل من دراستي الذي قام به الأديب جمال الغيطاني بكل جراءة، أما التضمين فيأتي في موضع آخر من الحديث. إذ قال الغيطاني: «اميل حبيبي من أكبر كتاب الرواية في العالم العربي، وتجربته من أهم التجارب الروائية العربية بالنسبة لي لأننا نمضي في اتجاه واحد وهو تأصيل الرواية العربية، و«الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل» من أكمل التجارب العربية وأتمها في هذا الاتجاه، وتوجه أميل للتراث لم يأت من فراغ ولكنه كان نوعاً من حماية الذات القومية الفلسطينية..» الدوحة ص ١٠٨)

وهذا هو أيضاً مضمون كلماتي في دراستي «محاولات على طريق تأصيل الرواية العربية»، والتي تناولت فيها بعض أعمال اميل حبيبي وجبرا ابراهيم جبرا والغيطاني، والمنشورة بعدد يناير ١٩٨٥ الخاص بالابداع الروائي من مجلة «إبداع» المصرية. ومما ذكرته في هذه الدراسة قولي: «ويقدم اميل حبيبي تجربة فريدة حية وانموذجا فذا يؤكد أصالة الفن القصصي والروائي العربي، وامكانيات إبداع رواية عربية أصيلة نابعة من تراثنا وروحنا وقيمنا وهمومنا، ولا تقع في أسر الشكل الروائي الغربي. وقد نبع الشكل العربي

حول حديث جمال الغيطاني

الأصيل من تحديات المقاومة الفلسطينية وخصوصية القضية الفلسطينية ، التي فرضت على الروائي ، كأديب مقاوم ، ضرورة الرجوع إلى التراث العربي والتراث الشعبي الفلسطيني ، والمزج بينهما ، وإبراز الشخصية العربية الفلسطينية في مواجهة المحاولات الصهيونية لانتزاع الفلسطيني من أرضه وقمعه قومياً وثقافياً . » (مجلة « ابداع » عدد يناير ١٩٨٥ ص ١٣٩) . كما قلت ، في هذه الدراسة أيضاً ، « ويتقدم اتجاه روائيينا العرب المحدثين نحو تأصيل الرواية العربية ، من إحياء البناء الفني لحكايات الف ليلة وليلة ، وأسلوب التقابل الساخر ، وتوظيف التراث العربي من المقاومة والحفاظ على الشخصية القومية ، كما طالعنا عند الروائي العربي الفلسطيني اميل حبيبي ، إلى استخدام أسلوب الخط التراثي ، في شحنه بمضامين وهموم عربية معاصرة عند الروائي المصري جمال الغيطاني ابن الجمالية ، أحد أحياء القاهرة ، الغني بآثار التراث العربي ، وبزخم التاريخ العربي ، حيث ولد الغيطاني ، وأبدع روايته العربية الأصيلة « الزيني بركات » في اتجاه تأصيل الرواية العربية ..» (مجلة « ابداع » عدد يناير ١٩٨٥ ص ١٤٢)

وحتى السيدة سارة ، فقد استخدمت أيضاً نص كلماتي دون نسبتها لي ، ومع أنها فعلت هذا في سؤالها الأخير ، الموجه إلى الغيطاني : « فهل نستطيع اعتبار ــ المقتبس من عودة ابن اياس ــ وهداية أهل الورى ــ وكشف اللثام ــ بمثابة تخطيطات تمهيدية للزيني بركات ؟ » (« الدوحة » ص ١٠٤) وذلك نقلاً عما كتبته في دراستي « الزيني بركات وتأصيل الرواية العربية » : وتعد قصص الغيطاني الثلاث : « المقتبس من عودة ابن اياس إلى زماننا » ، « هداية أهل الورى لبعض ما جرى في المقشرة » ، و « كشف اللثام عن أخبار ابن سلام » ، بمثابة تخطيطات تمهيدية لرواية « الزيني بركات » ... » (مجلة « البيان » الكويتية عدد ديسمبر ١٩٨٢ ص ١٠٤)

أما آراء جمال الغيطاني الأخرى الواردة في الحديث المثير ، فهي مشحونة بالنرجسية وتضخم الذات والاستعلاء والاستخفاف وبالمغالطات أيضا . فمن المغالطات زعمه أنه ، مع جيل الستينيات ، « ولد خارج الأطر الرسمية ، وخارج الأطر الاعلامية » . فإذا صح هذا القول عن جيل الستينيات الأدبي فإنه لا ينطبق على الغيطاني الذي انتقل من عامل نسيج إلى العمل الصحفي في « مؤسسة أخبار اليوم » في الستينيات وعمل بجريدة « الأخبار » كما قدمه التليفزيون تقديما حافلاً في ذات الوقت ، ثم تبناه موسى صبري .. ومثل قوله بأن أجهزة الاعلام قابلت أعماله ، مع جيله أيضاً ، بالتعتيم الكامل ، وأضاف ، « وقد فرض علينا حصار إعلامي طوال السبعينيات .. » فكيف يصح هذا ، وقد نشرت هيئة الكتاب الحكومية عددا من كتبه ، وقد نال الغيطاني جائزة الدولة التشجيعية في الرواية عن أحد هذه الكتب في نهاية السبعينيات وتسلم الجائزة من الرئيس المصري الراحل أنور السادات في حفل بثه التليفزيون المصري على الهواء ، وقد هلل له أيضاً كل من موسى صبري ومصطفى أمين على صفحات جريدة « الأخبار » ؟ !

ومن المغالطات وتضخم الذات أيضاً اتهامه النقاد جميعاً بالقول بعجز التراث عن التجديد وبالجهل بالتراث النقدي العربي ، وانه دحض بروايته « التجليات » إجماعهم على عجز التراث عن التجديد قائلاً : « ومن هنا ولدت التجليات التي دحضت إجماع النقاد بعجز التراث عن التجديد والابتكار والتفرد .. » وأضاف « .. ولكني اتهمهم بتأثرهم الكبير بالمدارس النقدية الغربية ، وعدم بذل أية محاولة جادة لتطوير المدرسة العربية في النقد ، وجهلهم بالتراث وما يحتويه . » (« الدوحة » ص ١٠٧) ويكفي أن أشير إلى دراساتي التراثية السابق ذكرها ، إذ لا يتسع المجال لذكر الدراسات الكثيرة للنقاد الكبار في هذا الصدد وعلى رأسهم الناقد الكبير الدكتور علي الراعي .

ومن مغالطات الغيطاني وتجاوزاته في هذا الحديث أيضاً قوله بأن الروائي الكبير جبرا ابراهيم جبرا ، الحائز على جوائز عالمية وعربية في الرواية ، لا قيمة له عنده كروائي ولكن كمترجم ، وزعمه أنه يتعامل مع التراث « تعامل خواجه » ورفضه لاعتباري روايته الفذة « البحث عن وليد مسعود » تجربة روائية يدفع فيها جبرا بمسيرته الروائية وثقافته الغربية نحو أصول التراث العربي ، واتهامي بالمبالغة في هذا القول ، وزعمه أيضاً أن جبرا قام بمجرد محاولة لتطعيم العمل الروائي بالتراث كزينة أو حلية . فقد أوضحت في دراستي لرواية « البحث عن وليد مسعود » أن توظيف التراث العربي لا يتوقف ، في تأصيل رواية جبرا ابراهيم جبرا ، عند حدود استخدام مقتطفات من الشعر العربي القديم أو التراث الشعبي الفلسطيني أو إحياء القيم العربية . ولكنه يدخل في صميم المعمار الروائي ورسم الشخصيات وتكوينها ومواقفها ورؤاها . فينهض الشكل الروائي باعتماده على السمة الرئيسية للبناء القصصي في ألف ليلة وليلة ، القائم على الاستطراد من القصة الرئيسية المحورية إلى قصص فرعية ، وتتراكم هذه القصص الفرعية لتصب في مجرى القصة الأصلية فتعمقها وتثري موضوعها وتلقي أضواء جديدة على شخصياتها . فكل شخصية تروي سيرتها وذكرياتها عن شخصية « وليد مسعود » بطل الرواية الغامض المثير ، وتغذيها بعدة حكايات وأقاصيص فرعية عن علاقتها بوليد مسعود وبسائر شخصيات الرواية الأخرى . ومن خلال هذه الأقاصيص ينتقل الروائي ، في تركيزه على ماضي الحضارة العربية واستلهامه تراثها المجيد في أوج نهضتها ، وفي بحثه في مكونات شخصيات الرواية ، معمقاً الصلة بين ماضي الشخصية العربية وحاضرها ، فيصل جبرا الماضي العربي بالحاضر العربي عن طريق البحث في مكونات الشخصية العربية .

وهكذا فجبرا ابراهيم جبرا لم يستخدم التراث في روايته « البحث عن وليد مسعود » ، كحلية أو كزينة ، بل قدم تجربة عظيمة في استيعاب وتمثل التراث هي الانموذج الكامل للابداع العربي الأصيل في الرواية الحديثة . وهو غير مافعله الغيطاني في روايته « الزيني بركات » التي اكتفى فيها بنقل أسلوب ابن أياس ونقل نماذج من خطب ورسائل وبيانات عصر المماليك بتطويل ممل .

ومن مغالطات الغيطاني أيضاً ماقاله عن الأديب الكبير يوسف ادريس ، وهو مهما اختلفنا مع تقلباته الفكرية والفنية ، إلا أنه لا يمكن انكار انجازاته وريادته لفن القصة القصيرة مصرياً وعربياً وتأسيسه لقصة مصرية أصيلة وجديدة في الخمسينيات . فلننظر كيف يتعامل الغيطاني باستعلاء واستخفاف مع يوسف ادريس في قوله : « بالنسبة ليوسف ادريس فقد قرأت له عددا من القصص المتفرقة في مرحلة متأخرة نسبياً لمجرد الفضول : وقصصه تكرار لتشيكوف ، فهو لم يقدم جديداً غير التعبير عن الواقع المصرى فقط ، باستثناء محاولته الاستناد على التراث الشعبى فى الفرافير ، كما أنه يكتب بلغة عادية وبدون أدنى اهتمام بها ! فلا يضير يوسف ادريس أن لا يقرأ له الغيطانى ، ولكن هذا يعيب الغيطانى وأى كاتب قصة عربى لايقرأ أدريس ، لأن ابداع يوسف ادريس يشكل مرحلة هامة فى تاريخ الأدب العربى الحديث لايمكن القفز عليها أو تجاهلها . وحتى اذا كان كل ما أضافه يوسف أدريس هو التعبير عن الواقع المصرى ، كما يدعى الغيطانى ، فيكفيه هذا مجدا وريادة .

ثم تأتى آراء الغيطانى المتعالية والمتغطرسة واستخفافه بكبار النقاد والكتاب والمفكرين . فهو يختلف مع « جورج لوكاش » وكتابه « الرواية التاريخية » . أما الرائد رفاعة الطهطاوى فهو ، فى رأيه ، ساذج فى انبهاره بحضارة الغرب ، وقد « استسلم دون وعى لثقافة الغرب » . ولم يكتف الغيطانى باتهام الطهطاوى بالسذاجة وافتقاد الوعى ، بل أنه يشكك فى وطنيته و« اعتزازه بانتمائه وثقافته ووطنه »

وبلغ به الاستخفاف إلى حد اتهام معلمنا العظيم طه حسين بأنه « يمثل مدرسة المستشرقين » .

وتأتى الطامة الكبرى وقمة النرجسية وتضخم الذات فى زعم الغيطانى أنه تجاوز بأعماله الابداعات الهائلة ، كما وكيفا ، للأدباء العظماء : نجيب محفوظ وتولستوى ودو ستويفسكى ؟ ! وقانا الله شر الغرور .

أحمد محمد عطية



إبراهيم أصلان: مذبحة الثقافة سبقت مرحلة الانفتاح الاستهلاكي البغيض!

في مقهى « زهرة البستان » المجاور لمقهى « ريش » قال لي ا براهيم أصلان : « لم أشعر أبداً أنني كاتب ولي قراء ، وإذا حدث والتقيت بواحد فإنني أرد ذلك إلى ظرف ما ، ولا أقبله على علاته أبداً ، أما قرائي الذين أعرفهم ، فهم زملائي من الكتاب ، هذا العدد القليل منهم الذي وثقت في ذوقه ، والذين أعلم أنهم وثقوا بي ، والذين أعمل من أجل أن لا أفقد ثقتهم أبداً ، ولقد كان ذلك غالباً عوناً وحيداً على الاستمرار ..

أن أكتب يعني أن أكون وحيداً ، وأن أكون وحيداً يعني أن أكون وسط زحام المقهى ، لا تتعجبى ، لقد كتبت « مالك الحزين » في المقهى — استغرقت كتابتها عشر سنوات — إنني أشعر بالوحدة بين الناس ، وعندما أكون وحيداً — فعلاً — في غرفتي أشعر بضجة الزحام ، والناس ، والأصوات ، ساعتها أشعر بالعجز عن الكتابة ..

عندما يحاصرني الليل ، يبحلق فى ، وأبحلق فيه ، أتذكر أننى فقدت جدران بيتى الحقيقى ، مات صلاح عبد الصبور ويحيى الطاهر عبد الله وأمل دنقل « تصوري ! » وهاجر جميل عطية إلى سويسرا وبهاء طاهر إلى جنيف وعبد الحكيم قاسم إلى ألمانيا « تصوري ! » وهاجر أيضا إبراهيم منصور إلى قبرص ، ومحمد البساطي إلى الخليج . ماذا حدث لهم ؟ ماذا يحدث لي « مش عارف » أشعر أنني أقترب من الجنون كلما تذكرت الراحلين والمهاجرين ..

لماذا أنا حزين هكذا « مش عارف » ، مرة ، قال لي عبد الوهاب البياتي « ياإبراهيم ، يجب أن تحتفظ بمسافة مأمونة بينك وبين الواقع حتى لا ينكسر قلبك . »

زمان ، منذ سنوات تبدو لي بعيدة ، عندما نشرت أول قصة ، ولم أكن أعرف أحداً ، تحمل غالب هلسا وجميل عطية وإبراهيم منصور مشقة البحث عني ، وجاءوا ليقولوا لي فقط إنني كتبت قصة جيدة ، كان كل كاتب يدرك أنه لايستطيع الكتابة بشكل جيد إلا إذا كان هناك من يكتبون بصورة جيدة أيضاً . هذا لم يعد يحدث الآن « ليه ، مش عارف » .

أتحمس لحضور ندوات الآخرين ، ولكني لا أحضر أبداً ندوات تناقش أعمالي « ليه ، مش عارف ! » مرة واحدة فقط حضرت ندوة أدارتها الناقدة رضوى عاشور لمناقشة « مالك الحزين » ،

إبراهيم أصلان:

مذبحة الثقافة سبقت مرحلة الانفتاح الاستهلاكي البغيض!

ولكني لم أستطع الجلوس على المنصة ، وفضلت الجلوس مع الجمهور ، إنني أكره أن أكون في مكان عرضة لعيون الآخرين .

محيي الدين محمد .. البداية

وقال لي « مالك الحزين » أيضاً :

« حياتي لاتختلف كثيراً عن حياة أي شاب مصري ينتمي للطبقة الشعبية ، ولدت في مدينة طنطا في ٣ مارس ١٩٣٩ ، ونزحت أسرتي إلى القاهرة عندما بلغت عامي الثاني ، وتنقلت بين الحسين وباب الشعرية فترة قصيرة حتى بدأ استقراري في امبابة ، ولم أبارحها منذ ذلك الحين حتى اليوم ، التحقت بمدرسة لصناعة النسيج والسجاد ، ومكثت فيها عاماً فقط ، وبعدها انضممت لمدرسة عسكرية داخلية ، وواصلت دراستي فيها لمدة عامين حتى أغلقت بعد قيام الثورة ، وقد تم توزيعنا على مدارس صناعية ، وكنت أنا ضمن الطلبة الذين ألحقوا بمدرسة اسمها الجامعة للصناعات ، وبما أن المناهج كانت مختلفة تماماً عن مناهج المدرسة العسكرية ، فلم أمكث فيها إلا عاماً واحدا ، وخرجت لأعمل فى هيئة البريد ، ثم التحقت بالهيئة القومية للمواصلات السلكية واللاسلكية وما زلت أعمل بها حتى اليوم .

كان أول كتاب قرأته النسخة الأصلية من ألف ليلة وليلة والتي ورثها أبي عن جدي ، وأيضاً كتاب دلائل الخيرات وقد لاحظ مدرس اللغة الإنجليزية في المدرسة الابتدائية إهتمامي بالقراءة ، فدلنى على دار الكتب ، وهذا المدرس هو كاتب السيناريو محمد أبو يوسف ، ولكن قراءاتي في تلك الفترة المبكرة لم تكن منظمة ولم تكن خاضعة لمنهج ، حتى التحقت بهيئة المواصلات عام ١٩٦١ ، وقد شاء حسن طالعي أن يكون من ضمن زملائي في العمل المفكر السوداني محيي الدين محمد والذى كان يعمل أيضاً مراسلاً للآداب في تلك الفترة ، والآخر أحمد طه السياسي وعضو مجلس الشعب حالياً ، وقد كان نقابياً شهيراً ، وهو شقيق الشهيد عبد القادر طه الذي اغتيل قبل الثورة ، وتوطدت الصداقة بيني وبين محيي الدين محمد ، والذى يعود له الفضل في تنظيم قراءاتي وتعريفي بأهم الأسماء في الآداب العالمية والعربية ، وقد كان أول كتاب نصحني بقراءته « قصة الحضارة » كما أن له الفضل في اهتمامي بالمجلات الأدبية المتخصصة ومتابعتها ، وقد كان محيي الدين من أول الأذواق التي اعتمدت عليها عندما بدأت في كتابة القصة القصيرة ، ويعود له الفضل في نشر أول قصة لي عام ١٩٦٤ في مجلة « صباح الخير » عندما قام بتقديمها لعلاء الديب .

وقال لي « إبراهيم » وأنا وجهاز التسجيل نصغي :

كان الجميع يعتقدون أننى سأكون رساماً ، ولكن كانت بي رغبة ملحة للكتابة ، إلا أننى كنت حائراً ماذا أكتب ؟ بدأت بكتابة الشعر بالفصحى والعامية ، ولكني شعرت بالامتعاض تجاه ماكتبت ، حتى قادتني قراءاتي في المسرح إلى « تشيكوف » مسرحياً وقصاصاً ، وعندما انتهيت من قراءته ، أعدت قراءة رائعته الصغيرة « موت موظف » حينئذ ركبنى العناد فوراً ، وقررت كتابة قصة قصيرة ، لازلت أذكر تلك الليلة ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ م ، ليلة رأس السنة ، والتي سهرتها برفقة محيي الدين محمد وقد فاجأه قراري بكتابة قصة قصيرة .

لقد كانت تجاربي الأولى بالغة السوء « وغشيمة » تماماً ، اندفعت للكتابة عن بعض الناس والأماكن التي أعرفها ، أو الحكايات التي سمعتها ، فعلت ذلك في إطار قصصي لايختلف في بنائه عن ذلك السياق الغالب من الكتابة ، والذي يبعث على الأسى أكثر مما يبعث على التقدير ، كتبت خلال ذلك العام أكثر من عشر قصص ومسرحيتين ، نشرت إحداهما « الساعة الواحدة » فى مجلة الثقافة والتي كان يرأسها محمد فريد أبو حديد ، ونشرت لي أيضاً ثلاث قصص في مجلات أخرى ، وقمت بتمزيق الباقي ، ومر عام آخر في عذاب صبياني مع النفس ، وفى بداية عام ١٩٦٥ م عاودت الكتابة مرة أخرى ، وعرفت أن الكتابة وحدها هي التى تعلمك كيف تكتبها .

لقد بدأت الكتابة بإحساس من عدم الرضا ، لم تكن هناك أية إمكانية للقبول بشيء مطروح فنيا واجتماعياً ، ولم يكن هذا الرفض قائماً على اى أساس « وأغلب الظن أنه لازال » والصعوبة في ذلك أن تكون أنت وما تكتبه شيئاً واحداً ، تتعاونان في أريحية دائمة من أجل مماثلة كل مظاهر الاختلاف التي قد تنشأ بينكما ، يعدل كل منكما الآخر حتى تستويا شيئا واحداً ، لاأقصد بالصعوبة أن يكتب الإنسان كما يعيش ، ولكني قصدت بها أن تجد نفسك تعيش مثلما تكون الكتابة ، وليست هذه لحظة للتبجح ، ولكنها كشف عن سخرية الموقف ، « لاتكتب إلا إذا كانت لديك رسالة محددة تريد أن تنقلها إلى القارىء » . عبارة كان لها في وقتنا رنين الحكمة ، وكأن ساعي البريد قد أفرغ حقيبته .

لا أدري لماذا اخترت القصة القصيرة كشكل للتعبير ، ربما لأني لاأجد القدرة على مواصلة الحديث لفترة طويلة ، وربما بسبب من نظرتي الجزئية وولعي بتلك الأشياء الصغيرة ، لقد تعلقت بها ، وشعرت على نحو ما بأننى وجدت شيئاً يمكنني أن أودعه حلماً ، وأن تكاملي نفسياً واجتماعيا عبر الوصول إلى يقين ما ، وقف على مدى تقدمي في ذلك الإطار الفني وحده ، المهم أن ذلك كان يتوافق مع أغراضي المبهمة ، والأهم من ذلك كله أنه أعجبني أن أكون كاتباً للقصة القصيرة !

دلالات الجنون

كان لقاؤنا الثاني ــ لمواصلة الحوار ــ في منزله الصغير في امبابة ، وكما توقعت تماماً واجهتني « الموناليزا » بنظرتها المحيرة على جدار مكتبه ، وكما توقعت أيضاً كان يجاورها « دون كيشوت » شاهراً سيفه ، هذه هي إذن غرفة « يوسف النجار » بطل روايته « مالك الحزين » تماماً كما وصفها في الرواية ، الأرفف المثقلة بالكتب والمجلات ، ورائحة عتيقة تنبعث من أشيائه الصغيرة ، صينية شاي معلقة على الحائط كانت ضمن جهاز أمه يوم عرسها ، الراديو العتيق الذي اشتراه من بائع الروبابيكيا ، بيك آب عتيق ، قارب فرعوني ، أشياء ، أشياء بالغة العتق ، بالغة الجمال ، بالغة الإحساس .

قلت لإبراهيم :

« اثنان وعشرون عاماً مضت على أول قصة قصيرة نشرتها ومع ذلك لم يصدر لك حتى الآن سوى مجموعة قصصية « بحيرة المساء » عام ١٩٧١ م ، ورواية « مالك الحزين » عام ١٩٨٣ ، بماذا تعلل هذا « الكسل » الأدبي ؟

ــ حقيقة « مش عارف » أذكر منذ أكثر من خمسة عشر عاماً ، عندما طلبت مجلة « المجلة » من الدكتور شكرى عياد ، كتابة دراسة عن قصتى « بحيرة المساء » ، استدعاني للقائه ، وعندما أحس أن الكتابة بالنسبة لي مرهونة بمزاجي وتقلباته ، حذرني ونبهني بقوله إن عملية الابداع الفني مرهونة بالارادة والتصميم على الابداع ، ربما أفتقد أنا هذه الارادة ، وربما كما فسر البعض الخوف من الفشل بعد النجاح ، وربما ظروف الحياه غير الإنسانية التي تحاصرني ، وربما أيضاً لأنني محب للأدب والفن أكثر من مزاولته ، وحماستى للكتابة ليست حماسة كافية ، عموماً فأنا من الكتاب الذين علاقتهم بالكتابه علاقة بالغة القسوة مما يجعل القدر المتوفر من الحماس غير كاف لاستنزاف نفسي سنوات ، كما أن عملي يستهلك مساحة كبيرة من يومي ، وماتبقى لي أجد في نفسي ميلاً إلى استثماره في الإستماع والتذوق والقراءة أكثر من الكتابة ، جميع هذه الأسباب المطروحة أجد في نفسي ميلاً للاقتناع بها ، لأنها تبدو لي معقولة ، ولكن يبدو أن السبب الحقيقي مجهول وغامض حتى بالنسبة لي ، احياناً أشعر « بالزهق » من الكتابة ، وأحياناً « أتلكك » كي لا

أكتب ، عموماً فأنا لم أنشر كل ما كتبته ، ولدي من القصص ما يكفي لنشر مجموعتين .

• ولماذا لم تقم بنشرهما إذن ؟

ــ « مش عارف » لست متحمساً لذلك ! !

شهادة رقم (١)

إن إبراهيم أصلان ليس من ذلك الطراز من الكتاب الذي يسمى باللامنتمي ، إنه من طراز « الرافض » وليس الرفض عنده تمرداً صريحا مباشراً حاراً ، لقد رأيته في بعض القصص التي أعاد النظر فيها ، يحذف كلمة « جداً » ويستبد لها بكلمة « كثيراً » لفرط حرصه على ألا يكون في عباراته مايشي حتى بالحماسة أو التأكيد على شيء ، « هذا الكاتب يريد أن يقول لنا بطريقة فعالة وجديدة . كل شيء ، كما أراه ، كما أريه لكم ، كما ترونه معي ، مرفوض » « إدوار الخراط » .

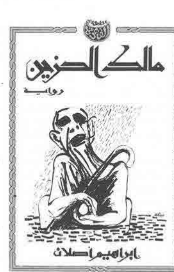
وسألته :

• لماذا تبدو دلالات الجنون في قصصك مكثفة سواء أكان المجنون صامتاً منزوياً عن العالم أم كان ثرثاراً لايكف للحظة عن الحديث ؟

ــ شخصياتي كما رسمتها في قصصي تبدو لي بعيدة كل البعد عن شبهة الجنون ، لقد أدهشني النقاد فعلاً عندما قالوا إن عالمي القصصي مشحون بالمجانين ودلالات الجنون ، يبدو أن الجميع قد ألفوا الإيقاع العام للحياة بمفاهيمه ومعتقداته على الرغم مما يحتويه من زيف وتشويه ، ولذلك يوصم بالجنون كل من يتلمس منفذاً للخروج من بؤرة « العفن » هذه ، والمدهش أنه كلما اقترب الكاتب مماهو حقيقي وصادق بدت لنا شخصياته غير حقيقية أو مختلفة لفرط ما ألفنا الزيف والتشويه .

• و .. لماذا تسيطر الرغبة في التعري على شخصياتك ، وهل ينطبق عليها التفسير الفرويدى الذى يقول ان رغبة الرجل الناضج في التعري تعود إلى رغبتة في استرجاع فردوس الطفولة المفقود ، أم أن لديك تفسيراً آخر ؟

ــ لا يوجد لدى أي تفسير لهذه الرغبة المسيطرة على بعض الشخصيات في التعري ، فأنا عندما كتبت لم أكن أقصد الإيحاء بأي معنى ، ولكني وجدت أن لحظة التعري تلك ملائمة فنياً ، وبها تكون القصة أعمق وأفضل ، وإن أدت إلى معنى : فهو معنى مضمر في شكل تجربة مختزنة ، وعلى ضوء هذه التجربة يظهر نوع من المعرفة لايتيحها لنا إلا الفن ، أنا شخصياً لا أهتم بأن يكون للقصه مغزى عند كتابتها ، بل إنني أستبعد كل شبهة حوله حتي لوجاءت عفواً ، أظنها مسألة خطيرة جداً ، مسألة المغزى هذه ، أن تتم عملاً ، هذا وحده كفيل بأن يفسد كل شيء ، إنها تثير جدلاً ولكنها لا تنتج فناً يرقى إلى مستوى التجربة التي يمكن أن تضاف إلى تجارب الناس ، أو تثريها ، أن تهتم بأن يكون لقصتك مغزى



غلاف رواية مالك الحزين



● كان محيي الدين محمد حظاً ثقافياً سعيداً في حياتي

● علاقتي بالكتابة علاقة بالغة القسوة

يساوي أن تهتم بأن تضيف لطفلك أنفاً أو قرنا ، والمسألة في الكتابة ليست أن تلوي عملك ــ ولاطفلك ــ نحو وجهة ينمو فيها ، ولكن المسألة هي استبعاد كل مامن شأنه أن يعوق نمو هذا العمل

• وعن ذلك الحشد من المسنين في قصصه أيضاً قال :

ــ المسنون تجسيد حقيقي لوحدة الإنسان في العالم ، أنا أعيش في الأحياء الشعبية ، حيث المسن لايملك إلا الوحدة والجلوس أمام المقهى الشعبي ، أتكلم عن مسني أحيائي أنا الذين أحبهم ، وأنا خير من يقيم علاقات معهم ومع المرضى نفسياً ، ربما لأنني أمنحهم إصغائي بحب ، والليل لايحمل إلا الأشخاص الوحيدين ، منذ أحد عشر عاماً لم أنم الليل ، أكون مع مسن أو مع وحدتي ، أحياناً تصبح الوحدة كالشيخوخة ، والعزوف عن الأشياء الجميلة شيخوخة أيضاً ، وكذلك عدم القدرة على التواصل مع الآخرين .

شهادة رقم (٢)

« في قصص إبراهيم أصلان يتكشف لنا عالم غريب وطعم خاص لانجدهما عند غيره من الكتاب ، إن أشد مايبهرنا في هذه القصص هو تلك الروح الشاعرية التي تشيع فيها ، نستشف من ورائها معاناة عميقة وحادة تحمل في داخلها احتجاجاً بالغ المرارة ، والكاتب متمكن من أدواته الفنية يستعملها ببراعة فذة ، فهو يدخلنا في جو قصصه من التقاط قسمات العالم الخارجي وحركة الحياة العادية ، كما يتميز الكاتب بقدرة نادرة على إدارة حوار مقنع ومركز . وعالمه يتأرجح بين العقل والجنون ، عالم يقف على الحافة » « غالب هلسا » .

• تلجأ في قصصك إلى حوار نمطي لايؤدى إلى تواصل أو انفتاح ، حوار يعود على الشك في كل شيء ، ويشير إلى أفعال وتصرفات ، يتعلق بظواهر خارجية ولكنه لايفصح قط عن حالة من حالات النفس ، بحيث يصعب علينا العثور على كلمة أو عبارة تشف عن أن في العالم عاطفة .

ــ إذا افترضنا أن الفن وسيلة الفنان التي تكاد تكون وحيدة لتكوين معرفة أكثر صحة بالإنسان وبالعالم ، إذا افترضنا هذا ، لوجب علينا الاعتقاد أن أفضل الوسائل لتحقيقها هو أن نلتقي مع الأشياء كما هى فى وجودها الواقعي ، بمعنى إذا تحدثت عن الشجرة أن أسميها باسمها ، شجرة أو نهر أو عصفور ، وأنا أظن أن إضفاء مشاعر الكاتب الخاصة على هذه الاشياء هو شيء شبيه بتزييف هذا الواقع ــ الأشياء وليس البناء ــ وأظن أن الخطأ الذي يقع فيه العديد من الكتاب هو اعتقادهم بأن القيمة الجمالية في العمل الفني هي استثارة المتلقى من خلال هذه اللغة التى تعتمد على التشبيهات

إبراهيم أصلان:

مذبحة الثقافة سبقت مرحلة الانفتـــاح الاستهلاكي البـغيض!

والاستعارات وما إلى ذلك ، بينما القيمة الجمالية في العمل الفني تتركز أساساً في قيمة العلاقات والنسب الموجودة داخل هذا العمل ، وأنا أتخوف كثيراً وحذر من أن تتحول اللغة عندي وبالذات لغة الحوار إلى قيمة تشكيلية ، وعندما أحاول التعبير عن بعض الهموم والجراح كتابة ، فأنا أفضل نزع الضماد عن الجرح لأكتب عنه كما أراه عاريا ، ولكن هناك من يفضل وضع الضمادات المتراكمة على الجرح ، والكتابة بالتالي عن الضماد لا الجرح .

• بماذا تفسر جملك « التلغرافية » ؟

ـ السبب مدهش جداً لم ينتبه إليه أحد ، بحكم عملي اطلعت على كم هائل من البرقيات التلغرافية الصادرة منا إلى دول العالم ، والواردة من دول العالم إلينا ، ولأن المسألة مرتبطة بخفض التكلفة فقد تفتقت أذهان الناس عن صياغات معجزة في عدد كلماتها وفيما تحمله من أخبار ومعلومات وأنباء : يستوي في ذلك المتعلم والجاهل الذي يقوم بإملائنا صيغة برقية تحمل كل ما يمكن حمله من معان في أقل عدد ممكن من الكلمات ، صياغات مذهلة ، لا تحمل أي تلاعب باللغة ولاتحتمل إلا معنى واحداً يعتمد على العناصر الأولية للكلمات العادية المحددة الحاسمة .

• يأخذ عليك غالب هلسا أنك برؤيتك المحايدة المزدرية إلى حد ما لما يدور حولها ، أو بتعبير آخر اختيارك لمنهج « النظرة » الباردة ، تحذف أهم عنصر من عناصر التجربة الفنية وأكثر أدواتها فعالية للتعبير عن الواقع وهذا هو انحياز الفنان ؟

ـ ليس مهماً انحيازى ككاتب ، المهم أن تعين كتاباتي الآخرين على تحديد انحيازهم ، من الضروري أن تكون هناك مسافة مأمونة بيني وبين العالم الذي أبدعه ، وهذا لايعني بالتأكيد اتباع منهج النظرة الباردة ، إن المواقف المعلنة والمباشرة للكاتب بغيضة إلى نفسي ، وإن كنت ـ في الواقع ـ منحازاً في اختيارى للموضوع ، وفي اختياري للزاوية التي أنظر منها ، منحازاً في اختياري للكلمات والجو العام ، بل إن الكاتب يكاد يكون النص بكامله ، وبالتالى هذا ينفي وجود كاتب منحاز وآخر غير منحاز ، ولكن درجة الانحياز تختلف ، وصورها تختلف أيضاً .

• ويأخذ عليك أيضاً غالب هلسا ـ نمطية ثابتة في السلوك والنماذج تكاد أن تصل إلى حد الميكانيكية ، وهذا من شأنه أن يؤدي إلى عقمك وجفاف موهبتك .

ـ هذا الكلام قيل عن « بحيرة المساء » وأعتقد أنني في « مالك الحزين » تجنبت هذه النمطية الثابتة في السلوك والنماذج .

• وكتب « غالي شكري » أيضاً بأن الوجه الرئيسي الذي يطالعنا لبطل قصصك هو وجه واحد لبطل محدد ، ولكن هذه القصص لا تتكرر من عنوان لآخر ، وإنما هي تتحرك من وضع إلى آخر ، ومن حالة إلى أخرى .

ـ وأنا لا أنفي هذا الكلام ، فإذا اتفقنا على أن الكتابة وسيلة لتكوين معرفة ما ، فقد كان من الضروري وجود مثل هذه الشخصية الرئيسية التي تكون قد عاشت تجربة ما ، وكان من الضروري لمتابعة نمو هذه التجربة واختزانها بما يؤهلها مع استمرار الوقت إلى امتلاك وعي ما أو رد فعل ما إلى أن تكون هناك شخصية محددة الملامح وليس عدداً متبايناً من الشخصيات ، ولقد حرصت على متابعة هذه الشخصية أثناء انتقالها من تجربة لأخرى من خلال القصص التي كتبتها ، حتى وصلت إلى مرحلة كتابة رواية « مالك الحزين » عندها شعرت أن معرفتي بهذه الشخصية قد توثقت وأنه قد آن الأوان لأعطائها مساحة أكبر في محاولة لاستنطاقها لنعرف أثر هذا الكم من التجارب على حياتها دون افتراض لردود فعل معينة .

شهادة رقم (٣)

« بالرغم من أن قصصه تبدو في جملتها وكأنها قصة واحدة إلا إن هذا يعني في نفس الوقت أن لا غنى عن قراءة هذه القصص بواحدة منها ، إن التكامل بين قصصه هو تكامل البناء الفني المتعدد الطوابق والأبعاد ، و « أصلان » لاينتمي إلى مدرسة « جاهزة » من مدارس الأدب الأوربي الحديث ، كما أنه ليس امتداداً مستقيماً لتيار محدد من تيارات الأدب العربي المعاصر ، وإنما هو كذلك الوجه الذي يطالعنا في قصصه تركيبة غنية العناصر والأصول متشابكة الجذور والفروع ، انتماؤها الأكبر والأشمل والأوسع إلى جيلنا وعصرنا ومرحلتنا التاريخية ، والرؤية التي تطالعنا من هذا الوجه رؤية « جديدة » أفسحت لكاتبها مكاناً بارزاً في طليعة كتاب القصة العربية القصيرة المعاصرة »
« غالي شكري » .

و .. سألته :

• تتدثر قصصك بالغموض ، فهل هي حيلة فنية أردت أن تقول من خلالها أشياء دون أن تتعرض للملاحقة ؟

ـ لا ، بالتأكيد : ربما ذلك ناتج عن أسباب لكني لا أعرفها ، لقد فوجئت بأن ماأكتبه غامض ، كان جهدي منصباً في أن أسمع إيقاع ما أكتبه ، لأنني لا أؤمن بأن الغموض شيء أساسي في القصة ، بل إنني أرفض ذلك ، ومقياسي الشخصي لنجاح القصة هو مدى وضوحها وإمكانية رؤيتها بشكل جيد .

• لماذا نحس بأنفاس « كافكا » متوهجة بين سطورك ؟

• هذه هي الملاحظة الثانية على تردد أنفاس « كافكا » في قصصي ، لقد سبقك محيي الدين محمد إلى ذلك عندما كتب لي معلقاً على قصة « الطواف » ، وأنا لا أجد ذلك غريباً فأنفاسه تتردد في أجواء عالمنا المعاصر ، بالإضافة إلى أنني أحببته كروائي ، وأحببت قصته القصيره « طبيب القرية » ولكني لم أحب « المسخ » لأنه ـ في رأيي ـ ليست مشكلة أن أستيقظ لأجد نفسي قد تحولت إلى حشرة ، ولكن المشكلة أن أستيقظ لأجد نفسي كما أنا .

• و .. لماذا اخترت « المقهى » ليكون مسرحاً لمعظم قصصك وبطلاً مكانياً في مالك الحزين ؟ .

ـ المكان شيء أساسي بالنسبة لي ، سواء كتبت تفاصيله أو لم تكتب : لابد أن تكون الحدود الجغرافية التي تتحرك فيها القصة كاملة وواضحة أمام عيني ، وأنا أختار منها ما يعني العمل ، ولكن بقية التفاصيل التي لا تكتب « مثلها في ذلك مثل الكلمات التي لا تكتب » تظل موجودة وحاضرة في قلب ذلك القليل الذى يكتب ، أقول لنفسي أحياناً إن ما يقال يكتسب قيمته الباقية من تلك الأشياء المجهولة والتي لا تقال أبداً ، ولقد اخترت المقهى مسرحاً لأعمالى ، لأنه المكان الأكثر قرباً من نفسي ، والأكثر معرفة بجغرافيته وتفاصيله الصغيرة ، والمقهى في الحي الشعبي ليس مكاناً للقاء العابرين ، ولكنه مكان لنمو علاقات إنسانية تتشابك وتتعقد لتشكل أحداثاً تحتل مساحات عريضة من تاريخه وتاريخ رواده .

• يستوقفنى كثيراً عند قراءة بعض الدراسات النقدية المبالغة فى تحليل شخصيات أي عمل روائي أو قصة بحيث تبعد تماماً عن ما أراد لها الكاتب ، وعلى سبيل المثال فإن أحد النقاد قال إنك أطلقت اسم « الهرم » على تاجر الحشيش فى الرواية كرمز للأهرامات والتى ترمز بدورها للماضى والذى ينبغى أن لا نتوقف عنده طويلاً وإنما نتطلع للمستقبل ، لقد بدا لي هذا التفسير مضحكاً .

• ولقد بدا لي أنا أيضاً كذلك ، وكل ما في الأمر أن هناك فعلاً في منطقة « الكيت الكات » حيث دارت أحداث الرواية تاجر اسمه « الهرم » بل إن معظم شخصيات الرواية حقيقيه ان لم تكن كلها ، وأنا حريص على تتبع مصائر هذه الشخصيات ، فالسيد حسني صائد العميان مات العام الماضى وما يعزيني أنه طلب من بائع البسبوسة في المنطقة أن يقرأ له الرواية قبل وفاته وكان سعيداً بها ، أما صبحى بائع الدجاج فقد أصيب بمرض خبيث وتوفى بعد رحلة علاج إلى لندن ، و « الهرم » فقد زوجته التى كان يعشقها فتخلى عن تجارته وأطلق

لحيته وأصبح حريصاً على إيقاظ الناس لصلاة الفجر.

ما أردت قوله إن الحياة مليئة بالناس والأسماء والحكايات وليس هناك مبرر لاختلاق أسماء وحكايات.

شهادة رقم (٤)

« يكمن الفارق الأساسي بين عدد من الكتاب الذين تأثروا بالفكر والموقف الوجودي من الحياة والعالم ، أن النفي والإحساس بعبثية الأشياء وتقبلها قرفاً ، ليس اختياراً ، « للقرف » والغثيان ، وإنما هو يحتوى في داخله على ضده ، مشروع الرفض الإيجابي ، الرفض لعالم معذب ، يصعب أن يكون سعيداً ، ولكن الصعوبة لا تلغي الإمكانية ، ويبقى عمله عمل فنان أصيل لا يرفع باسم جيله راية الهزيمة والعبث الوجودي المطلق ، ولكنه يسجل لنا وعلينا أننا جيل حزين » « فريدة النقاش ».

• هل تتفق مع الرأى القائل بأن « مالك الحزين » ما هى إلا مجموعة من القصص القصيرة تتشعب في المكان تبعاً لحركة أشخاصها من البيت إلى المقهى إلى الشوارع الفرعية ؟

ـ ما أوافق عليه هو أنني كتبت الرواية بمزاج كاتب القصة القصيرة ، وعانيت بسبب هذا معاناة شديدة لأنني كنت أريد إعادة النظر والتخلص من أشياء معوقة فنياً ، ولاحظت أنني أستطيع وضع يدي على بعض الفروق ، امتلاكك للأداة يسعفك على كتابة القصة القصيرة ، ولكن لايسعفك على كتابة الرواية ، وأنا أرى نفسي كاتب قصة قصيرة ، ولم أكتب الرواية بقصد أن أكون روائياً ، وقد كتبت الرواية كتجربة علها تضيف إلى فنياً ككاتب حتى يمكنني معاودة القصة القصيرة بشكل أفضل ، لقد ركزت على ذلك حتى أوضح أنني لم أشأ أبداً أن أكتب رواية بل إنني لا أعرف من هو الذي جعلني أحس دائماً بأن كلمة روائي كلمة ثقيلة الظل على قلبي ، والمدهش في هذه الكلمة أنك مهما قلبت فيها لن تجديها مقبولة أبداً وهى فى هذا الوقت بالتحديد إذا لم تكن مقرونة بلقب « الكبير » فإنها تضعك في قلب مهزلة ، وإذا قرنت بلقب الكبير أصبحت أنت المهزلة ، وهذا شيء غريب حقاً.

مذبحة الثقافة

وسألت « إبراهيم أصلان »

• لماذا أنت غاضب من الكبار ، نجيب محفوظ ، ويوسف إدريس ؟

ـ أنا لست غاضباً من أحد ، ولكن ما حدث في أوائل السبعينيات ، عندما تم الإجهاز على الثقافة المصرية ، وهي الشيء الوحيد الذي يعطى لمصر قيمتها وأهميتها ، عندما أغلقت معظم المجلات الموجوده مثل مجلة المجلة ، الكاتب ، الطليعة ، الفكر المعاصر ، الفن الشعبي وغيرها ، عندما تمت عملية حصار للنشاط المسرحي ، عندما بدأت هذه الهجمات المتصلة ، المتعمدة ، وهي في تقديري كانت مقدمة لكل الإجراءات التي تلتها ، مذبحة الثقافة سبقت مرحلة الانفتاح الاستهلاكي البغيض ، عندما حدثت هذه المذبحة حاول أبناء جيلي مقاومتها ، وإن كانت مقاومتهم لم تكن فعالة لأنهم لم يكونوا أصحاب مناصب ومراكز مؤثرة ، في تلك الفتره أدهشنا أن كتابنا الكبار اكتفوا بأدوار المتفرجين ، وكأن قضية الثقافة لاتعنيهم ، بل إنهم كانوا يكتبون في كل مشكلات حياتنا إلا المشكلة الثقافية ، نحن نلوم نجيب محفوظ ويوسف إدريس لأننا نتباهى بهما ونقدرهما ، وموقف الكاتب هو الذي يمنح كتاباته قيمة ، صحيح أن يوسف إدريس تصدى لأزمات حياتنا الثقافية بعد ذلك ، ولكن متى ؟ « بعد ما الدنيا خربت » !

• بماذا تفسر انتشار ظاهرة « أدب الماستر » ؟

ـ كان من الطبيعي أن تنتشر ظاهرة « الماستر »



بعد تصفية كل المنابر الجادة وبغض النظر عن قيمة ما يطرحه « أدب الماستر » إلا أنني أرى أنها ظاهرة إيجابية تعبر عن القوى الخلاقة التي لايمكن قهرها في بلد كبير مثل مصر ، والأمر المؤكد أن بعضاً من هذه الدوريات استطاع أن يكون له قدرة على الاستمرار وإلقاء الضوء على الكتابات الجادة ، وفي مقدمة هذه المجلات الجادة تأتي « مصرية » و « أدب الغد » و « خطوة » و « النديم » و « إضاءة ٧٧ » ولقد كان لأدب الماستر دوره في دفع الدولة إلى محاولة إصدار مطبوعات جديدة وجادة مثل « إبداع » و « القاهرة ».

• و .. ما رؤيتك لأدب السبعينيات في مصر ؟

ـ هناك بين أبناء هذا الجيل كتاب جيدون ، وأنا أنظر من ناحيتي إلى كل كتابة جديدة تقدم باعتبارها إضافة الى رصيد الكتابة التي من المفروض أن تسود ، ولكنني من ناحيتي غير قادر على تلمس شيء يتباين مع أدب الستينيات ، يمكن أن نرجع هذا الى أننا طرحنا في الستينيات رؤى تتباين تماماً مع ما سبقها ، الحساسية الجديدة التي طرحناها تجسدت في الجيل القائم بابداعاته في الأدب والفن ، باختصار إنني أجد فيما يقدمه جيل السبعينيات مفاجأة . ومن أبرز كتاب هذا الجيل ، أحمد النشار ، يوسف أبو رية ، إبراهيم عبد المجيد ، وفيق الفرماوى ، محمود الورداني ، المخزنجي.

• ولكن ، هناك رأي لـ « محمد كشيك » يقول بأن الاغتراب الذي تفشى بين أبناء جيل الستينيات دفعكم إلى الانزواء داخل قواقع العبثية والتجريد والغموض ، مما أبعد فن القصة ـ إلى حد ما ـ عن قطاع عريض من القراء ، وأن جيل السبعينيات يبذلون محاولات جيدة لتجاوز سلبيات جيلكم.

ـ « كشيك » قبل أن يكون شاعراً فهو ناقد متمرس ، وبالتالى قدرته على المتابعة والمقارنة أكثر دقة ، وقد يكون ما يقوله صحيحاً.

• و .. عن مكان قصصه من الترجمة قال :

ـ ترجمت معظم قصصي إلى العديد من اللغات العالمية ، كما أن « مالك الحزين » سيتم إنتاجها كفيلم سينمائي بعد موافقة الرقابة من إخراج داود عبد السيد مخرج « الصعاليك ».

• و .. قال أيضاً :.

ـ أهم الروايات العربية التي استوقفتني : « الوقائع الغريبة » لإميل حبيبي « الخبز الحافي » لمحمد شكري ، « قنطرة الذي كفر » للدكتور مصطفى شرفه ، « السائرون نياماً » لسعد مكاوي ، و « الحرافيش » لنجيب محفوظ. وبالنسبة للقصة القصيرة فإن أعمال الكاتب العراقي محمد خضير والأعمال الأولى ليوسف إدريس من أميز الأعمال في هذا المجال ، ومن أبناء جيلي : يحيي الطاهر عبد الله ، محمد البساطي ، وبهاء طاهر.

شهادة رقم (٥)

« مثل طفل سليمان الحكيم . وقف إبراهيم أصلان مدهوشاً يتنازعه النقاد ، أحدهم يتهمه بالرفض ، وثانيهم يحكم عليه بالتمرد ، وثالثهم يستعين عليه بفرويد ، ورابعهم يستعير من أجله كل النظريات العالمية ، وهو عنهم جميعاً لاه : قصاص رقيق ، هامس يعرف أدوات فنه جيداً ، ويعذبه سؤال تحاول قصصه كلها أن تجد له إجابة : لماذا ينعدم التواصل بين الناس ، وتقوم ـ فجأة ـ بينهم الحوائل والسدود » ؟

« فاروق عبد القادر »

و .. أنا أودع إبراهيم أصلان ، لاأدري لماذا تذكرت عنوان الدراسة التي كتبها الدكتور على الراعي عن روايته الوحيده « حزين .. مالك الحزين . »

سارة

أمام الشمس الغاربة

شعر: حسن توفيق

على شاطئ البحر كان النهار يبعثر آخرَ ذراته النائحه
وتتكئ الشمس متعبة فوق صدر المياه تحاول أن تستميت لتبقى
ولكن سدًى ....
فهاهي تسقط في البحر حيث يكفنها الموج ثم يواصل رحلَته الجامحه
وقربَ التقاء السماء مع الموج يولد شبه سواد خفي كأشباح غرقى
ويمتد ... يمتد حتى يحاصر روحي ... فأبكي ...
إلى أن تلوح وجوه صحابي ، فنمضي سويا ...
نحاول قهر الأسى ، أو نثرثر كي نغفل المشهدا

تبعث في صبح اليوم التالي الشمس
وأقول لمَن يطرق في الصبح الباب
أين الأصحاب ؟
الأصحاب افترقوا بالأمس ....

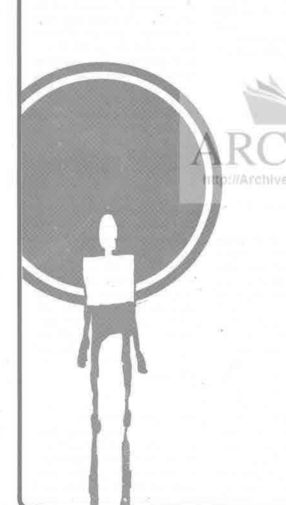
أثبت قلبي بصدري ، وعنوانَ داري بجيبي ، وأخرج ... أسعى
أطارد صمتي بأغنية من أغاني الحياة يرددها في الليالي الصحاب
وعند الظهيرة أمضي إلى البحر ، حيث أرى الشمس تسعى ...
وتمعن في الأرض لسعًا
وجمراتها تقهر المستحمين ، والنائمين على الرمل ــ مقتربينَ ومغتربينَ ــ
وفي البحر ملح عتي ، وفي القلب ملح أشد عتوا ، يوشوش روحي
ثم يضج ، ويعلن أن نهارَ النضارة غاب
فأهتف بالمستحمين والنائمين على الرمل : أنتم تموتون صرعى
ألا تسألونَ لماذا ؟ إذن فامرحوا ياوجوهاً تغيب خلال الضباب

أتشاغل بالعبث المجنون بأصداف البحر
بحفيف الأغصان الجافة والخضراء
وأقول لروحي ــ وأنا ألمس بعض الصخر ــ
فلتنطلقي حتى لاتنتظري جثةَ أحد الأحياء .

يداهمني بالنعاس غريم قديم ــ جديد ... ولست أراه
وذاتَ صباح سيهرع أهلي إلى أصدقائي
يقولون : « إن فلانا تخاذل رغما عن الأغنيات .. » ...
... ويخلو مكان فلان ، ليأتي سواه
فيجهش بعض من الأصدقاء : « رأيناه أمس يغني ...
ويرنو إلى نجمة في السماء ... »
ويبقى المكان
وتولد شمس الصباح ، وتغرق في البحر ، ثم تعود مع الصبح تولد ... إلا فلان ...

هو ذا يرقد رطبا فى الأرض الصخرية
يخرج ــ في زمن مَا ــ قطعةَ صخر
تتقاذفها أيدي الصبية
فوق شطوط البحر
وتبقى الحياة

تجدد دورتها باشتهاء ، وتخرج من ذاتها في سخاء ...
لتغنَى بميلاد أطفالها
ويبقى ــ على الرغم مما نراه ــ جياع يحيلون إشراقةَ المتخمين
شحوباً ، ويبقى جياع يغنونَ للمتخمينَ ...
وفي الليل يفتح كل نوافذه المغلقات ، فيصحو أساه
ويبقى شقي ينادي أخاه ــ نبقى نغوص بأوحالها ؟ » ..
وتبقى قصائد حب تمجد ــ رغم عذاب الحياة ــ الحياة



أوراق خضراء

الكلمة الحية لا تموت بل تزدهر وتزداد جمالاً مع الأيام
وهذه مختارات ثقافية حية من الصحف العربية القديمة

- أحلام العام الجديد والوزراء الأدباء
- رأي الأزهريين في لبس القبعة

مقال طريف بقلم: الدكتور زكي مبارك



في هذا المقال الطريف الذي كتبه الدكتور زكي مبارك في بداية عام ١٩٤٢ ، خلال الحرب العالمية الثانية وما أثارته من أزمات ، يرشح الدكتور زكي مبارك عدداً من كبار الأدباء لتولي مناصب الوزارة ، ويتم تشكيل هذه الوزارة « الأدبية » على الشكل التالى : الزيات « رئيس للوزراء » العقاد «وزير للخارجية» توفيق الحكيم «وزير للأوقاف » زكي مبارك نفسه « وزير للداخلية ». هذا هو نص المقال الطريف ومبررات تحديد المناصب من وجهة نظر الكاتب الكبير :

التفت أخونا الأستاذ الزيات فرأى العام الجديد لا يخيفه إلا من ناحية « استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها إلى عشرة أضعاف » ، فتوكل على الله وقرر أن «الرسالة ستستمر على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والإهداء مع المشتركين الجدد فيؤدون الاشتراك كاملاً أو غير مقسط » . وبهذا ظهر « امتياز » الصديق القديم على الصديق الجديد !

والتفت فرأيت العام الجديد يخيفني من ناحية غير تلك الناحية ، فأنا لا أشكو غلاء الورق ولا ارتفاع مواد الطباعة ، بعد أن أرجأت النظر في طبع مؤلفاتي الجديدة إلى أن تنتهي الحرب ، وإنما





أحلام العام الجديد والوزراء الأدباء



الزيات : رئيس الوزراء



العقاد : وزير الخارجية

الحكيم : وزير الأوقاف

أشكو غلاء العواطف وارتفاع أثمان الصدق إلى ألف ضعف لاعشرة أضعاف.

وما ظنكم بزمان لا يبرع شعراؤه في غير الحديث عن «الرغيف»، كالذي ترون من يوم إلى يوم في بعض الجرائد والمجلات؟

ماظنكم بزمان يعد فيه الحديث عن أحلام القلوب ضرباً من الفضول؟

إن هذه المحنة العاتية هي الفرصة لاختيار ماعند أدبائنا من عناصر الثروة المعنوية، فيها نعرف ماعندهم من أرزاق الروح والذوق والوجدان.

أيكون الكلام عن «الرغيف» توددا إلى أهل البطون، وهم ألوف أوملايين؟

إن كان ذلك فأين الأريستوقراطية الأدبية وهي تسمو على الحاجيات اليومية؟

أيكون الكلام عن الرغيف فرصة من فرص القول يهتبلها من لايصل إلى بعض الجرائد والمجلات إلا بعناء؟

إن كان ذلك فأين تصون الأديب عن الكلام المبذول؟

سمعت ــ بل علمت ــ أن مدرساً في «قنا» أرسل إلى جلالة الملك برقية يشكو فيها انعدام الرغيف، فماذا وقع من الخطر حتى يجوز مثل هذا الصراخ؟ وماذا تصنع لو أصبحت بلادنا وهي ميدان حرب. وقد تصير كذلك إذا طال استمراء المتحاربين لما اندفعوا إليه من استطابة الجنون؟

وإذا استجاز «المدرس» أن ينظم القصائد الطوال في الشوق إلى الرغيف وهو مدرس يقتات بالعواطف والأحاسيس، فماذا يصنع «الفلاح» أو «الصانع» وهما شخصيتان تعتمدان في القوت على الرغيف؟

لعل الأيام أرادت أن تعلمني ماكنت أجهل. فقد طال مني التجني على الصوفية (وكانوا يدعون إلى التحرر من ربقة الرغيف) فهل كان للرغيف مثل هذه الآفة في العصور الخوالي؟

ولعل الأيام أرادت أن تقنعني بأني صرت من الحكماء من حيث لاأعرف، فقد هجرت الخبز منذ أعوام طوال، واكتفيت بما تيسر من الخضروات، بغض النظر عن اللحم الذي آكله باسم النقد الأدبي، وهو لحم غاب اسمه عن «دولة الحاكم العسكري» فلم يفرض على من ينتاشه أي عقاب!!!

ماتهمني أزمة الرغيف، وانما تهمني أزمة القلب.

ولو كان في وزراء مصر لهذا العهد من عانى أزمات القلوب لعرف كيف يحارب أزمة الرغيف، لأن القلب هو الأساس في فهم أخطار الوجود.

الظبية تجتزئ بالعشب فتستغني عن الماء، ومن أجل هذا سميت جازية، و «جازية» من أسماء الملاح في هذه البلاد وإن لم يعرف الجمهور مافيه من معنى مألوف.

فانا فقدت الظبية العشب، فكيف تعيش وبه غنيت عن الماء؟

لن أنسى أبدا سخرية «فاجيه» من «أفلاطون». وفاجيه كان أكبر من اهتممت بآثاره الأدبية والفلسفية من بين أقطاب الأدب الفرنسي، وعن سيرته تعلمت أشياء هي الهادي والدليل في حياتي الأدبية، فأنا أسجل كل مايعتلج في صدري قبل أن يضيع، ثم أقدمه للجرائد والمجلات حين أشاء، بلا تقيد بالمكان والزمان!

وفي هذه المرة أكون أعظم من أستاذي فاجيه، فقد سخر من تسامي الفلاسفة إلى ولاية الحكم وهو ينقد أفلاطون. أما أنا فأرى أن الفلاسفة هم أقدر الناس على إقامة الموازين بالقسطاس.

نحن، رجال القلم، أعرف خلق الله بما يشتجر في الصدور من آلام وآمال.

كانت الحكومة الى رجال يعيشون في حصون تقفل أبوابها بالنهار وبالليل: فلا يعرفون مايعاني الشعب من ظلمات الحوادث والخطوب...

ولم نكن كأولئك، فنحن قوم نعيش للشعب وفي صحبة الشعب، ولنا فيه أعمام وأخوال، ولن نتجنى عليه بأي حال.

ونحن مع هذا معرضون لدسائس سود، ومن الواجب أن نبدد تلك الدسائس، بلا تسويف، تمهيداً للوزارة التي سنؤلفها في العام الجديد.

قيل إن الزيات متأنق في الأسلوب، فهو يزاوج بين لفظ ولفظ بغير عناء، وأقول إن هذه النزعة تنفع في المزاوجة بين الطبقات والأحزاب، حين يمسي الزيات وهو رئيس الوزراء.

وقيل إن العقاد مولع بوصل مابين الشرق والغرب في الآفاق الفكرية، وأقول إنه أصلح الأدباء لتولي وزارة الخارجية.

وقيل إن أحمد أمين لايجيد الكلام في غير البحث المطروق، وأقول إنه أصلح لوزارة المواصلات، فلن نجدد فيها إلا بعد انتهاء الحرب.

وقيل إن المازني أول أديب حج بيت الله في غير موسم الحج، فهو إذن أصلح الأدباء لأن يكون سفير مصر في الحجاز، وإن قال في صلاة «زكي باشا» ماقال.

وقيل إن توفيق الحكيم يحب «السيدة زينب» فهو إذن وزير الأوقاف.

وقيل إن طه حسين لم يجد في «هامش السيرة» غير الحديث عن «الراهب» فهو إذن وزيرنا في بلد النجاشي.

وقيل إن محمود تيمور لايحسن القول إلا في وصف الطبقات الشعبية، فهو إذن وزير الشؤون الاجتماعية.

ولاموجب للحديث عن الأدباء الغدرة من أمثال: عبدالقوي أحمد ومحمد هيكل ومصطفى عبدالرازق، فقد تولوا الوزارة قبل أن يستأذنوا إخوانهم من رجال القلم البليغ!

بقي مكاني في الوزارة المنشودة: فما عسى أن يكون؟

هل أختار وزارة المعارف؟

وكيف وهي وزارة متعبة، وماتولاها رجل إلا عرف خطر المشي على الشوك؟

صار من تقاليد وزارة المعارف أن يهدم الخلف مابنى السلف، وأنا أكره التقلبات الكثيرة، وأبغض الضجيج المفتعل، والصياح المصنوع.

يضاف إلى ذلك أني نشرت مقالات تفوق العد والاحصاء في شؤون التربية والتعليم، ومن الجائز أن يطالبني الجمهور بتحقيق مااقترحت في تلك المقالات، وهناك الخطر كل الخطر. إلا أن أروض



زكي مبارك : وزير الداخلية



طه حسين : وزيرا للنجاشي

نفسي منذ اليوم على التنصل من تلك المقترحات !

هل أختار وزارة الداخلية ؟

هذا هو المركز اللائق برجل يغضب للشعب ، ويثور على الاحتكار والمحتكرين .

إن توليت وزارة الداخلية — وهذا أمر قريب — فسأفرض على رجال الحكومة في مختلف الأقاليم أن يعرفوا جميع البيوت وجميع الناس ، ليدلوا الدولة على المستور من الثروات والنيات ، وسأجعل من سلطة الشرطة جيشاً يمزق الشراذم الباغية على الأمن والنظام ، وهل يهدد الأمن والنظام بمثل الإصرار البغيض على احتكار الأقوات ؟

لن أنتظر حتى ينتفع الناس بوعظ الواعظين ، وإرشاد المرشدين ، فقد ظهر أن في الدنيا قلوباً لايقومها وعظ ولا إرشاد ، لن أنتظر غير حكم العدل ، والعدل يوجب أن يعرف وزير الداخلية حقيقة الثروة المدفونة في زوايا البيوت ، بيوت الأغنياء والفقراء ، فأنا أخشى أن تكون هذه الأيام قضت بأن يكون في الفقر تزوير وافتعال ، ولم يكن المصريون كذلك في الأيام الخالية ، فقد كانوا يسترون الفقر عن الأقربين قبل الأبعدين .

إن توليت وزارة الداخلية — ويجب أن أتولاها — فسأحرم العمد نعمة الثرثرة فوق المصاطب ، وسأحولهم إلى جنود نافعين ، فأولئك أقوام يعلمون من أمور بلادهم كل شئ ، ولكنهم يكتمون مايعلمون ، فان طووا عني مايجب أن أعرف فسأقضي فيهم بالعدل ، وهم يفهمون جيداً خطر العدل .

أليس من العار أن يصبح التموين مشكلة من المشكلات في مثل هذه البلاد ؟

وكيف تكون الحال لو شاءت المقادير أن نطالب بتموين مئات الألوف من الجنود يوم يدعو الداعي إلى الجهاد ؟

اللعب في أمثال هذه الأيام لايليق ، ومن اللعب القبيح أن يكتز ناس مايملكون من أصول الأقوات لينتفعوا بالربح الحرام على حساب الشعب المهدد بالجوع .

وأنا مع هذا أعرف ما تصير إليه سمعتي يوم أتولى وزارة الداخلية ، فسيقول السفهاء من الناس إني خليفة الحجاج ، وسيتخذون من شراستي دليلاً على أن المواهب الأدبية تنطوي على جحيم من الطغيان المكبوت .

وماخوفي من القال والقيل وأنا في غنى عن رضا الناس ، ولن أتقدم يوماً بخوض معركة انتخابية ؟

إن رجال الأقلام أصلح الرجال لسياسة الدولة في السنين العجاف . وهل يشقى أحد في سبيل الأمة كما نشقى ؟ وهل يعرف أحد من متاعب الأمة بعض مانعرف ؟

الوزراء في الأمم الدستورية لايقدرون على الحزم إلا في أندر الأحيان . لأنهم مقيدون بعواطف الناخبين . وفي الناخبين خلائق لاتعطي أصواتها إلا لغاية مطوية ، هي السكوت عن آثامها الثقال

ولن أكون وزيراً برلمانياً يحسب لعواطف الناخبين ألف حساب قبل أن يقدم على إعزاز شريعة العدل .

سأكون بإذن الله وزيراً يختار لغرض واضح صريح : هو القضاء على البغي والفساد ، وزجر من يحرمون الشعب من الأقوات .

وقد فكرت في مصير البرلمان الحاضر ، وهو برلمان طال حوله الخلاف ، ثم صح الرأي على السكوت عن هذه المعضلة الدستورية إلى حين ، فما يتسع وقتي للنظر في شئون تضر أكثر مما تنفع . وهل تحتاج الأمة إلى برلمان إلا حين يعوزها الحاكم الرشيد ؟ — إنما أسأل أمام ضميري لاأمام البرلمان » .

سأفاضل بين الأحزاب على أساس غير الأساس المعروف ، فلن تكون هناك أغلبية وأقلية ، وإنما يكون التفاضل بقدرة هذا الحزب أو ذاك على توفير أسباب الرخاء .

لن يقول النحاس باشا : « أنا أول من أنذر بأزمة التموين ،فسأسوقه سوقاً إلى الطواف بالبلاد لدعوة أنصاره إلى الإفراج عن القوت المحبوس .

ولن يقول الدكتور ماهر باشا : « أنا أول من تأهب للحرب » ، فسأجره جراً إلى ميدان جديد هو حرب الغلاء !

سأغير من أخلاق الناس ، إن دعيت إلى ولاية الحكم في هذه الأيام ، وليس ذلك بالأمر البعيد ، فقد جربت جميع القوى السياسية ، ولم يبق إلا تجربة القوة الأدبية ، وهي أقوى من الزمان .

أما بعد فهذا حلم من أحلام العام الجديد ، ولكل عام أحلام هو لفتة روحية ستؤتي ثمارها بعد حين ، فمن الشر الموبق أن يحال بين رجال القلم ومايشتهون من إقرار العدل ، وماكانوا في الحاضر والماضي إلا موازين .

دعوناكم ألف مرة إلى الاعتراف بالسلطة الأدبية فلم تسمعوا ، ونهيناكم ألف مرة عن تناسي السلطة الأدبية فلم تنتهوا . فهل جازيناكم صداً بصد ، وإغضاءً بإغضاء ؟

لا ، والله ، وإنما مضينا على السجية الكريمة ، فأوقدنا في صدر الأمة جذوة الشوق إلى التماسك والتساند والتآخي ، فما كان في الأمة من خير فهو من صنع أقلامنا ، وما كان في الأمة من شر فهو من جناية الراغبين في السيطرة والاستعلاء .

لن تصلح الأمور إلا يوم تصبح المقاليد بأيدي رجال القلم البليغ ومن قال بغير ذلك فهو بقية من بقايا الطغيان البغيض .

أتريدون الدليل ؟

نحن نبخل بالحكم لقطعة شعرية أونثرية حين نراها بعيدة عن الجيد المستطاب . مع أن الحكم لقطعة شعرية أو نثرية لايقدم ولا يؤخر في سياسة البلاد .

وأنتم تضفون الألقاب السنية على من تحبون بغير حساب ، وقد تسندون بعض المناصب إلى من لايزكيه غير رضاكم عن أسلوبه في حفلات الاستقبال .

الأدباء هم أقدر الرجال في مصر على عصيان الأهواء .

ألا ترون كيف نحارب منافعنا في سبيل النزاهة الأدبية ؟

نحن نصاول الأحزاب والهيئات في كل يوم لنرفع قدر الفكر والرأي ، ونرحب بجميع المتاعب في سبيل تلك الغاية العالية ، فأين من يصنع بعض الذي نصنع ؟ وأين الذي يعاني في سبيل المبادئ السامية بعض مانعاني ؟

لو سخرنا أقلامنا في سبيل الغايات الوقتية لسددنا الطريق في وجوه الكثير من طلاب النفع الموقوت ، وهم أعمدة المجتمع فيما يتوهمون .

إلى أقلامنا يرجع الرأي في سياسة هذه البلاد ، وإن بعدنا صورياً عن المناصب الوزارية والبرلمانية ... فلكل وطن روح ، وروح هذا الوطن هو رسالة القلم البليغ ، ..

زكي مبارك

١٩٤٢



بقلم: محمد محمد المدني

كتبت فى إحدى « مراسلاتى » كلمة موجزة عن « اختلاف الأزهريين » سجلت فيها ظاهرة غريبة ربما عدت شأنا من شئون الأزهر الخاصة ، وعلامة من علاماته المميزة : تلك هي التفاوت البعيد فى النظر إلى الأشياء والحكم عليها مع أن القوم يشربون من معين واحد ، ويصدرون عن ثقافة ما ترى فى أصولها من تفاوت ، وقد اختصرت فى ذلك بعض الأمثلة ، ولم أعرض لذكر الأسباب فكتب إلى كاتبان فاضلان من قراء « الرسالة » يسألنى أحدهما أن أذكر بعض المثل واضحة مفصلة ، ويسألنى الآخر أن أبين الأسباب التى تفضى بالأزهريين إلى هذا الخلاف فى الحين بعد الحين . ولست أحب أن أعرض لذكر الأسباب كما يريدنى أحد هذين الكاتبين ، فأنه ليعلم أن القول فى ذلك مؤلم موجع فى بعض نواحيه ، وفى الأزهر نفوس لا نحب لها أن تألم وجنوب عزيز علينا أن تقض . فحسبنا أن نذكر بعض المثل الواضحة فى هذا الشأن تبصرة وذكرى لعلهم يرجعون :

المثال الذى اخترته ليس فكرة من الفكر التى تشغل الناس اليوم وإنما هو فكرة تاريخية قد تداولتها عهود ، ومرت بها أطوار تبتدىء من أواخر القرن الهجرى الماضى : ذلك المثال هو « رأى الأزهريين فى لبس البرنيطة » . وقد اشتغل الأزهريون بهذا الموضوع أربع مرات :اشتغلوا به لأول مرة فى عهد الشيخ محمد عليش مفتى السادة المالكية المتوفى سنة ١٢٩٩ هـ ، وقد سجلت « الرسالة » رأى هذا الشيخ فيما نشرته « للناقد الأزهرى » (بالعدد ٤١٦ ص ٨١٣ من السنة التاسعة) ، وقد جاء فى ختام هذا الرأى ما نصه :

« إنه تقرر فى شريعة المسلمين أن حكم هؤلاء ــ يقصد لابسى البرنيطة ــ أمرهم بالتوبة والرجوع إلى دينهم والتزيى بزى المسلمين ، وامهالهم لذلك ثلاثة أيام ، فإن فعلوا ذلك قبلت توبتهم ، وخلى سبيلهم ، وإن تمت الأيام الثلاثة ولم يتوبوا قطعت رقابهم بالسيف ، ولا يغسلون ، ولا يصلى عليهم لموتهم على الكفر .. »

واشتغل الأزهريون بهذا الموضوع مرة ثانية فى عهد الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رضى الله عنه وأرضاه ، حينما سأله الحاج مصطفى الترنسفالى فى أنه يوجد أفراد فى بلاد الترنسفال تلبس البرانيط لقضاء مصالحهم وعود الفوائد عليهم فهل يجوز ذلك ؟ فأجابه بفتواه المختصرة التى أقامت الأزهر يومئذ وأقعدته . وهذا نصها كما جاء فى محفوظات دار الإفتاء المصرية (رقم ١٩٠ ــ ٦ شعبان ١٣٢١هـ) : « أما لبس البرنيطة إذا لم يقصد فاعله الخروج من الاسلام والدخول فى دين غيره فلا يعد مكفرا وإذا كان اللبس لحاجة من حجب شمس أو دفع مكروه أو تيسير مصلحة لم يكره كذلك لزوال معنى التشبه بالمرة » .

ثم عرض الأزهر لهذا الموضوع مرة ثالثة فقيل إن جماعة كبار العلماء أو لجنة منها بحثته وأصدرت فيه رأيها وهو يقضى بعدم جواز لبس البرنيطة . ولم أطلع على سند هذا الرأى لأنه ليس للجماعة مكتب ولا سجل منظم تقيد فيه بحوثها ، وتسجل آراؤها . وقد أردت فى العام الماضى أن أطلع على بعض الرسائل العلمية التى تنال بها عضوية الجماعة فتدافعنى الموظفون فى الإدارة العامة واحداً إلى واحد ، ثم لم أهتد إليها ولم يبح لى أحد بسرها !

وأخيراً عرض لهذا الموضوع رجل الفقه والافتاء الاستاذ الكبير الشيخ عبد المجيد سليم ، وقد سأله مفتى مدينة كوملجنة بتراقيا الغربية بما خلاصته : « إننى بصفتى الرسمية لا أقر لمن يلبسون القبعة فى بلادى ببدعتهم هذه ، ولا أوقع على وراثتهم من المسلمين ، ولا على زواجهم من المسلمات ، فيسخطون على ، ويتخذوننى شكية عند الناس وعند الحكومة ، وفى اعتقادى أنى لا أحكم فيهم بغير ما حكم به الشرع الاسلامى ، فإن كنت على حق فساعدونى رحمكم الله وأيدونى بكلمتكم الفصل ، وإلا فدلونى على ما هو الحق الحقيق بالاتباع » .

ولم يكن فضيلة الأستاذ الكبير عضوا بجماعة كبار العلماء حين صدر الرأى الذى أشرنا إليه ، وإنما أسند إليه منصب الافتاء وعين عضواً بالجماعة بعد ذلك ، فماذا قال ؟ إنى أثبت هنا نص فتواه التى هى فصل الخطاب فى هذا الباب ، لما فيها من فقه جيد ، ولما أرشدت إليه من مبدأ عام فى الحكم على الناس بالكفر أو الايمان :

نص الفتوى

« .. أما بعد فاعلم ــ هداني الله وإياك إلى الحق ورزقنا اتباعه وجنبنا الزلل في القول والعمل ــ أن علماءنا قالوا إن الكفر شيء عظيم فلا نجعل المؤمن كافراً متى وجدنا رواية أنه لا يكفر ، فلا يكفر مسلم إلا إذا اتفق العلماء على أن ما أتى به يوجب الردة ، كما أنه لا يكفر مسلم متى كان لكلامه أو فعله احتمال ولو بعيدا يوجب عدم تكفيره ، فقد روى الطحاوى عن أبى حنيفة رحمه الله وأصحابنا أنه لا يخرج الرجل من الايمان إلا جحود ما أدخله فيه ، ثم ما يتيقن بأنه ردة يحكم بها له ، وما يشك بأنه ردة لا يحكم بها إذ الاسلام الثابت لا يزول بشك مع أن الاسلام يعلو . وينبغى للعالم إذا رفع إليه هذا الا يبادر بتكفير أهل الاسلام مع أنه يقضى بصحة إسلام المكره ، وقد قال صاحب جامع الفصولين بعد نقله هذه العبارة ما نصه : « أقول : قدمت هذه لتصير ميزانا فيما نقلته في هذا الفصل من المسائل فإنه قد ذكر في بعضها أنه كفر مع أنه لا يكفر على قياس هذه المقدمة » أ . هـ .

وقالوا أيضاً : إن مناط الكفر والإكفار التكذيب أو الاستخفاف بالدين ، فقد نقل صاحب نور العين على جامع الفصولين عن ابن الهمام في المسايرة أن مناط الإكفار هو التكذيب أو الاستخفاف بالدين . وقد قال في جامع الفصولين ما نصه : « شد زناراً على وسطه ودخل دار الحرب للتجارة كفر . قيل في لبس السواد وشد الفائزة على الوسط ولبس السراغج ينبغى ألا يكون كفراً ، استحسنه مشايخنا في زماننا ، وكذا في قلنسوة المغول إذ هذه الاشياء علامة ملكية لا تعلق لها بالدين » أ . هـ .

إذا علمت هذا علمت أن مجرد لبس البرنيطة ليس كفراً لأنه لا يدل قطعاً على الاستخفاف بالدين الاسلامى ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة حتى يكون في ذلك ردة،نعم إذا وجد من لابس القبعة شيء يدل دلالة قطعية على الاستخفاف بالدين أو على تكذيب شيء مما علم من الدين بالضرورة كان ذلك ردة فيكفر . وعلى ذلك يكفر من حبذ أو استحسن ما هو كفر إذا وجد منه مايدل على ذلك دلالة قطعية ، وإذا لبسها قاصداً التشبه بغير المسلمين ولم يوجد منه مايدل على الاستخفاف بالدين ولا على التكذيب لشيء مما علم من الدين بالضرورة كان آثماً فقط لما روى أبو داود في سننه : حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا أبو النضر ــ يعني هاشم بن القاسم ــ حدثنا عبد



الشيخ محمد عبده
كان له رأى في جواز لبس البرنيطة

الرحمن ابن ثابت . حدثنا حسان بن عطية عن أبى جنيب الجرشى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من تشبه بقوم فهو منهم » قال شيخ الاسلام ابن تيمية : وهذا إسناد جيد ، وبين ذلك في كتابه « اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم » ومعنى قوله عليه الصلاة والسلام « فهو منهم » أنه كافر مثلهم إن تشبه بهم فيما هو كفر كأن عظم يوم عيدهم تبجيلا لدينهم ،أو لبس زنادهم ، أو ما هو من شعارهم قاصداً بذلك التشبه بهم استخفافا بالاسلام كما قيد به أبو السعود والحموى على الأشباه ، وإلا فهو مثلهم في الاثم فقط لا في الكفر كما في الفتاوي المهدية . وانما شرطنا في الاثم قصد التشبه لأن في الحديث ما يدل على ذلك إذ لفظ التشبه يدل على القصد ، ومن أجل ذلك قال صاحب البحر ما نصه : « ثم أعلم أن التشبه بأهل الكتاب لا يكره في كل شيء ، فإنا نأكل ونشرب كما يفعلون ، وإنما الحرام هوالتشبه فيما كان مذموماً وفيمايقصد به التشبه . كذا ذكره قاضيخان في شرح الجامع الصغير » .

وكتب ابن عابدين في حاشيته على البحر تعليقاً على هذا ما نصه :

« أقول : قال في الذخيرة البرهانية قبيل كتاب التحرى قال هشام : رأيت على أبى يوسف نعلين مخصوفين بمسامير فقلت : أترى بهذا الحديد بأسا ؟ قال : لا فقلت : إن سفيان وثور بن زيد رحمهما الله تعالى كرها ذلك لأن فيه تشبهاً بالرهبان : فقال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال التى لها شعر وإنها من لباس الرهبان. فقد أشار إلى أن صورة المشابهة فيما تعلق به صلاح العباد لا تضر ، وقد تعلق بهذا النوع من الأحكام صلاح العباد ، فإن الأرض مما لا يمكن قطع المسافة البعيدة فيها إلا بهذا النوع » أهـ .

وعلى هذا فهؤلاء الذين لبسوا القبعة آثمون إذا قصدوا من لبسها التشبه بالكفار . أما إذا لبسوها غير قاصدين التشبه بهم كأن كان لبسهم إياها لدفع برد أو حر أو غير ذلك من المصالح فلا اثم ، وهذا كله إذا لم يوجد منهم ما يدل دلالة قطعية على استخفافهم بالدين أو تكذيبهم لشيء مما علم من الدين بالضرورة وإلا كانوا كفاراً مرتدين يحكم عليهم بأحكام المرتدين من عدم صحة أنكحتهم وعدم توريثهم من الغير إلى غير ذلك ، والله سبحانه وتعالى أعلم » .

* * *

أما بعد فهذا مثال نذكره لينتفع به من يريد الانتفاع ، وليعلم الذين يعجلون بالحكم على آراء الناس أن الريث أولى بهم وأجدر أن يهديهم سبيل الرشاد ، فإن قوما منا قد اقترنت بعض الفكر العلمية في أذهانهم بقداسة تجعلهم ينفرون ممن يعرض لها بوزن أوتمحيص ولو زيف أدلتها ، وبين ما فيها من خطأ ، فتراهم يجزعون لما يصيب هذه الفكر ويضطربون ، وتراهم يسفون أحيانا ويتزيدون ، وربما أضافوا إلى الباحثين ما لم يقولوا ، أو أولوا في كلامهم مالم يقصدوا ، ذلك بأنهم لا يرجون علماً ، ولا يقصدون حقاً ، وإنما يريدون أن يثيروا كلاماً في مقابلة كلام ليقول العامة الذين لا يفقهون : لقد رد فلان على فلان ! وآية ذلك أن كلامهم لا يصبر على البحث ، ولا يثبت أمام النقاش العلمى ، فتراه يتخاذل ويتهالك ويذوب كما يذوب الثلج تحت حرارة الشمس ، ولو شئنا لضربنا في ذلك الأمثال ، ولكنا نضن بأنفسنا وبقرائنا أن نشتغل بأكثر من هذا المثال .

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة
١٩٤٢

مـــــرّة أخـــرى
من المحيط إلى الخليج

بقلم : عبـــد الله الشـــيتي

في عدد مضى من « الدوحة » طالعتنا كلمة « من المحيط إلى الخليج » . وهي عبارة عن رسالة الكاتب المغربي المعروف محمد زفزاف ، أثبتها رئيس التحرير « افتتاحية » جديرة بالاهتمام والمناقشة ، لأنها ـ أي كلمة الأديب المغربي ـ تتصدى لواحد من أهم الموضوعات القومية المصيرية ، بل هو أخطرها على الاطلاق ، ونعني (الوحدة العربية) ذلك الحلم القديم يتجدد ، كلما ادلهمت الخطوب ، وباعدت بيننا السبل ، مشرقاً ومغرباً . فما ندري خلاصاً إلا بالوحدة أو الاتحاد ، ولا يفتأ هذا الأمل أو السراب يداعب مخيلتنا ومخيلات من سبقونا في كفاح وجهاد ، وأصداء ذلك النشيد المدرسي ما زالت في أسماعنا رجع حنين وذكرى :

بلاد العــرب أوطـــاني
من الشـــام لبغـــدان
ومن نجـــد إلى يمـــن
إلى مصـــر فتطـــوان !!

أين كنا ؟ أين أمسينا ؟ وكيف أصبحنا ؟ اعفوني ـ كما أعفيكم ـ من الاجابة ، والمثل العامي « المشرقي ! » يقول : لا تشكي لك ببكيلك ! وما أقدرنا على الشكاة والبكاء ، كأمة ، حتى في الغناء ! وتقويم هذه الأمة « التي كانت خير أمة أخرجت للناس » حافل بالمناسبات المحزنة ، والمؤسفة والذكريات السنوية المريرة ، وقد جعلنا من قضية العرب الأولى المركزية فلسطين حائط مبكى جديداً ! ولسان حالنا مع كل ذكرى ، هزيمة كانت أو نكسة أو احباطاً أو يأساً :

رب يــوم بكيت فيه فلما
صرت في غيره بكيت عليــه !

وغدونا الآن : كلنا في الهم شرق ومغرب وإخواننا في مغربنا العربي قد أصيبوا بعدوانا نحن المشارقة . ألسنا عرباً ؟ ! كما يقول الفيلسوف « الشعبي » غوار الطوشة ؟ اذن ، فمن الطبيعي أن تظل الخلافات العربية الأبدية ، تنخر فينا وفي ضمائرنا ، كما ينخر السوس السفينة ..

فكيف يا أخي (زفزاف) ، تريدنا أن نزف اليك أو تزف الينا الوحدة الكبرى ، ونحن أصلاً ، كأجزاء وكأنظمة وكمنظمات وكهيئات وطوائف وأشتات ، غير موحدين فيما بيننا ، حتى على النطاق الاقليمي أحياناً ، وكأنما قاعدة (فرق تسد) التي زرعها المستعمرون قبل أن يرحلوا هي وحدها السائدة ! وقد حدثني تونسي عجوز ذات يوم ، التقيته في واحدة من اسفاري ، فوضع مقارنة حكيمة أليمة ، حين ألمح إلى أن تلاحم مشاعر العرب ، فيما بينهم ، كان أيام الاستعمار وعهود الاحتلال أعظم وأشمل مما هو عليه اليوم ، في عهد الاستقلال والتحرر وتعدد الكيانات ! بل كان التقارب الثقافي والعلمي والاجتماعي والتزاور والتواصل ، أكثر الف مرة مما هو عليه اليوم ، مع تطور وسائل المواصلات ، دون جدوى ، فان انتقال انسان من الأرض إلى السماء بسرعة البرق ، مثلاً أسهل مليون مرة من انتقال كتاب صادر في هذا البلد ، الى البلد العربي الآخر ، فكيف تتم (الوحدة العربية) يا أخي زفزاف ، ونحن على ما نحن عليه ؟ وهل يكفي أن يتم التزاور الأدبي أو التبادل الثقافي أو عقد ندوة هنا ، وأمسية هناك ، وملتقى هنالك ، حتى نقترب من حلم الوحدة ليصبح حقيقة معاشة ، وواقعاً ملموساً ! لا أعتقد ! ذلك أننا حتى الآن اعتدنا أن تكون الوحدة فوقية ! وأية وحدة لا تكون افعالاً وتقوم على الانفعال ، صائرة إلى الفشل ، وفي الذاكرة أكثر من مثل صادق ، ومن دليل حي يساق ! بل إن زميلنا الاستاذ (زفزاف) يزف الينا (خبراً) لا يسر صديقاً ، ولكنه يستثير شماتة الأعداء ، برغم أن الخبر صحيح .. هو ذا يقول في كلمته تلك ، أغلب الكتاب المغاربة ، رغم غيرتهم وتطلعهم إلى الوحدة العربية ينظرون دائماً جهة الغرب » ! فهل نلوم إلا أنفسنا يا أخي زفزاف ، قبل أن نلوم سوانا ونعلق على شماعة الغرب خيبتنا وانقسامنا وتشرذمنا ، طالما أن فينا بذور الفرقة تنمو ! وشعارات الانقسام والانكسار ترتفع تارة باسم الوطنية ، وطوراً باسم الحرية والاستقلالية ..

ان بين ظهرانينا ، تجربة دول مجلس التعاون مع الأمل بمزيد من التكامل وتطوير العمل الوحدوي في اطار هذه التجربة الحديثة ، فلماذا لا تكون تجربة معممة على اقطار الدول المتقاربة جغرافياً والمنسجمة عادات وتقاليد ، كفكرة (المغرب الكبير) . إن كلمة الوحدة قد تكون ذات حساسية ومدلول لفظي يحتمل ألف تأويل ، ولكن قيام مجلس تعاون ، أو تنسيق أو تكامل ، أو اتحادات كونفدرالية ثنائية يكون أفضل وأوثق وأقرب الى التحقيق كنواة وفعل .!

وتركنا الاستاذ زفزاف في ختام كلمته المختصرة ، دون أن يدلنا على ماهية (المبادرات العملية) التي نادى بوجوب ايجادها أو بعثها من مرقدها لانقاذ ما يمكن انقاذه ، لتحقيق وحدة العرب أو اتحادهم ... ترى ما أبرز هذه المبادرات التي يدعو إليها ولم لم يكشف عنها صراحة وتفصيلاً ؟

سوف أدلي بدلوي ـ باختصار شديد و... مفيد !

١ ـ الوحدات الاقليمية ـ على طريق التكامل الوحدوي أو الاتحادي بين الدول العربية المتشابهة ظروفها بعضها مع بعض .

٢ ـ وضع الاتفاقات الاقتصادية والثقافية والفنية والعلمية موضع التنفيذ .

٣ ـ تسهيل عملية دخول الكتاب من وإلى هذا البلد أو ذاك .

٤ ــ انشاء وكالة أنباء عربية واحدة

٥ ــ إنشاء وكالة توزيع مطبوعات عربية واحدة

٦ ــ تسهيل التبادل التجاري والثقافي

٧ ــ تسهيل اجراءات الدخول والاستثمارات والتملك

٨ ــ اعتماد إعلام قومي لا إقليمي

٩ ــ تطوير ميثاق جامعة الدول العربية بحيث تكون ذات جدوى في اتخاذ القرار .. الحاسم ، لا أن تظل اسماً بلا مسمى في كثير من الحالات الساخنة الخطرة لأنها مكتوفة اليدين !

١٠ ــ إزالة الخلافات أو تجميدها ، وعدم تدخل بلد في شؤون بلد آخر ، ومواجهة عدو واحد مشترك (ثم ان لنا من السوق الأوربية المشتركة) خير مثال على تعاون واسع مع الاحتفاظ بالشخصية الذاتية !!)

١١ ــ حرية دخول الصحف والمجلات من وإلى كل بلد عربي بعيداً عن حجر حرية الرأي وحرية الكلمة طالما كانت الحرية مسؤولية !

وأخيرا : تطوير المناهج الدراسية بحيث تكون من منطلق قومي وحدوي شامل !

هذا هو تصورنا لما يمكن أن يتحقق من تقارب وحدوي ، تلقائي وعفوي ودون الدخول في متاهة التفاصيل التي تؤدي إلى نفق الخلافات والانقسامات المظلم . ولعلي نسيت أمراً مهماً ، في الختام وهو أننا وقبل كل شيء ، مدعوون الى مزيد من (التعريب) في دول المغرب حتى تخف حدة الاتجاه نحو ... الغرب !! وكذلك التفرنج في المشرق ! وباب المناقشة ما يزال مفتوحاً !

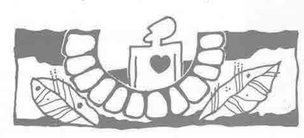
حاشية :

أذكر أني كنت أزور المغرب الشقيق قبل بضعة أعوام وقرأت في صحيفة مغربية دعوى ــ في صفحة كاملة ــ أقامها يومئذ المحامي محمد الفاسي ضد وزارة البرق والهاتف أو المواصلات ، أو الجهة المسؤولة عن تحصيل رسوم الهاتف ، وهي دعوى قضائية جزائية و (حقوقية) طالب فيها المحامي المغربي معاقبة تلك الجهة لأنها أرسلت إليه كتاب التحصيل مكتوباً بلغة فرنسية ، في بلد عربي حر مستقل ! وطالب بتعويض ضخم موكداً على أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الأولى في البلاد ..!

فلنبدأ من الداخل ، يا أخي زفزاف ، ولنشرع بعدها ــ بعد ترتيب كل بيت عربي من الداخل أو كل نظام ــ في التغني « بوحدة ما يغلبها غلاب ، تباركها وحدة أحباب » لا يكون الانفصال متربصاً بها !

هي الأرض

شعر: محمد الظاهر



هِي الأرضُ تجري في مَدارجِها ، أَنا مشيتُ لها بينَ المَشيئَةِ وَالدَّمِ
وَلي ثمرُ العُشّاق ، أَطيافٌ جَنَّة ، مِنَ الياسمينِ الغضِّ ، زُخْرُفُ بَهْوِها
وَمِنْ أُرْجُوانِ المَوْتِ ، بَوّابَةُ الوَقْتِ
تَخطَّفني بَرْقٌ ، فَقُلْتُ : أَنا لَها
سَريرُ الوَرَى ، ماءُ الفُصولِ ، انْعِتاقُها ، جُنونُ المَجازاتِ ، انْفِصامُ
مَقالعَ مِنَ الحَجَرِ الصَّلْدِ ، انْفِتاحُ الرُّؤى
خَميرة قَتْلي مِنْ جَحيمِ تَناسلي
وَكُلُّ احْتِمالاتي شَوارِعُ رَغْبَتي
وَكُلُّ تَوارِيخي احْتِكامٌ ، وَطَقْسُها ، طُقوسُ الوَرى ، تَجْري رُؤوساً وَأَضْلُعاً
إلى مَلكوتِ الْخَوْفِ أَوْ غابَةِ الصَّمْتِ
أَنا جِئْتُها مِنْ عُرْوَةِ الرُّعْبِ ، هِجْتُها ، وَهَيَّجْتُها ، حَتّى اسْتَطالَتْ
جُذوعُها ، وَأَدْخَلْتُ فيها نَسْغَها ، كانَ خاتمي ، يُضيءُ خَلاياها وَيُزْجي نَفيرَها
أَنا غَفْوَةُ الماضينَ ، قِشْرَةُ مَوْتِهِمْ ، أَنا صَحْوَةُ الآتينَ مِنْ ضَجَّةِ الخُطى
تَأَوَّلْتُ رُؤْيايَ ، اتَّقَدْتُ بِسِرِّها ، فَتَحْتُ إِزارَ الْوَمْضِ ، اغْتَسَلْتُ بِمَوْجِهِ
غَسَلْتُ رَمادَ الْخَوْفِ ، حَتّى إذا جَرى ، عَلى جِسْمِهِ ماءُ اليَنابيعِ رَفْرَفَتْ
طُيورٌ مِنَ الرَّعْدِ المُشاكِسِ ، وَانْبَرَتْ خُيولُ التَّحَدّي تَطْرُدُ الْمَوْتَ عَنْ دَمي
إِذا اسْتَنْفِرَتْ هذي البِلادُ ، وَقاتَلَتْ عَنِ الْحُلْمِ ، أَصْغَتْ سُدَّةُ اللهِ ، أَفْرَدَتْ
مُناخاً لَها في سُرَّةِ الْغَيْبِ ، أَوْمَأَتْ لِأَطْفالِها الآتينَ مِنْ نَبْضَةِ الْمَدى
أَنا جَسَدُ الأَرْضِ العَصِيَّةِ ، قَبْضَةٌ ، تَدُقُّ بُروجَ الْكَوْنِ ، تَثْقُبُ عُرْيَها ، وَتَمْضي
إلى نارِ البَراءَةِ ، لا تَرى ، سِوى آيَةٍ لِلْحَرْبِ ، تَقْرَأُ سِرَّها
أَنا وَرْدَةُ التَّكْوينِ ، أُفْقُ رَصاصةٍ ، تُعيدُ ائْتِلافَ الْحَرْفِ في هَيْكَلِ الصَّوْتِ

الخطابة والخطباء خلال قرن

بقلم: فتحي رضوان

لعل من الصعب على مؤرخي السياسة والأدب في مصر، أن يقرروا بحسم ما اذا كان دور الصحافة في الحياة السياسية المصرية خلال القرن الذي بدأ سنة ١٨٨٢ بالاحتلال البريطاني، وانتهى في سنة ١٩٨٢، كان أفضل وأكبر، أم أن الخطابة هي التي صنعت الأحداث، وأن الخطباء هم الذين صاغوا أكبر الأمور.

لا أعتقد أن كاتباً منا، حاول أن يوقف كتاباً على الخطابة والخطباء، خلال هذا القرن الذي حددت بدايته ونهايته، يذكر أسماءهم، ويروي تاريخ حياتهم، ويحدد الأثر الذي خلفوه، ويحلل أساليب كلامهم وطبيعة مواهبهم، ولو توفر مؤرخ أدب، أو مؤرخ سياسة على هذا الجانب الخطير في حياتنا، لاستنفذ ذلك جهداً كبيراً، ولصادف كثيراً من العقبات، أكبرها جميعاً أن ما بقي من خطابة خطباء مصر العظام، هو القدر القليل، فقد مضى القرن دون أن يعرف الناس وسائل التسجيل التي كانت تعيننا الآن على سماع من ماتوا من خطبائنا أومتحدثينا في الأندية السياسية والأدبية، وفي معارك الانتخابات، وفي الندوات الخاصة التي ملأها الأدباء والشعراء والظرفاء ورواة النوادر واللطائف، بأمتع ما جادت به قرائحهم الخلاقة، وألسنتهم المصورة، والمبدعة.

فقد مات أحمد عرابي وعبدالله النديم ومصطفى كامل وسعد زغلول ومكرم عبيد وتوفيق دياب ومحمد شكري (كيرشان) قبل أن تذيع أدوات التسجيل، حتى أصبحت جزءاً من متاع الدنيا، يقتنيه كل فرد حتى ولو كان رقيق الحال، وضعيف الصلة بدنيا الفكر والفن. ولكن الخطباء الذين امتد بهم العمر، بعد هذا الرعيل الأول من الخطباء والمتحدثين فقد سجل لبعضهم إن لم يكن لهم جميعاً خطب كاملة، وأحياناً كل خطبهم، وأصبحت ثروة لأهل الأدب، والمؤرخين ولهواة جمع التسجيلات. فجمال عبدالناصر وأنور السادات وأحمد حسين وحافظ محمود وأنور أحمد، قد سجلت لهم خطب وأحاديث وأصبح من الممكن مراجعتها وتبين خصائصها كما سجلت روايات ومشاهد وأحاديث لفحول الممثلين وكبريات الممثلات، أمثال يوسف وهبي ونجيب الريحاني وحسين رياض وأحمد علام، وفاطمة رشدي وأمينة رزق. أما نجوم المجالس والندوات أمثال حافظ إبراهيم (شاعر النيل) وعبدالعزيز البشري، وإمام العبد، ومحمد البابلي، فقد غادروا دنيانا ولم يبق من آثارهم إلا عدد من النوادر والمستطرفات، تعد على أصابع اليد الواحدة.

عبدالله النديم

نعود إلى الخطباء فنجد أن أول هؤلاء الخطباء، وأعظمهم أثراً، وأغناهم بالمواهب المتباينة من القدرة اللسانية، في الحديث وإرتجال اللفظ المنثور والشعر والزجل والنادرة والقافية وأساليب أخرى من القول لاتعرفها إلا سرادقات الموالد إلى جانب الكتابة: كتابة المقال، والقصة والمسرحية والمقامة.. كان زعيم الجميع، هو عبدالله النديم، صاحب مطالع الثورة العربية. وكان أقرب الناس إلى زعيمها، بشر بمقدمها، وسار في ركابها يخطب في معسكرات الجند، يستقبل جموعهم ويودعهم. ويشد العزائم. ويبشر بالنصر. ويهدد الأعداء، ويتوعدهم بالويل والثبور، ويخرج للثورة جريدة خاصة بها. فاذا فشلت الثورة، لجأ إلى الاختفاء. وكان اختفاؤه قصة من قصص الكفاح الشعبي تثير الخواطر، وتتناقلها الألسن، كقصص المغامرات التي تتوقف لها الأنفاس وتتعلق لغرابتها في الصدور. فاذا انتهت الغمة، وأطلق سراح عبدالله النديم، بقي يحرك الناس، ويدعوهم إلى استئناف القتال سراً وايماء حتى لقي الشاب مصطفى كامل، فعقد عليه كل أمله، ودعاه أن يتلقف منه العلم، وأن يسلك مثل مسلكه، فيكتب ويخطب، ويحرض ويهيج، ويشيد بجمال مصر، وبتاريخها ويضيف إلى ثقافة عبدالله النديم العربية الإسلامية البحتة ثقافة أوربية تلقاها في عواصم أوربا جميعاً: باريس ولندن وبودابست، وفيينا وفلورنسا وبوخارست.

ولكن الذين حفظوا لنا أكثر خطب عبدالله النديم، وكل خطب مصطفى كامل، لم يحدثونا عن

أسلوب أيهم في الأداء الخطابي. ولكن من السهل أن نحكم من قراءة ماترك لنا من خطبهم، بأن موهبة عبدالله النديم، في ارتجال الخطب، وأنواع الكلام الأخرى، أعظم من موهبة مصطفى كامل، وأكثر الذين جاءوا بعده. وأن ارتجال عبدالله النديم كان مصحوباً، بحركات من يديه، وتعبيرات من قسمات وجهه، وتلوينات في صوته، تتفق مع مزاجه الميال إلى التمثيل وتجسيد الأفكار والمعاني لذلك يمكن القول بأن عبدالله النديم كان أشبه مايكون بالمسرح الشعبي المتجول، لا يكتفي بالقول العربي الفصيح، بل يعززه بأساليب القول الشعبية تضحك السامع. وتسخر من الأعداء وتصورهم في أوضاع، وبصور، تنقص من مقامهم، وتحط من قدرهم، دون أن تخشى السلطة، أوتعقب الشرطة.

ولذلك يمكن القول بأن عبدالله النديم، هو رائد المكافحين ضد الاحتلال البريطاني، وضد هيمنة القصر الخديوي والباشوات الذين كانوا يحيطون به، ويأتمرون بأمره، وبذلك يكون عبدالله النديم هو أعظم خطباء مصر في القرن العشرين، وأولهم، وهو الذي شق المتكلمين والمتحدثين والخطباء سبيلاً لمهاجمة الظلم والشخرية من الظالمين وإهاجة الخواطر ضد الاحتلال البريطاني وعملائه وصنائعه.

مصطفى كامل وخلفاؤه

أما مصطفى كامل، فأغلب الظن أنه كان يكتب أكثر خطبه، ويرتب أفكاره ترتيباً منطقياً ومنهجياً ثم يقف بين سامعيه في سمت جميل، ووجه وسيم، وزي أنيق وشباب متألق، وصوت مسموع عال، خال من كل عيوب أصوات الخطباء من ضعف، أو حدة تخالطه تجرح الأذن، كلها طبقات، أو حدة تخالطة تجرح الأذن، كلها طبقات رقيقة عالية، ينقصها الامتلاء، فتصبح أشبه بالصفير، وهو حينما يخطب يتدفق، ولكن دون أن تشوبه عجلة تجعل متابعته أمرا صعبا. وهو يحسن الوقوف عند المعاني التي تستثير تصفيق الجماهير، أوتحرك حماسهم، وقد يعتمد الوقوف عند هذه العبارات، التي يعدها سلفاً، ليقاطع خطابه في مواقف عديدة، فيعيد التصفيق والهتاف، إلى تأكيد أثر الخطبة وتعميقها. وقد كان لطف شخصية مصطفى كامل كخطيب، وشبابه، مع وقاره وعدم تكلفه، عوامل مساعدة لنجاح خطبه، وتناقل الناس لعبارات له مثل قوله: لو لم أكن مصرياً لوددت أن أكون مصرياً وقوله: إن من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبد الدهر مزعزع العقيدة، سقيم الوجدان. وقوله: لامعنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة. وقوله: بلادي، بلادي لك حبي وفؤادي، لك قلبي وعقلي. «وأنت أنت الحياة ولا حياة إلا بك يامصر». ولعل مصر لم تعرف متكلماً ذاعت كلماته وأصبحت من جوامع الكلم، كما ذاعت كلمات مصطفى، فحفظت، ونقشت على المباني والمعاهد، وبقيت حية إلى اليوم، ولا ينافسه في ذلك المجال إلا شعر شوقي.

وقد جاء بعد مصطفى كامل من أتباعه وتلاميذه إثنان من الخطباء ولكنهما كانا من طراز الخطباء الذين لا يؤثرون بفصاحتهم، ولا بريق ألفاظهم، ولا بقدرتهم على الارتجال، إنما بوضوح الفكرة، وتسلسل الكلمة، وصدق عاطفتهم، وإيمان الناس بإخلاصهم وأعني بهؤلاء محمد فريد، وعبدالعزيز جاويش، فقد استطاع محمد فريد أن يملأ فراغ مصطفى كامل مع اتساع البون بين موهبة الاثنين الخطابية، وهدوء محمد فريد على المنبر كخطيب، وتجرده من مزايا الصوت الجهير والاشارة العريضة والتدفق الحار، إلا أن الذين سمعوه، وعاشوا بعده

● من الخطأ ألا نهتم بتاريخ الخطابة المعاصرة في الوطن العربي فتاريخها هو تاريخ النهضة والوطنية

● كان سعد زغلول في عصره أخطب الخطباء في دنيا العرب، وكانت خطبه سلاحاً حاسماً ضد الاستعمار

حدثونا عن قدرته بوضوح فكرته وتأكيده على معانيه، وتأثيره العميق بتجرده الظاهر وشجاعته في تحدي السلطة وعدم الاحتفال بها، أوالخوف منها، حتى أصبح خطيب مصر، وخليفة مصطفى كامل، وثبت لدارسي الأساليب الخطابية أنه ليس للخطابة قالب واحد، يجب أن يتبعه ويحتذى به كل الخطباء. وفي التاريخ الانساني خطباء عظيمو التأثير على الجماهير مع أن البيان الرنان والحرارة الشديدة تنقصهم. من أمثال هؤلاء المهاتما غاندى زعيم الهند، الذى كان أشبه بالمدرس الشارح، والمعلم الذى يحب التفاصيل ويؤكدها، ومع ذلك تصمت الآلاف بين يديه وكأن على رؤوسها الطير، ويكتم الحاضرون أنفسهم لكيلا تفوتهم كلمة.

أما الشيخ عبدالعزيز جاويش فلم يكن خطيباً بالمنشأ، فسلاحه قلمه، وقدرته في عبارته المكتوبة، ولكنه حينما ألزمته الأحداث بعد وفاة مصطفى كامل، وغياب محمد فريد في السجن، أن يرقى المنبر، كان يعد خطبه ويتلو بعضها، ويرتجل البعض الآخر، وقد عوضه الله بسماحة وجه آسرة، ووقفة ملهمة وشجاعة في ابداء الرأي نادرة، فأحبه الناس خطيباً، وتأثروا به، وحرصوا على أن يلاحقوه أينما ذهب.

سعد زغلول ومكرم عبيد

ثم جاءت الحرب العظمى، وأعلنت الأحكام العرفية، وأقفرت الأندية، واختفت المنابر، ولم يعد يسمع اسم خطيب، حتى وضعت الحرب أوزارها، وانفجرت ثورة سنة ١٩١٩، في أخريات سنة ١٩١٨ على أثر ذهاب سعد وعبد العزيز فهمي وعلي شعراوي لمقابلة السير ونجت ممثل الاحتلال البريطاني في دار الحماية في ١٣ من نوفمبر من تلك السنة، وتسامع الناس باسم وزير سابق ترك الوزارة سنة ١٩١٢، ولم يعد به نشاط بسبب الحرب والأحكام العرفية، وتوقف عن المشاركة في الحياة العامة فاذا بهم أمام خطيب يجذب أسماعهم، مع أن حياته السابقة لم تكن تهيؤه للخطابة الجماهيرية، فقد كان محامياً ناجحاً. ولكن البون شاسع بين المحاماة التي تحتاج إلى تنسيق الأدلة، وقرع الحجة بالحجة، وبين خطابة الجماهير، وقد حبسته الوزارة سنين عن الاتصال بالشعب، وحبسته من قبل المناصب القضائية فترة غير قصيرة، ولكنه ماكاد يرقى منبر الخطابة في ظل تفجر غضب الجماهير، حتى أصبح أخطب الخطباء لا في مصر وحدها، بل في دنيا العرب، وزاد من ضخامة أثره، وسحر بيانه قامة طويلة، ومشيب فوق الرأس كالتاج، وقدرة على الارتجال، وهبته إياها دراسته الأزهرية، وصوت يصل إلى آخر سرادقات ذلك الزمان، بسهولة ويسر، وعجز الذين حوله من الأعوان أو الخصوم، عن أن يخطبوا الناس ولو بكلمة، على الرغم من علو مكانهم ورفعة أقدارهم.

وقد بقي سعد زغلول مضرب المثل في الخطابة، حتى جاء مكرم عبيد الذي سمي (بإبن سعد) لشدة حبه له، وقد ابتدع مكرم عبيد طرازاً جديداً من الخطابة، هو الخطابة المسجوعة والمحفوظة، والتي تلقي بعد ذلك من صاحبها كأنها مرتجلة. ولكن ماكانت تمتاز به من سجع، خلا من الاصطناع والتكلف، فحفظ الناس الكثير منها وأصبح مكرم عبيد خطيب العهد التالي لسعد زغلول. حتى ظهر جيل جديد من الخطباء يختلف عن جميع الذين سبقوهم في الشكل والأداء والهدف، أعني بهم حسن البنا وأحمد حسين وحافظ وآخرين سأحدثك عنهم في مقال تال إنشاء الله.



جبل المقطم : لوحة من لوحات الفنان حسني البناني ، ضمن صوره الصادقة الملونة الفرحة في عصرنا الحاضر



حسني البناني رسام المناظر الخلوية

بقلم : صبحي الشاروني

كان الفنان الرائد «يوسف كامل» (١٨٩١ — ١٩٧١) رأساً لعائلة من الفنانين ينتمون اليه بالبنوة أو الزواج !

أنجب يوسف كامل ابناً واحداً وثلاث بنات ، أما الابن فهو الفنان صلاح يوسف كامل ، الذي كان له دور هام في تشييد مبنى «أكاديمية الفنون الجميلة المصرية في روما» .. وقد تولى ادارته لسنوات طويلة وحتى إحالته إلى التقاعد .
أما بناته الثلاث فقد تزوجت احداهن من المثال الراحل «جمال السجيني» (١٩١٧ — ١٩٧٧) ، والثانية من الرسام «كامل مصطفى» (١٩١٧ — ١٩٨٢) — الذي كان عميداً لكلية الفنون الجميلة بالاسكندرية حتى بلوغه سن التقاعد — أما الثالثة فقد تزوجها الفنان «حسني البناني» (أطال الله عمره) ، أحد أعمدة الأسلوب التأثري (الانطباعي) في الفن المصري الحديث ...
ولدينا الآن أربعة من الفنانين الشباب يمثلون الجيل الثالث في هذه الأسرة الفنية ، هم ثمرة هذه الزيجات ..

كان يوسف كامل أستاذاً في الاتجاه «التأثري» وهو أول من قدمه في مصر ، وقد ظل حسني البناني وفياً لأسلوب أستاذه ووالد زوجته ، حتى يعتبر فنه استمراراً متجدداً لمدرسته .

وقد ولد الفنان يوم ١٧ يناير عام ١٩١٢ في حي «باب الشعرية» بالقاهرة ، وعاش صباه في أحياء



سوق البطيخ



حي شعبي

الأزهر والحسين والغورية في قلب قاهرة المعز.. والدته من رشيد حيث يلتقي أحد فرعي النيل بالبحر الأبيض ، أما والده فمغربي عمل بتجارة الأقمشة ، وكان يملك متجراً لبيعها بالقرب من الحي الذي سكنه.

والتحق حسني البناني « بمدرسة الجمعية الخيرية الاسلامية » بحي « درب الجماميز » ، وهو نفس الحي الذي أفتتحت فيه مدرسة الفنون الجميلة المصرية عام ١٩٠٨ .. وعندما حصل على شهادة « الكفاءة » عام ١٩٢٧ اتجه مباشرة إلى « المدرسة العليا للفنون الجميلة » ليلتحق بها.

في طفولته كان يرسم الصور نقلاً عن الكتب والمجلات ، وقد حظي باعجاب المحيطين به في البيت والمدرسة ، وكان أول عمل يكلف به ، أنجزه لحساب أحد التجار من أصدقاء والده ، الذي طلب منه أن يقوم بزخرفة عدد من أغطية المناضد ومناديل الرأس النسائية برسوم تمثل الزهور والفراشات ، وكان ذلك عام ١٩٢٨.

أما زملاؤه في مدرسة الفنون الجميلة العليا فهم « صلاح طاهر » و « حسين بيكار » و « صلاح يوسف كامل » و « عبدالسلام الشريف » ، وقد تخصص في دراسة فن الرسم الملون (التصوير الزيتي)على يدي الفنان الايطالي « كاميليو اينوشنتي » .. لكن « البناني » فصل من المدرسة عام ١٩٢٩ لاشتراكه في المظاهرات ، ولنشاطه السياسي ضد حكومة الأقلية (اليد الحديدية) التي حكمت مصر بدلاً من الحكومة الوفدية قبيل الأزمة الاقتصادية العالمية..

أضطر الفنان للعمل في مصلحة التليفونات (الهاتف) وعين « عامل تليفون » بالأقصر في أقصى صعيد مصر ، حيث قضى أربعة أشهر نقل بعدها بنفس وظيفته إلى القاهرة.. وظل في هذا العمل لمدة عامين حتى التقى مصادفة بأحد زملائه الذين فصلوا مثله ، وعرف منه أنه أعاد قيده بمدرسة الفنون الجميلة كطالب جديد ، ففعل مثله ، والتحق بالمدرسة مرة أخرى ليبدأ سنة ١٩٣٢ ، بينما كان زملاؤه على وشك التخرج ، وواصل دراسة فن التصوير الزيتي ، كما التقى بأستاذه يوسف كامل الذي عمل مدرساً بالفنون الجميلة بعد عودته من بعثته الحكومية في ايطاليا.. وقد ربط بينهما حب البيئة الشعبية واتباع المذهب التأثري في الرسم .. وقبل أن يتخرج عام ١٩٣٧ بدرجة الامتياز كانت قد ربطت بينهما المصاهرة.

في نفس عام تخرجه حصل على « شهادة الأهلية لتعليم الرسم » التي تؤهله لتدريس الرسم في مدارس التعليم العام. وقد رشحه مدير المدرسة الايطالي « اينوشنتي » للسفر إلى إيطاليا في بعثة دراسية لاستكمال أدواته الفنية .. لكنه فوجئ بأن البعثة المرشح لها قد حصل عليها فنان آخر..

الطريق إلى روما

التحق بالعمل لمدة عام كرسام في المتحف الزراعي ــ الذي أقيم في ذلك التاريخ ــ بأجر يومي ٤٠ قرشاً ، ثم انتقل للعمل مدرساً للرسم بمدرسة بنها الابتدائية.. في ذلك الوقت سافر صلاح يوسف كامل (أخو زوجته) إلى إيطاليا في بعثة على نفقة الدولة .. فقرر « البناني » أن يحذو حذو والد زوجته الذي سافر عام ١٩٢٣ في بعثة تبادلية مع « راغب عياد » على نفقتهما الخاصة .. وراح يدبر نفقات رحلته.

وجاءت الفرصة عام ١٩٣٨ عندما كلفه « المتحف الزراعي بالدقي » أن يرسم عشرين لوحة دفعة واحدة ، بلغ أجره عنها ٤٠٠ جنيه ، كانت كافية في ذلك التاريخ لتغطية نفقات سفره ودراسته واقامته في روما عاماً كاملاً.

وطلب من وكيل وزارة المعارف إجازة دراسية بدون مرتب من عمله بمدرسة بنها الابتدائية ، لكن طلبه رفض ، مما اضطره إلى الاستقاله ليحقق هدفه ، وهو استكمال دراسته الفنية في إيطاليا.

حسني البناني

رسام المناظر الخلوية

وهكذا التحق عام ١٩٣٩ بأكاديمية الفنون الجميلة في روما بالسنة الثالثة طبقاً لمستواه الفني .. وما هي إلا بضعة أشهر حتى اندلعت نيران الحرب العالمية الثانية ، فعاد كل المصريين من ايطاليا بالباخرة إلى الاسكندرية .. وبعد ثلاثة شهور أخرى صرحت الحكومة المصرية للدارسين بالخارج أن يعودوا مرة أخرى لاستكمال دراستهم ، فعاد حسني البناني وواصل دراسته حتى بدأ امتحان الحصول على « ليسانس أكاديمية الفنون الجميلة بروما » .. في ذلك الوقت اشتدت الحرب ، وصدرت الأوامر بخروج المصريين فوراً من ايطاليا ، وعاد جميع الدارسين إلا « البناني » الذي لم ينفذ الأوامر وبقي حتى أتم الامتحان وحصل على شهادته الأكاديمية ، ولما اكتشفت السلطات تخلفه عن الرحيل ، اعتقلته حكومة موسوليني لمدة أسبوع ، ولم تفرج عنه إلا بعد حصوله على تأشيرة دخوله تركيا ، فأودعته القطار المتجه إليها ..

وفي تركيا بقي عشرة أيام في انتظار تصريح العودة عبر سوريا وفلسطين .. فقام برسم وجوه عدد من الشخصيات حتى يتكسب ويعول نفسه .. ووصل إلى القاهرة في أكتوبر عام ١٩٤٥ بعد رحلة مرهقة ليبحث عن عمل من جديد .

رسام الستائر المسرحية

عقب عودته اتجه إلى وكيل وزارة المعارف طالباً العودة إلى وظيفته السابقة كمدرس للرسم ؛ لكن الرجل الذي رفض من قبل التصريح له باجازة دراسية بدون أجر ، رفض مرة أخرى عودته إلى وظيفته بعد استقالته منها .. وبعد خروجه من مقر وكيل الوزارة ساخطاً صاخباً ، التقى مصادفة بالفنان الرائد « محمد بك حسن » زميل حميه ، وعرف بمشكلته ، فطلب منه أن يتوجه إلى « سليمان بك نجيب » الممثل الشهير ومدير دار الأوبرا ، الذي عينه على الفور رساماً للستائر المسرحية بدلاً من الفنان الأيطالي الذي كان يتولى هذا العمل واعتقلته السلطات الانجليزية بسبب ظروف الحرب العالمية الثانية ، وكان أول عمل يقوم برسم ستائره المسرحية : هو ديكور مسرحية أمير الشعراء أحمد شوقي « الست هدى » .. وقد لفتت أعماله الأنظار ، فبدأ مخرجو السينما يستعينون بكفاءته في رسم مناظر الأفلام .

وأصبح البناني يتقاضى أجره مضاعفاً ، أحدهما بالنهار رساماً للستائر والمناظر ، والثاني عن عمله بالليل مرمما للديكور ، حيث لم يكن بدار الأوبرا رسام آخر يتناوب معه العمل ، واستمر في هذه الوظيفة حتى عام ١٩٤٩ وهو يتقاضى أجره باليومية .

وتوجه الفنان إلى « محمد بك حسن » يطلب تعيينه على درجة وظيفية أسوة بزملائه الذين عملوا بالوظائف الحكومية ، واستجاب الفنان الرائد لرغبته ، فانتقل للعمل أميناً لمتحف الطب الشرعي بكلية الطب جامعة القاهرة ، حيث حصل على درجة وظيفية ثابتة ، وراح يرسم العينات ويتعلم التحنيط على يدي أستاذ روسي اسمه « بلجاكوف » ، واستمر في هذه الوظيفة خمس سنوات أخرى

في عام ١٩٥٠ تولى الفنان يوسف كامل منصب عميد « الكلية الملكية للفنون الجميلة » ، وهكذا انتقل البناني إلى وظيفة « مدرس مساعد » للفنان الرائد أحمد صبري رئيس قسم التصوير الزيتي في ذلك الوقت بالكلية .

ثم تولى رئاسة قسم الدراسات الحرة عام ١٩٥٦ ، ثم أصبح رئيساً لقسم التصوير الزيتي بكلية الفنون الجميلة عام ١٩٦٥ حتى أحيل إلى التقاعد عام ١٩٧٢ ليصبح أستاذا غير متفرغ لمدة ست سنوات أخرى .

وفي أثناء عمله بالتدريس انتدب لتدريس الرسم النظري بكلية الهندسة في جامعة عين شمس كما انتدب بمعهد السينما ومعهد الفنون المسرحية من عام ١٩٦٠ وحتى ١٩٧٨ عندما تفرغ تماماً لانتاج لوحاته الزيتية في بيته ومرسمه بين حقول ضاحية المطرية بالقرب من مرسم والد زوجته الذي يقع في نفس الضاحية .

عاشق المناظر الطبيعية

خلال عمله أستاذاً بكلية الفنون الجميلة ، تخصص في تدريس مادة « المناظر » ، حيث طاف بتلاميذه في أحياء القاهرة وضواحيها : حي مصر القديمة وأحياء الأزهر والحسين وأمبابة .. وكان يرسم خلال هذه الجولات أمام تلاميذه فيتعرفون على رؤيته للمناظر وكيف تنعكس على لوحاته خطوطاً وألواناً وظلالاً ، فكان أفضل نموذج لتلاميذه الذين تألق عدد كبير منهم .

وقد عرف عن البناني أنه رسام المناظر الخلوية ، فهو أحد الذين أحبوا الطبيعة وقد أفنى عمره يتغنى بجمال الريف وأحياء القاهرة القديمة وأسواق القرى ، فهذه هي موضوعاته المفضلة على مدى نصف قرن .. في لوحاته يتضح عشقه للحقول وضوء الشمس والأشجار والتجمعات الانسانية .. تكاد حرارة ألوانه تنقل الينا الشعور بحرارة الشمس وضوئها الساطع .. تختلط في أعماله تجمعات الرجال والنساء بمناظر الحيوانات والطيور ، وتمتلئ بالحركة والحيوية في تكوينات محكمة ونظام لوني ساحر ، مع تحقيق الايقاع والتوازن والتوافق واجادة تحقيق الحوار بين الظل

بوابة المتولي



منظر بالقلعة

والنور وبين الخطوط والألوان .

اهتم برسم مساجد القاهرة القديمة في مجموعة من الأعمال التي تصور جانباً من جوانب الحياة المعاصرة حول هذه المساجد ، ويبلغ عدد لوحات هذه المجموعة أكثر من ٣٠٠ لوحة تصور الحياة في أحياء القاهرة القديمة وحول مساجدها .

ينتقي لأعماله أكثر الألوان غنائية . فنحس في جنباتها حواراً بين همسات الظلال ، كما ينجح في نقل الاحساس بصخب الحركة والحياة في الأحياء القديمة مع تقديم أبرز ما يميز الحضارة الاسلامية العريقة التي نتجت عن عصور الازدهار .. إنه يسجل أهم سمات هذه الأحياء قبل أن يجرفها طوفان الزحف المعماري الحديث .

وهو يؤمن بأسلوبه الفني إلى درجة التعصب ، وألوانه المضيئة التي يدمنها لا تخلو منها إحدى لوحاته ، تعبر عن الفرحة العارمة والسرور والاندهاش .. فعالم حسني البناني يشيع في المشاهدين الاحساس الدائم بالشباب والطرب ، لمساته مملوءة بالنشاط والحيوية ، محملة بالألوان المتوهجة ..

وهو يتميز بالتدفق الغزير في الإنتاج واللمسات الجريئة الصاخبة التي أصبحت علماً على أسلوبه منذ الأربعينات .. المناظر التي يرسمها تغتسل بالضياء وتكتحل بالظلال ، فهو ينقل الينا وهج الريف وزحام الأسواق ورطوبة الدروب والأزقة الضيقة التي تضم الباعة الجائلين والمقاهي والنسوة والرجال في ملابسهم الوطنية ، إنه يرى مواطن الجمال في كل ركن منها ، لوحاته نوافذ مفتوحة يطل منها المشاهد ولا يمل النظر .

إنه يلتقط المشهد ويختطفه على طريقة « التأثريين » الذين يقتنصون الأثر اللحظي للضوء في ساعة من ساعات النهار .. وفن حسني البناني يمثل صورة لأسلوبه الفني الصادر عن اقتناع وحب لمشاهد الريف والمدن .. إنه لم يتوقف عن الابداع ورسم الروائع على مدى نصف قرن ، ويقيم



قباب بيضاء



منظر من الريف



مصنع الخزف



سنابل القمح

حسني البناني

رسام المناظر الخلوية

معارضه الخاصة من حين لآخر لنتابع انتاجه وتتأكد في كل مرة من ثباته ووفائه لأسلوبه الفني .

المذهب التأثري

المذهب الذي يتبعه فناننا هو المذهب التأثري ـ الذي يطلق عليه البعض ، على سبيل الخطأ الشائع اسم التأثيرية أو الانطباعية ـ لكن هدف الفنانين الذين يتبعونه هو تقديم تأثرهم المباشر بالمشهد الذي يصورونه وليس ما ينطبع في ذهنهم عنه بعد عودتهم إلى مراسمهم فهم يعملون في الخلاء .. كما أنهم لا ينشدون تحقيق تأثير معين على المشاهد ؛ إنهم يكتفون بتسجيل تأثرهم بالمشهد وما يرونه في لحظة معينة .

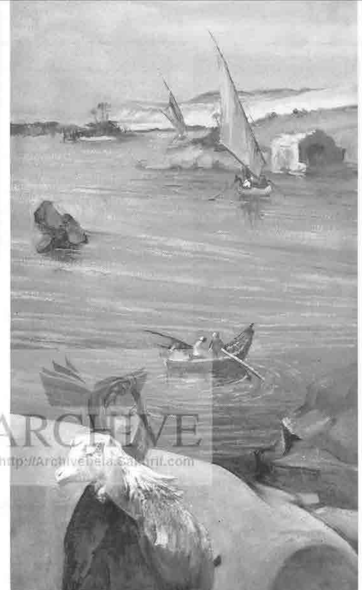
ولقد ظهرت التأثرية في فرنسا عام ١٨٧٤ ، وكان من بين روادهـا « ادجار ديجا » و « سيزان » و « مونيه » و « بيسارو » و « رينوار » و « سيسلي » و « بيرت موريزوت » وكانوا ثائرين على المذهبين السائدين في هذا الوقت وهما « الكلاسيكية الجديدة » و « الرومانتيكية » . كما أنهم اعتبروا أنفسهم امتداداً للمذهب الطبيعي الذي يصور الحياة والمناظر التي لم تؤثر عليها المدنية أو تهذبها يد الانسان .

كان ظهور هذا الاتجاه ناتجاً عن التقدم العلمي بعد اكتشاف تحليل الضوء واستخدام آلة التصوير الضوئي ثم التعرف على الفن الياباني الذي لم يتبع القواعد الصارمة في الرسم الأوربي قبل ظهور التأثرية .. وهكذا اهتم هؤلاء الفنانون بتسجيل انعكاسات الضوء الذى اكتشفوا أنه مركب من عدة ألوان ، وهو وحده الذي يحقق الصورة الفوتوغرافية ، ثم اكتشفوا قانون الألوان المتقابلة التي تبرز بعضها وتظهر قوتها وهي البنفسجي (المؤلف من الأزرق والأحمر) في مواجهة الأصفر ، والبرتقالي (المؤلف من الأحمر والأصفر) في مواجهة الأزرق ، والأخضر (المؤلف من الأصفر والأزرق) في مواجهة الأحمر .. بهذه القواعد العلمية تحقق قدر كبير من الحيوية والاشعاع في لوحات التأثريين .

واختفى اللون البني والأسود تقريباً من أعمالهم .. كما عمد بعضهم إلى وضع الألوان النقية في نقط صغيرة متجاورة لتقوم عين المشاهد بمزجها واستخراج اللون الناتج عن خلطها أثناء الرؤية وليس أثناء الرسم .

وهكذا حاول التأثريون أن ينقلوا صورة صادقة لانعكاسات الأضواء والألوان على ما يرسمون ، محققين لوحات ذات شكل جميل شاعري ممتع يعبر عن قوة الاضاءة بالدرجات اللونية من خلال لمسات الفرشاة الواضحة التي تدلنا على مقدار الجهد المبذول فيها . انهم لم يكترثوا بموضوع اللوحة . وأصبح كل مشهد طبيعي قابلا للرسم والتصوير .. فأنتجت هذه المدرسة أروع الأعمال التي تصور أجمل المناطق والمشاهد في ريف فرنسا ومدنها بل وعلى مسارحها أيضا .

● عندما فاز الفنان العربي في معرض عالمي اشترك فيه ٧٩ فناناً من أنحاء العالم ، كان من بينهم "سلفادور دالي"



النيل في أسوان

رسام الجداريات

ويبلغ مجموع ما رسمه « البناني » من لوحات خلال حياته الفنية أكثر من ألفي لوحة ، لا يحتفظ في مرسمه إلا بعدد قليل منها .. وهو يستخدم السكين عادة في رسم لوحاته لأن لمساتها الجريئة والكثيفة ، ثم ألوانها الصريحة ، أقدر على نقل التأثر الأول بالشكل إلى المشاهد ، كما أنه ملفت للانتباه .. ومن مميزات الأسلوب التأثري أن المتلقي في أي بلد من بلاد العالم يستطيع أن يستوعبه ويتعرف من خلاله على عراقة آثار مصر الاسلامية وجمال ريفها .. لهذا ينتشر عدد كبير من أعماله في سفارات مصر ومكاتبها الثقافية في جميع أنحاء العالم .

لقد شارك الفنان في معرض عالمي للمناظر الطبيعية أقيم في مدينة سان فرانسيسكو عام ١٩٣٩ ، عرض فيه ٧٩ فناناً من أنحاء العالم كان من بينهم « سلفادور دالي » وقد فاز الفنان المصري بميدالية المعرض الشرفية (البرونزية) مع اقتناء اللوحة التي شارك بها .. كما فاز بالمرتبة الأولى في مسابقة لتصميم غلاف مجلة « هولي داي » بأمريكا في نفس التاريخ .. وقد قام بعدة رحلات إلى مختلف الدول الأوربية لمشاهدة فنونها ، ولم يؤد ذلك إلى تغير أسلوبه الفني .

لقد تفوق البناني في فن الرسم الجداري (التصوير الحائطي) وفاز في المسابقات الكبرى التي خاضها في هذا الميدان ، وقد رسم أكبر مساحات حائطية في مصر قام بتنفيذها فنان واحد .. فله لوحة تبلغ مساحتها ٧٥ متراً مربعاً في مبنى محطة القطار بمدينة بورسعيد ، وأخرى تبلغ مساحتها ٩٠ متراً مربعاً في مبنى مجمع المحاكم بشارع الجلاء بالقاهرة ، وله أربع لوحات بمبنى سنترال الأوبرا تبلغ مساحة الواحدة خمسة عشر متراً مربعاً ، بالاضافة إلى لوحتين تبلغ مساحة كل منهما ٧٠ متراً مربعاً خلف منصة الاستعراض بمدينة نصر ، وأخرى في محطة قطار (مترو) حلوان ومحطة القاهرة .

أما نشاطه في المعارض فيمتد من عام ١٩٣٧ حتى اليوم ، حيث شارك بانتظام في معرض صالون القاهرة السنوي حتى عام ١٩٥٦ ، كما يشارك في معارض الربيع السنوية ومعارض جماعة « الطبيعة والتراث » ، ويشارك في معارض بالخارج ، كمعرض الفن المصري الذي أقيم في مدينة واشنطن عام ١٩٥٨ ، وفي بينالي البندقية الدولي مرتين : الأولى عام ١٩٥٢ والثانية عام ١٩٥٦ . كما شارك في معرض الفن العربي بدمشق عام ١٩٧٦ ، والبينالي الرابع « للرياضة البدنية في الفنون الجميلة » بأسبانيا عام ١٩٧٣ ، ثم معرض الكويت للفنانين العرب عام ١٩٦٥ ، وكذلك معرض السنتين العربي الثاني بالرباط عام ١٩٧٥ .

هذا بالاضافة إلى أنه قام برسم المناظر الخلفية لأكثر من ٢٠٠ فيلم سينمائي مصري ، وله عدد كبير من اللوحات في الفنادق الكبرى بالقاهرة ، كما تنتشر أعماله في المتحف الحربي بالعلمين ، ومتحف بورسعيد ، ومتحف مصطفى كامل بالقلعة ، ومتحف الجريمة بالدقي ، ومتحف الفن الحديث بالقاهرة ، ومتحف كلية الفنون الجميلة بالقاهرة ، ومتحف الفنون الجميلة بالاسكندرية ، ومتحف الجمعية الجغرافية ، والمتحف الزراعي بالدقي ثم متاحف دمشق والمغرب .

وقد أقام العديد من المعارض الخاصة بالقاهرة كما تمتع بعضوية لجنة الفنون التشكيلية بالمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب حتى إلغائها .

ويمثل الفنان حسني البناني بنوعية انتاجه وغزارته نموذجاً للفنان المؤمن بأسلوبه الذي تميز به والذي علمه لعدة أجيال ، فأعماله الخالية من المفاجآت والتقلبات يتزايد عشاقها ويتضاعف جمهورها يوما بعد يوم .. فهي التي ستبقى دائماً صورة صادقة ملونة فرحة للمشاهد والمناظر في عصرنا الحاضر .

صبحي الشاروني

العلم هو المستقبل

تقديم :
لبنى الريدي

علاج جديد للسمنة

يقدم الباحثون حلاً سحرياً لمن يعانون من السمنة ، فلقد توصلوا إلى دواء لعلاج زيادة الوزن دون الحاجة إلى بذل مجهود عضلي أو اتباع نظام غذائي قاس . ينصح الأطباء عادة من يريدون انقاص وزنهم بتفادي السكريات والنشويات ، ولكن باختراع الدواء الجديد سيتغير الوضع تماماً لأنه يجعل من يتناوله يستغني عن مذاق السكريات ومشتقاتها بدون أي اعمال للارادة .

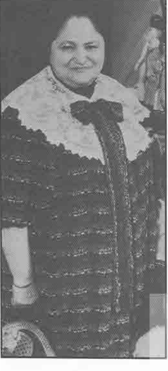
فقريق البحث الأمريكي الذي اخترع الدواء يعتقد أن السمنة ناجمة عن خلل في عمل بعض خلايا المخ ، وأن لا علاقة لها بالارادة أو العادات الغذائية .

ولقد أثبتت التجارب أن مادة « السروتونين » وهي من المواد الكيمائية الخاصة بالنسيج العصبي ، والتي تقوم بنقل المعلومات من خلية عصبية إلى أخرى ، هي المسئولة عن الرغبة في تناول المواد السكرية ، وعن حمل رسالة الشبع بعد وجبة غنية بالسكريات ، فعندما تختفي هذه المادة يشعر الشخص بالرغبة في تناول مواد سكرية .

ونجح الباحثون في تركيب مادة تعمل عمل « السروتونين » وبتجربتها على عينة من المتطوعين حققت نتائج مدهشة ، حيث إبتعد أفراد العينة عن تناول السكريات والنشويات من تلقاء أنفسهم ، ونقص وزن كل واحد منهم ثلاثة كيلوجرامات في الشهر الأول وسبعة كيلوجرامات في خلال الشهور الثلاثة التالية .

ولإثبات أن الارادة ليس لها دخل في تعديل العادات الغذائية تم تجربة الدواء الجديد على الفئران ، وكانت النتيجة واحدة ، بدأت الفئران تعاف المأكولات السكرية ونقص وزنها نتيجة لذلك .

ويعتقد الباحثون أن هذه التجارب قد كشفت العديد من العمليات الفسيولوجية المسببة للسمنة ، وأن هذا الدواء الذي سيطرح في الأسواق في نهاية العام الحالي سيحدث ثورة حقيقية في علاج السمنة .



علاج جديد للسمنة

أسطوانة ضوئية جديدة



الأسطوانة الضوئية الجديد

توصل اليابانيون إلى صنع اسطوانة ضوئية ، يمكن اعادة التسجيل عليها ، فالمادة المستخدمة في صنعها تتحمل مليون عملية تسجيل ومسح دون أن تتأثر .

ويعتقد الباحثون أن الاسطوانة الجديدة ستمثل في المستقبل القريب منافساً خطيراً لأشرطة الفيديو ، فهي وسيلة أفضل لتسجيل الصوت والصورة .

ومن المتوقع طرح الاسطوانة الضوئية الجديدة في بداية عام ١٩٨٧ ويختلف تركيب هذه الاسطوانة تماماً عن تركيب الأسطوانة الضوئية التقليدية غير القابلة للمسح واعادة التسجيل ، فهي مصنوعة من ثلاثة معادن : التربيوم والحديد والكوبالت ، وهي مواد ذات حساسية ضوئية ومغناطيسية عالية .

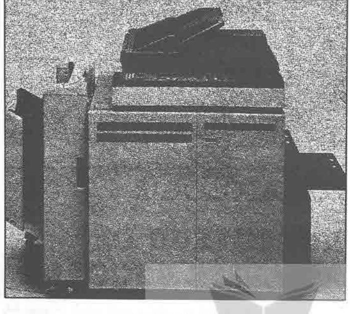
ولحماية هذه الاسطوانة الحساسة غلفت بطبقة شفافة تشبه الزجاج ثم بغلاف من الاكريليك . وسطح الاسطوانة يتكون من حلقات دائرية بارزة تساعد على توجيه أشعة الليزر ، سمكها لا يزيد عن ٨٠ ميكروميتر ، أما الحلقات المحفورة التي تفصل بين الحلقات البارزة فسمكها ٨٠ ميكروميتر .

وتستطيع هذه الاسطوانة التي يبلغ قطرها ٣٠ سم تخزين ٤٠ ألف صورة حجم ٢١ في ٣٠ سم تقريباً ، أما الاسطوانة البالغ قطرها ١٢ سم فطاقة تخزينها ١٦ ألف صورة .

وتتميز الاسطوانة الضوئية الجديدة بطاقة تخزينية كبيرة بالمقارنة بالأشرطة المغناطيسية ، وذلك لأن عملية المغنطة تتم بطريقة متعامدة في الطبقة الواحدة بدلاً من أن تتم أفقياً مثل مايحدث في حالة الأشرطة المغناطيسية مما يزيد من كثافة المعلومات المسجلة .

كما يمكن مسح الاسطوانة مليون مرة دون التأثير على حساسيتها وكفاءتها ، وهو أداء خارق لا يحققه أي شريط مغناطيسي . وتعتمد هذه الخاصية المميزة للاسطوانة الضوئية الجديدة على امكانية عكس اتجاه المغنطة بتسخين المادة الضوء مغناطيسية بواسطة أشعة ليزر . وبالتالي تقوم أشعة الليزر بعملية التسجيل وعملية المسح ، وذلك بالتحكم في اتجاه المغنطة .

التصوير بأشعة الليزر



الجهاز الجديد لتصوير المستندات

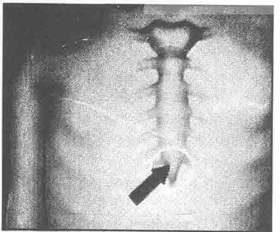
تشهد أجهزة تصوير المستندات تغيرات جذرية تزيد من امكانياتها ، فلم تعد العدسة هي المسئولة عن تكوين الصورة ، وانما يقوم شعاع الليزر بمسح المستند المراد تصويره وتوليد اشارة كهربية رقمية تستخدم في تعديل الشعاع المكون للصورة .

وبالتالي يمكن اجراء تعديلات في شكل المستند الأصلي . وذلك بحذف جزء منه أو تكبير وتصغير بعض أجزائه أوحتى تغيير موضوع بعض الفقرات .

ويتميز الجهاز الجديد بسرعة كبيرة فهو يعطي ثلاثين نسخة في الدقيقة ويتيح تصغيرا تدريجيا يصل إلى ٥٠ في المائة وتكبيرا يصل إلى الضعفين ، فهو مزود بميكروكمبيوتر يسمح له بنقل ـ اتوماتيكيا ـ صفحتين في صفحة واحدة أو العكس .

كما أن عملية النسخ تتميز بدرجة نقاء عالية لا تقارن بعملية النسخ التي يتم الحصول عليها بواسطة أجهزة تصوير المستندات التقليدية . ويرجع الفضل في ذلك إلى استخدام أشعة الليزر والاشارات الرقمية . •

الجديد في جراحة القلب



جراحة القلب الجديدة

حقق الفرنسيون انجازاً باهراً في مجال جراحة القلب وذلك بزرع جزء من عضلة الظهر لتعويض الأجزاء التالفة من قلب المريض .

وتتلخص هذه الجراحة في اجراء فتحة في القفص الصدري وإمرار جزء من العضلة الظهرية الواقعة خلف القلب مباشرة بكل ما يتصل بها من أوعية دموية ونسيج عصبي إلى موضع الجزء المراد استبداله من عضلة القلب .

وبعد عملية الزرع يتم تدريب العضلة الظهرية على مهمتها الجديدة كجزء من عضلة القلب . وتعتبر هذه المرحلة أصعب جزء في العملية الجراحية الجديدة . ولقد استغرق تصميم نظام لتنبيه وتدريب العضلة المزروعة سنوات من البحث .

ويتكون هذا النظام من أربعة أقطاب كهربية ومنظم للقلب يعمل بطريقة مبتكرة تماماً ، فيزود الجزء المزروع بثلاثة أقطاب كهربية يقوم المنظم بتوجيهها ، ويتصل هذا المنظم بدوره بواسطة قطب كهربي رابع بباقي الأجزاء السليمة من عضلة القلب التي تمده بالنبضات بحيث يتولى المنظم نقل هذه النبضات الطبيعية والمنتظمة إلى العضلة المزروعة لتقوم بمحاكاتها .

وتستغرق عملية التدريب ٢٥ يوماً تصبح بعدها العضلة الظهرية قادرة على تعويض الجزء التالف من نسيج القلب .

ويعتقد الأطباء أن هذا التكنيك الجراحي الجديد يمثل بديلاً مناسباً لعمليات زرع القلب والقلب الصناعي لأنه لا يعرض المريض للمشكلات الناجمة عن رفض الجسم للعضو المزروع .

بقلم : جمـــال قطـــب



جمـال الطفـولة



السير جوشوا رينولدز (١٧٢٧ ــ ١٧٩٢)

لاشك أن انجلترا لعبت في العصر الحديث دوراً عالمياً بارزاً ، وكان أهم مايميزها هو اتساع رقعة سيطرتها على غيرها من الشعوب في أنحاء المعمورة .. حتى إذا ماكان القرن التاسع عشر ، وجدنا أن بريطانيا امبراطورية لاتغيب عنها الشمس ، ومستعمراتها تنتشر شرقاً وغرباً وشمالاً وجنوباً ومابينها .. ومن هذا المضمون في الهيمنة على الجهات الأصلية والفرعية ، شكل الانجليز علم بلادهم .. بينما شهد القرن العشرون تقلص الامبراطورية البريطانية شيئاً فشيئاً لتعود انجلترا إلى حجمها الطبيعي ..

أما تكوين الدولة قديماً ، فيرجع إلى نزوح قبائل الكلت من منطقة في شمال فرنسا تسمى « بريتاني » إلى الجزيرة المواجهة ، وعرفت تلك الجزيرة منذ ذلك الحين باسم بريطانيا ، وفي عهد الدولة الرومانية ، ضم الرومان هذه الجزيرة وتوابعها إلى مناطق نفوذهم حتى أغارت عليها قبائل من الانجليز والسكسون ، وكانت تسكن مايعرف الآن بألمانيا ، وبهذا أخذت اسمها المعروف (بلاد الأنجلوساكسون) أو (انجلاند England) ، وظلت هذه القبائل في نزاع وقلاقل حتى القرن الخامس عشر حيث توج (دوق يورك) عام ١٤٦١ ملكاً على البلاد .ولكن النهضة الحضارية الحقيقية لم تبدأ إلا في القرن السادس عشر في عهد الملكة اليزابيث الأولى التي تولت الحكم عام ١٥٥٨ م .

أما النهضة الفنية في فن التصوير فقد تأخرت كثيراً حتى القرن الثامن عشر ، وبذلك سبقتها في هذا المضمار الابداعي ، كثير من الدول الأوروبية ولاسيما إيطاليا ودول الشمال (الأراضي المنخفضة) وأسبانيا ، ثم قامت نهضة شاملة في أنحاء أوروبا في القرن الثامن عشر الذي يعتبر نقطة تحول في يقظة الشعور وتفتح الوجدان الأوروبي من أقصاه إلى أقصاه !

وبذلك .. ظهر عدد من عباقرة المصورين الانجليز من أمثال : هوجارت (١٦٩٧ ــ ١٧٦٤) . ويعتبر أول من نجح في نشر الوعي الفني بين جماهير الانجليز ، ورينولدز ، وجينزبورو ، ورومني ، ولورانس ، وهوبنر ، وكونستابل ، وتيرنر ... وغيرهم كثيرون .

أما أكثر الفنانين الانجليز تألقاً وأكبرهم أثراً على حركة فن التصوير في القرن الثامن عشر ، فهو سير جوشوا رينولدز (١٧٢٧ ــ ١٧٩٢) الذي تفخر انجلترا عن جدارة بموهبته الفنية النادرة ، فقد استطاع أن يطبع صوره بطابع القومية الإنجليزية ، وأن ينهض بتصوير الأشخاص على نحو قطع به الطريق على وفود المصورين الأجانب الذين كانوا يفدون تباعاً على انجلترا ليقوموا بمهمة رسم شخصياتها المرموقة آنذاك . وكان رينولدز يذكر دائماً بالعرفان ويدين بالفضل لما وصل إليه من موهبة متفوقة وفهم عميق لأسرار اللون وفلسفة الخط وحرارة التعبير .. إلى أساطين عصر النهضة العظام في إيطاليا وبلاد الشمال من أمثال تيتسيانو ودافنشي وأنجلو ورافاييل وفان ديك وروبنز ، وكان تأثره بروبنز (على وجه الخصوص) عظيماً ، كما كان يعترف ذلك أمام تلاميذه والمعجبين به .

وقد استطاع (رينولدز) بفضل صفاته الذاتية وما تمتع به من خلال رفيعة أن يتقلد منصب (عميد المجمع الملكي للفنون بلندن) أو ماعرف في التاريخ باسم : الأكاديمية الملكية للفنون الجميلة . كما يرجع إليه الفضل في تعريف كلمة الفنون الجميلة عملياً ، حيث كان هذا التعبير يخلط بين الفنون التطبيقية (وهي المصنوعات اليدوية المستخدمة في الحياة اليومية) وبين الفنون ذات الطابع الوجداني البحت .. فأنشأ الأكاديمية التي تحتوي على أقسامها الثلاثة وهي : الرسم والنحت والعمارة . أما باقي الصناعات الفنية التطبيقية فقد أطلق عليها Applied Art وفصلها عن الفنون الجميلة التى عرفت أولاً باسم (فنون اللياقة Polite Art) ثم مالبث أن استقرت التسمية المعروفة عالميا حتى الآن وهي Fine Art (ونلاحظ أنها دائماً بصيغة المفرد حتى لو تعني الجمع كما هو الحال في اللغة العربية حيث نقول : الفنون الجميلة) .

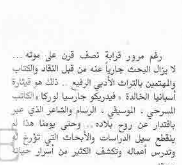
وكعادة الفنانين الانجليز ــ وقد استعرضنا سوياً أهم أقطابهم على هذه الصفحات ــ اتخذوا من صور الشخصيات منهجاً وسمة مميزة لطابع النهضة الفنية الانجليزية .. إلا أن رينولدز كان مولعاً ــ بجانب رسم حسناوات عصره ــ بتصوير الأطفال .. وتجسيد البراءة في ايحاءات عاطفية رائعة مثيرة ! وكثيراً ماكان يجمع بين جمال المرأة وجمال الطفولة في لوحة واحدة تحت معاني الأمومة والروابط الأسرية . كما عرف عنه كذلك براعته التي لا تبارى في رسم المناظر الطبيعية كخلفية للصور الشخصية ، في تناغم ضوئي خلاب يخدم الصورة الأصلية ويركز النظر على جزيئاتها ، فتبدو لوحاته كالنغم الموسيقي الساحر الذي يأخذ بالألباب .

وعلى الصفحة المقابلة يرى قراؤنا إحدى روائع رينولدز التي رسمها عام ١٧٨٨ وأسماها : جمال الطفولة .



بعد نصف قرن من اغتياله

لا يزال البحث عن لوركا مستمرًا



فيدريكو جارسيا لوركا

رغم مرور قرابة نصف قرن على موته… لا يزال البحث جارياً عنه من قبل النقاد والكتاب والمهتمين بالتراث الأدبي الرفيع.. ذلك هو قيثارة أسبانيا الخالدة «فيدريكو جارسيا لوركا» الكاتب المسرحي، الموسيقي، الرسام والشاعر الذي عبر باقتدار عن روح بلاده.. وحتى يومنا هذا لم ينقطع سيل الدراسات والأبحاث التي تؤرخ له وتدرس أعماله وتكشف الكثير من أسرار حياته وموته.

عن لوركا الانسان كتب نيرودا:

«كان التماعة برق مجسمة، طاقة في حركة أبدية، بهجة، إشراقة، سحراً خارقاً… كان وجوده سحراً ذهبياً… تفيض منه السعادة فيضاً» (١)

وعن لوركا الشاعر كتب صلاح عبدالصبور:

«كان أوضح ما في شاعرية لوركا هو هذه المصالحة القوية بين التراث والتجديد. فهو حين اهتدى إلى ينبوعه الأول وهو الأغاني الغجرية لم يدع موهبته الشعرية ومقدرته على الخلق الجديد تتضاءلان أمام إغراء التراث وجاذبيته..

بل أخذ من هذه الأغاني الغجرية جوهرها وأسرار روحها، هذا العالم الحسي المليء بالرؤية الجديدة لكل مظاهر الحياة، المتفتح للألوان والظلال والروائح والملمس تفتحاً عنيفاً، الحزين في الوقت ذاته لحضور الموت في كل لحظة، وتوقفه على مفترق الطريق القادم…… أخذ لوركا هذه الروح وصاغها صياغة جديدة هي صياغة إنسان معاصر» (٢)

وفي ٢٤ ابريل الماضي صدر في مدريد وسط ترحيب شديد من النقـاد، وأثناء تقديم المسرح الوطني لواحدة من آخر مسرحيتين كتبهمـا لوركا قبل وفاته وهي «بيت برنارد ألبا» ـ المجلد الأول عن حياته في ٧٠٠ صفحـة بقلم «إيان جبسون» الناقد والمحاضر المتخصص في أدب لوركا.

صدر هذا المجلد بالأسبانية وتصدر ترجمة له بالانجليزية في العام القادم مع صدور المجلد الثاني بالاسبانية ويأتي هذا الاصدار في أغسطس ١٩٨٦ ليتزامن مع مرور نصف قرن على اغتياله في فزنار ـ غرناطة عام ١٩٣٦ ودفنه في قبر مجهول واحراق أعماله من قبل الحرس المدني وهو في الثامنة والثلاثين من عمره.

يقول جبسون (٤٧ سنة) الناقد الأيرلندي الأصل والذي حصل على الجنسية الأسبانية في العام الماضي ان التفكير في كتابة قصة حياة لوركا بدأ منذ ٢٠ سنة وإن كان الاعداد الفعلي لذلك لم يبدأ سوى منذ سبع سنوات رغم أنه طوال الوقت كان لاشعورياً مهيئاً للكتابة عنه لدرجة أنه حين عاد إلى مذكراته عن الفترة التي قضاها في غرناطة سنة ١٩٧٦ وجد أجزاءاً كاملة تصلح لهذا الكتاب. (٣)

وهذه ليست المرة الأولى التي يكتب فيها جبسون عن شاعره الأثير فقد سبق أن صدر له في ١٩٧١ كتاب بعنوان «القمع الوطني في غرناطة سنة ١٩٣٦ وموت لوركا» وهو الكتاب الذي جاء حصيلة تفرغ عام كامل من عمله كمحاضر بالأسبانية في جامعة الملكة ببلفاست وأقام خلاله في غرناطة ليعد أطروحته عن لوركا.

يقول جبسون:

«عندما ذهبت إلى هناك وبدأت أتحدث مع الناس اكتشفت أن كل واحد كان يعتقد أنني ذاهب للكتابة عن موت لوركا وكان ذلك من الممنوعات في عهد فرانكو. ولكن سرعان ما بدأ الناس يتكلمون معي لأنني أجنبي فبدأوا يبوحون بأشياء ما كانوا ليبوحوا بها لأي أسباني بدافع الخوف» وفي البداية رفض كثير من الناشرين الانجليز نشر الكتاب فصدر بالأسبانية عن دار نشر فرنسية ولم تتهافت عليه دور النشر إلا بعد أن حصل على جائزة «نيس» للصحافة الدولية في ١٩٧٢ لنجده اليوم بأربع عشرة لغة آخرها الطبعة الروسية.

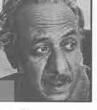
أما أسرة لوركا فقد ساعدت الناقد كثيراً في الاعداد لهذا الكتاب حيث زودته بعدد من الصور التي لم تنشر من قبل كما أعطوه فرصة للاطلاع على مراسلات الشاعر وأوراقه الخاصة وأصول أعماله المسرحية ومنها تلك المسرحية التي نشرت مؤخراً «أحلام العم أوريليا» والتي كان يجري الاعداد لتقديمها مع مسرحية «بيت برنارد ألبا» عند اغتيال لوركا.

يقول جبسون ان عبقرية لوركا لم تأت من فراغ، فهو ينحدر من أسرة مثقفة كان أفرادها مملوئين بالقدرات المتنوعة.. كانوا جميعاً موهوبين في الغناء والرقص والعزف والكتابة والرسم… وجاء ليكون تتويجاً لكل هذه المواهب.. مجتمعة..

في شعره استلهم لوركا تراث بلاده أسبانيا فكانت أغنيات الغجر ينبوعه الأول لدرجة أن بعض النقاد اعتبروه شاعر الغجر وإن كانت هذه التسمية لم ترق له كشاعر كان يرى أن له طريقه الخاص المتميز وتجربته الفريدة وأن التراث أبداً لم يكن سجناً له.

أما عن علاقة لوركا بسلفادور دالي الرسام رائد السيريالية، تلك العلاقة التي تركت بصماتها الواضحة على شعره في مرحلة معينة، فقد أفرد لها الكاتب جزءاً كبيراً من المجلد الأول وخاصة تلك الفترة التي جمعت بين الشاعر والرسام على مقاعد الدراسة في مدريد وأثناء إقامة لوركا في كاتالونيا في العشرينات وفي كاداكيس في الثلاثينات وهي القرية التي لا يزال دالي يعيش فيها حتى الآن. ومعظم المعلومات التي جاءت في الكتاب عن هذه المرحلة


سلفادور دالي


صلاح عبد الصبور

مصدرها سلفادور دالي نفسه وشقيقته «آنا ماريا دالي» التي ألفت كتاباً بعنوان «سلفادور دالي بعيون شقيقته» جاء فيه الكثير عن علاقة شقيقها بلوركا .. في جزء من هذا الكتاب تحكي عن فترة ما في سنة ١٩٢٥ عندما قام لوركا تحت ضغط واصرار من شقيقها بقراءة أحدث مسرحياته «ماريانا بيفيدا» أمامهم :

«مطلقاً العنان لكل مواهبه في التمثيل ... اندمج لوركا في الأدوار ليؤديها بطريقة بالغة التأثير أبكت جميع الحاضرين في المنزل ... حينئذ نظر دالي اليهم وكأنه يقول : ألم أقل لكم ؟»

وجبسون ــ أو مجنون لوركا ــ الذي ترك التدريس في جامعة بلفاست وجامعة لندن سنة ١٩٧٥ ليتفرغ لكتاباته .. يعمل الآن أيضاً مع أحد المخرجين لإعداد فيلم وثائقي عن لوركا ... أما عن رأيه في شعره فهو يرى أن أفضل أشعاره هي تلك التي جاءت في ديوان «الشاعر في نيويورك» وعلى وجه الخصوص «قصائد من بحيرة آدم ميلز» تلك البحيرة التي زارها الشاعر وأثارت فيه كوامن الذكريات عن غرناطة فصاغها في غنائيات حزينة .

إن إهتمام النقاد والكتاب بتراث لوركا بعد نصف قرن ليؤكد أن الأعمال العظيمة تتحدى الزمن ذلك لأن الحياة قصيرة أما الفن الصادق فخالد أبداً .

هوامش :

(١) لوركا ــ مجموعة مقالات نقدية ــ اعداد مانويل دوران

(٢) في مدينة العشق والحكمة ــ صلاح عبدالصبور

(٣) مقابلة مع الكاتب في الهيرالد تربيون في ١٠/٥/٨٥


ميلينا ماركوري

أثينا عاصمة ثقافية لأوروبا

ميلينا ميركوري (٥٩ سنة) ، النجمة السينمائية السابقة ، والمعارضة السياسية التي جردت من جنسيتها من قبل الحكم العسكري في اليونان وعاشت في المنفى من سنة ١٩٦٧ حتى سقوط حكم العسكر في ١٩٧٤ ، ميلينا ميركوري وزيرة الثقافة والعضو البارز في حكومة اليونان الحالية نصبت نفسها هذه الأيام وزيرة للدفاع عن ثقافة أوربا ضد الغزو الثقافي لأوربا عن طريق التليفزيون ، أو ماتسميه هي بالتجنيس الالكتروني للثقافة الأوروبية عن طريق التليفزيون الأمريكي .

فكرت ميلينا ميركوري في عملية هجوم مضاد للغزو القادم عبر الأطلنطي ــ كيف ؟

هذه الأيام .. تتجمل اثينا وترتدي أكثر ثيابها أناقة لتكون عاصمة ثقافية لأوربا لمدة ستة شهور تبدأ في ٢١ يوليو من هذا العام ..

فرق مسرحية ومعارض وسينما ونماذج ثقافية مختلفة تمثل جميع دول السوق الأوروبية المشتركة تأتي إليها لتشارك في مهرجانات ثقافية وفنية لمدة نصف عام في ملتقى هو أشبه بأوليمبياد ثقافي تحرص كل دولة أن ترسل إليه خير ما يمثلها فيه .

ولأن ميركوري كما تقول لا تؤمن بسياسة الحدود المغلقة أمام الفن أو الثقافة ، ورغم أن الهدف الرئيسي لفكرة العاصمة الثقافية هو الدفاع عن الهوية الثقافية لأوربا .. فإن البرامج لن تقتصر على الفنون الأوروبية أو التي من أصل أوربي .. هناك أكثر من مائة حدث فني بينها الباليه ، والأوبرا من الاتحاد السوفيتي والجاز من أمريكا .

وبعد أن أسرت فكرة ميلينا ميركوري عقول وقلوب وزراء الثقافة في بقية دول أوربا ، ينتظر أن يشارك عدد كبير من الرؤساء الأوربيين في حفلات الافتتاح لتستمر أثينا عاصمة ثقافية لأوربا لمدة ٦ شهور تليها في العام القادم فلورنسا وفي العام الذي يليه امستردام إلى آخر القائمة الطويلة من مدن أوربا التي تنتظر فستان العرس ..





سينما

من يكتب تاريخ السينما...

جاذبية جيمس بوند.. أم الحقيقة الجافة؟

سؤال بمناسبة عام السينما الانجليزية

بقلم: رءوف توفيق







« اسطورة » أحدث انتاج للسينما الانجليزية.. تم تصويره داخل انجلترا وبممثلين من انجلترا وأمريكا.. ومن اخراج «ريدلي سكوت»

منذ مارس الماضي ، والاحتفالات مستمرة في بريطانيا للدعوة إلى السينما الإنجليزية .

فهذا العام ــ ١٩٨٥ ــ هو عام السينما الإنجليزية .

والمناقشات الساخنة .. مابين منتهى التفاؤل ومنتهى التشاؤم .

البعض يقول : « إن بريطانيا هي أرض المستقبل في صناعة السينما .. »

والبعض الآخر يقول باحتجاج : « إن استوديوهات بريطانيا تحولت إلى ساحة لتصنيع وتجميع الأفلام الأمريكية ، وإن الفيلم فقد كيانه وشخصيته أمام الدولار الأمريكي » ! !



المخرج «دافيد لين» أثناء تصوير فيلمه «ممر إلى الهند» وهو الذي قدم للسينما الإنجليزية أضخم انتاجها



لقطة من أحدث فيلم انجليزي عنوانه «تفاهة» وقد عرض في المسابقة الرسمية لمهرجان كان ولم يحصل على أي تقدير

الفيلم الإنجليزي «ممر إلى الهند» أحدث ما أخرجه عبقري السينما الإنجليزية وعجوزها «دافيد لين».. حصل على جائزتين

ناقد سينمائي انجليزي «الكسندر والكر» يكتب رأيه مدافعاً بحماس: «من الجنون أن نتجاهل الخبرات الإنجليزية من كتاب ومخرجين وفنيين الذين ظهروا خلال الفترة الأخيرة، نتيجة تشغيل الاستوديوهات والمعامل الفنية بكامل طاقتها.. وعلينا أن نستفيد من كوننا أرخص دولة أوربية تقدم تسهيلاتها لصناع الأفلام».

مخرج سينمائي إنجليزي «بيترويث» يقول: «إنه من دواعي الأسف أن الأفلام الإنجليزية تشغل صفحات قليلة من تاريخ السينما.. ومن السهل أن ننسى ماحصلت عليه من جوائز أوسكار».

أما المخرج والممثل «سير ريتشارد أتينبرو» ـ مخرج فيلم غاندي، ورئيس الاحتفال بعام السينما الإنجليزية ـ فهو يقول مدافعاً: «في السنوات الأربع الأخيرة حصلت السينما الإنجليزية على ١٧ جائزة أوسكار.. وهذا العدد يفوق بكثير ماحصلت عليه السينما الإنجليزية من جوائز خلال ١٤ عاماً.. منذ أن فاز فيلم «أوليفر» بجائزة أوسكار لأحسن فيلم!

ولكن.. هل تقاس صناعة السينما بعدد جوائز الأوسكار؟!

«أتينبرو» يرد موضحاً: «بالتأكيد جوائز الأوسكار ليست هي المقياس على تقدم السينما الإنجليزية.. ولكن جوائز الأوسكار تتيح للأفلام توزيعاً عالمياً.. وتضمن عرضها في الولايات المتحدة. وبالتالي تحقق ايرادات ضخمة تجعلها على نفس المائدة مع أهم الأفلام العالمية»!

حقيقة المشكلة

وربما كان هذا الرد من المخرج «أتينبرو» يوضح حقيقة المشكلة التي تكابدها السينما الانجليزية.. وهي عدم وجود أسواق لتوزيع أفلامها عالمياً.. إلا إذا رضيت شركات التوزيع الأمريكية بتبني هذه الأفلام.

وشركات التوزيع الأمريكيةبالطبع تفرض شروطها ومواصفاتها الخاصة.

ومن هنا يحدث الصراع.. بين الذين يحرصون على أن يكون للسينما الإنجليزية طابعها وشخصيتها المستقلة.. وبين الذين يفضلون الانضمام للركب الأمريكي، والاحتماء بمظلته، في سبيل الانتشار والكسب والاستمرار!!

وكل فريق له وجهة نظره.. والمناقشات ساخنة على صفحات الجرائد والمجلات، وشاشات التليفزيون.. ليس داخل بريطانيا وحدها.. ولكن أيضاً بين كل المهتمين بصناعة السينما العالمية..

جاذبية جيمس بوند.. أم الحقيقة الجافة؟



الممثل الانجليزى بن كنجسلى مع جليندا جاكسون فى «يوميات السلحفاة»

ورغم طول الاحتفالات بعام السينما الانجليزية.. ورحلات النجوم إلى المدن الإنجليزية على مدار هذا العام، والدعوة إلى الذهاب للسينما.. باعتبار أن دار السينما هي أفضل مكان لمشاهدة الأفلام (وهو الشعار المرفوع حالياً في بريطانيا).

ورغم موائد التكريم.. والملصقات الملونة.. والبحث عن أمجاد السينما الانجليزية.. إلا أن القضية الأساسية.. وهي قضية «الانتماء» و«الثقافة القومية».. هي أهم مايشغل المتخصصين والباحثين المراقبين لمسار الفن!

والقضية تهمنا.. حتى ولو كان يبدو ــ ظاهرياً ــ أن الموضوع لايخصنا.. ذلك لأن المسألة باختصار تدور حول الأغنياء والفقراء!!

الأغنياء بقوة ونفوذ رأس المال.. والفقراء الذين لايملكون سوى مواهبهم وأفكارهم!

وكيف يستطيع هؤلاء الفقراء أن يعبروا عن أنفسهم بلا ضغوط أو تنازلات؟ وكيف يصل صوت هؤلاء الفقراء إلى جميع أنحاء العالم دون أن يمر بمصفاة الأغنياء؟

الفقراء في السينما الانجليزية

وبالتأكيد.. يبدو غريباً أن نذكر السينما الانجليزية ونحن نتحدث عن سينما الفقراء (فما بالك بنا نحن السينما العربية والافريقية.. ومابال سينما أمريكا اللاتينية)؟

ولكن المسألة نسبية..

فالسينما الانجليزية.. حالها مثل حال السينما الفرنسية.. والسينما الايطالية.. والسينما الألمانية.. كل منها تملك امكانيات بشرية ومواهب فنية متميزة.. وكل منها تملك استوديوهاتها ومصانعها الخاصة للأفلام.. وكل منها أيضاً لها أحلامها في الفن.

ولكن أمام التيار الأمريكي الكاسح.. تتوارى وتتكسر الكثير من هذه الأحلام.. فالأحلام لاتعيش أو تزدهر بالأمنيات فقط.. وفي هذا الزمن الصعب، زمن قوة رأس المال، والاحتكارات والمؤسسات الصناعية الكبرى.. أصبح أمراً شاقاً، وأحياناً مستحيلاً.. أن تنفذ الأفلام إلى شاشات العرض العالمية.. إلا من خلال «بوابة» التوزيع الأمريكي!!

وحتى الأفلام التي تفوز في المهرجانات العالمية، وتحصل على الجوائز والسمعة.. تظل هذه الأفلام مجرد أسماء منشورة أو مذاعة.. ولاتتحقق لها هذه القاعدة العريضة من المشاهدين.. ولامجالات الرؤية والمناقشة الواسعة.. إلا إذا أمسكت بيدها شركات التوزيع الأمريكية، ودفعت بها للعالم من خلال فروعها ومكاتبها المنتشرة في العواصم المختلفة!

ورغم أن صناعة السينما في أوربا.. لديها المؤسسات الخاصة للانتاج والتوزيع.. وهذه المؤسسات قديمة وراسخة ولها خبرة طويلة بالسوق وبتقلب أذواق المشاهدين.. إلا أن المؤسسات ــ مثيلتها ــ الأمريكية، تفوقها قوة ونفوذاً.. وتتميز عنها بسرعة الحركة والالتفاف والانتشار، وقريب للأذهان ما تعرضت له مؤسسة «جومو» الفرنسية ــ (راجع مقال مأزق السينما الفرنسية ــ الدوحة عدد مايو الماضي).

انخفاض المشاهدين

والسينما في انجلترا تعاني من الظاهرة العالمية في انخفاض عدد المترددين على دور السينما..

والأرقام تشير إلى أن عدد المشاهدين انخفض في انجلترا من ثلاثين مليون مشاهد في الاسبوع (في فترة مابعد الحرب العالمية) إلى مليون مشاهد في الأسبوع (في الوقت الحالي).

وانخفض بالتالي عدد دور السينما من (١٥٦٢) دار عرض في عام ٨٠ إلى (١٣٣٨) داراً حتى مارس ٨٥ (من بين هذا الرقم الأخير ١١٦ دار عرض تملكها شركة كانون لأصحابها مناحم جولان وجلوباس الاسرائيليين اللذين هاجرا بنشاطهما من اسرائيل إلى الولايات المتحدة.. وكونا شركة انتاج وتوزيع الأفلام وأعلنا أن خطتهما الانتشار في العالم من خلال شراء دور العرض السينمائي ــ راجع مقال السينما في عدد سبتمبر ٨٤ من الدوحة)!!

المهم.. أن عدد دور العرض انخفض في انجلترا.. وصاحب هذا الانخفاض.. انكماش في مساحة دار العرض وظهرت الصالات الصغيرة ذات المقاعد المحدودة.. ورغم هذا الانكماش، مازالت تبدو الصالات فارغة من الزبائن!

ومن هنا كانت براعة الشعار المرفوع في عام السينما الانجليزية.. بالدعوة إلى الذهاب للسينما.. (السينما هي أفضل مكان لمشاهدة الأفلام).. وهو شعار ذكي وجذاب يحاول تأصيل عادة ارتياد السينما حيث المتعة كاملة ومختلفة عن مشاهدة الأفلام في التليفزيون أو من خلال الفيديو.

رغم أن الذين رفعوا هذا الشعار.. يعلمون جيداً أن الجمهور الانجليزي الذي يذهب للسينما.. يفضل مشاهدة الأفلام الأمريكية (!!).. ففي آخر احصائية نشرت عن أفضل عشرين فيلماً حققت أعلى الايرادات في انجلترا خلال عام ٨٤.. نجد أن من بين العشرين فيلماً.. ثلاثة فقط من الانتاج الانجليزي.. والباقي كله ــ ١٧ فيلماً ــ من الانتاج الأمريكي!

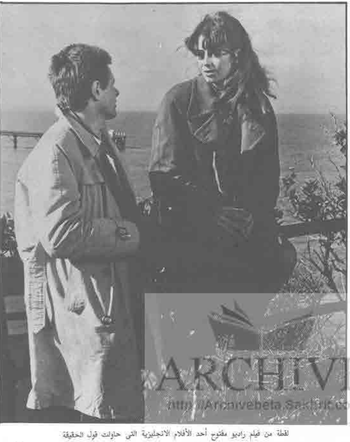
وتتصدر القائمة فيلم «انديانا جونز» للمخرج الأمريكي ستيفن سبيلبرج!!

زواج له تاريخ

ولم تقاوم السينما الانجليزية هذا الغزو الأمريكي.. بل كانت سياستها منذ البداية اعلان التقرب الواضح.. وتأكد هذا أخيراً في فتح كل الأبواب أمام صناعة السينما الأمريكية وتسهيل



نجم السينما الانجليزية البرت فيني



لقطة من فيلم راديو مفتوح أحد الأفلام الانجليزية التي حاولت قول الحقيقة

التصوير في الاستوديوهات والأراضي الإنجليزية وتقديم أعلى مستوى من الخدمات الفنية — وأرخصها — في المعامل .. وفوق كل هذا اعفاء بنسب كبيرة من الضرائب (تصل الاعفاءات إلى ٧٥٪ من مجموع الدخل .. سواء بالنسبة للكتاب أو المخرجين أو الممثلين أو الفنيين) !

وقد استفادت صناعة السينما الأمريكية من كل هذه التسهيلات والاعفاءات (مقارنة بارتفاع الأجور والخدمات في الاستوديوهات الأمريكية) .. واستفاد الاقتصاد الإنجليزي .. بتدفق الدولارات ..

وفي كتاب « السينما الجديدة في بريطانيا » يتولى مؤلفه الناقد الإنجليزي « روجر مانفيل » تحليل العلاقة بين السينما الانجليزية والسينما الأمريكية ، فيقول إن السينما الانجليزية فتحت ذراعيها لكثير من الخبرات الأوربية المهاجرة إليها خلال تصاعد النازية .. وكسبت السينما الإنجليزية من هذه الخبرات ، كما كسبت خبرات من أمريكا خلال فترة « المكارثية » .. بعض الكتاب والمخرجين تركوا أمريكا — بعضهم إلى الأبد — واستقروا في انجلترا .. منهم المخرج الشهير « جوزيف لوزي » — الذي توفى العام الماضي — والذي كان قد هرب من المكارثية وليستقر في انجلترا منذ عام ٥٢ .. وصنع للسينما الإنجليزية عدداً من أهم أفلامها .

ويقول الناقد في كتابه .. إن في عام ٦٨/٦٧ مثلاً كان الانتاج الإنجليزي سواء رسمياً أو فنياً يتضمن هذه الأفلام (اوديسة الفضاء ٢٠٠١) للمخرج الأمريكي ستانلي كوبريك — (رجل لكل العصور) للمخرج والمنتج الأمريكي فريد زينمان — (المهمة القاتلة) للمخرج الأمريكي سيدني لوميت .. ويتساءل الناقد أي من هذه الأفلام ظهر للعالم على أنه انتاج إنجليزي ؟ !

ويقول : « إن النقود الأمريكية وقفت وراء أفلام إنجليزية ذاعت شهرتها عالمياً .. من هذه الأفلام : لورانس العرب — بيكيت — توم جونز — ومجموعة أفلام البيتلز .

« وفي عام ٦٩ .. كان ٩٠٪ من انتاج السينما الانجليزية ممولاً بنقود أمريكية .. وكانت الدولارات الأمريكية مرحباً بها في الاقتصاد الإنجليزي .. ولكن التحكم في الأفلام الإنجليزية من هوليود أو بمعنى أدق من « وول ستريت » لم يكن مرحباً به من أولئك الذين يؤمنون بالثقافة الإنجليزية » .

هذا ماجاء في كتاب « السينما الجديدة في بريطانيا » .. وإذا علمنا أن هذا الكتاب صدر عام ٧٠ .. فعلينا أن نتصور حجم هذه المشكلة الآن .. مع ازدياد التمويل الأمريكي ، والنفوذ الأمريكي في السينما الإنجليزية !

الابتعاد في ركن معزول

وقد عاشت السينما الإنجليزية أزهى فتراتها في سنوات الخمسينات .. مع ظهور الرواية الأدبية الحديثة التي تعبر عن مجتمع الطبقة العاملة ..

فمن هذه الطبقة العاملة خرج مؤلفون وممثلون وعشاق حقيقيون للفن الذي يخاطبهم .. ولهذا نجحت رواية جون براين (غرفة فوق السطح) التي أخرجها للسينما جاك كلايتون عام ٥٨ .. ونجحت مسرحية « انظر خلفك في غضب » لجون أوسبورن والتي أخرجها « توني ريتشاردسون » في نفس العام — ٥٨ — ولعب بطولتها ريتشارد بيرتون .

وفي تلك المرحلة .. والتي تبلورت بعد ذلك بما أطلق عليه « موجة السينما الحرة » .. كان فيلم (ليلة السبت — صباح الأحد) من اخراج كارل رايز وتمثيل البرت فيني .

ثم انضم اليهم بعد ذلك « ليندسي اندرسون » ليخرج أول أفلامه السينمائية عام ١٩٦٣ وكان الفيلم « هذه الحياة الرياضية » .. والغريب أن ليندسي اندرسون أخرج أول أفلامه وكان عمره



«بول سكوفيلد» رجل لكل العصور، ذلك الفيلم الرائع الذى أخرجه «فريد زينمان» وتم تصويره في انجلترا .. ولكنهم يتساءلون: هل هو فيلم انجليزى .. أم أمـــريكى ؟





لقطة من فيلم «أوليفر» رائعة المخرج «كارول ريد» وأحد الأفلام التى كتبت تاريخ السينما الانجليزية. قبل أن تؤجر استوديوهاتها للمغامرين الأمريكيين

أربعين عاماً .. ولنا أن نتصور كم من الوقت انقضى لتتاح له هذه الفرصة ؟!

هذا المخرج ـ ليندسي أندرسون ـ شغل منصب مدير معهد الفيلم البريطاني .. ولم يخرج في حياته سوى ستة أفلام فقط آخرها فيلم «مستشفى بريطانيا» الذي سخر به من كل شئ في بريطانيا.

وعندما سألوه أخيراً عن السينما الإنجليزية .. قال :

«في إنجلترا الآن لا توجد عملية خلق فنية .. ولكن يوجد نقاد كثيرون .. ومن هنا وجدنا أنفسنا مدفوعين إلى ركن معزول، نفكر في أنفسنا كأشخاص صغار لايحققون الربح مثل مخرجي أمريكا .. ولايحققون الفن مثل بعض مخرجي فرنسا» !

التليفزيون الإنجليزي

وقد لعب التليفزيون الإنجليزي ـ منذ بداية الستينات ـ دوراً هائلاً في تدعيم السينما الإنجليزية بالكتاب والمخرجين والممثلين .. وأيضاً في مناقشة أوضاع الفئات العاملة من خلال التمثيليات والمسرحيات التليفزيونية .. مما ساهم في دفع الحماس بالسينما لمواصلة تقديم هذه الموضوعات .. وخرج من التليفزيون عام ١٩٦٢ المخرج جون شليسنجر، ليقدم أول أفلامه السينمائية «نوع من الحب» ـ ثم تلاه بفيلم «بيلي الكذاب» وكان أحد أهم الأفلام الإنجليزية في ذلك الوقت وحتى الآن !.

ومازال التليفزيون الإنجليزي يلعب نفس الدور خصوصاً بعد أن أنشئت القناة الرابعة لتكون أهم سند للسينما الإنجليزية الشابة التي لا تجد لها فرصة وسط الزحام الأمريكي الذي يملأ الاستوديوهات.

تجارب عديدة وجريئة .. تتحملها القناة الرابعة في التليفزيون بتخطيط ذكي ومدروس .. ومن هذه التجارب تخرج الأفلام السينمائية لتعرض في المهرجانات التي لاتجري وراء الأضواء والأسماء اللامعة .. ولتكون هذه الأفلام هي الشاهد الوحيد الباقي على السينما الإنجليزية الخالصة !

أبيض وأسود

من هذه الأفلام .. فيلم «راديو مفتوح» للمخرج الانجليزي الشاب «كريستوفر بيتيت» الذي يحكي فيه رحلة شاب بسيارة من لندن إلى



« بيتر أوتول » أحد نجوم السينما الانجليزية .

بريستول في محاولة لكشف أسرار موت شقيقه .

والفيلم يستعرض الرحلة .. وراديو السيارة مفتوح دائماً .. وهناك انفصال دائم بين مايذاع وبين إحساس الشاب بالوحدة والحزن .. سواء هذا الجندي المسرح من الجيش .. أو هذه المرأة التي تبحث عن ابنتها المفقودة ..

وقد تم تصوير الفيلم بالأبيض والأسود .. وتعمد المخرج أن تكون عين الكاميرا أشبه بعين الزائر الوحيد الذي يهبط إلى مدينة فيراها لأول مرة .. ويتوقف عند الأشياء الصغيرة التي تشكل في مجموعها طعماً ومذاقاً للمكان ككل .



المخرج الانجليزى « سير ريتشارد أتينبرو » مخرج فيلم غاندي

ومن هنا جاء الفيلم معبراً تماماً عن المكان والإنسان الإنجليزي ..

وهناك فيلم آخر يحمل عنوان « نظرات وابتسامات » لمخرجه الشاب « كين لواش » .. والذي صوره أيضاً بالأبيض والأسود .. ربما تأكيداً لصراحة هذين اللونين في التعبير عن معنى الجفاف الذي يسود جو أحداث الفيلم والذي يعبر عنه المخرج بقوله :

« إنه فيلم عن الشباب الذين يخرجون للحياة ، ويواجهون المجتمع .. إنه عن تفكيرهم وكيف يعيشون داخل نطاق الحدود المفروضة عليهم .. والحقيقة أن المستقبل أمام الشباب في انجلترا ، مظلم للغاية .. خصوصاً في هذه الأيام .. ومن الأمانة أن نعطي الصورة الحقيقية لهذا الوضع » !

وأحداث الفيلم تقع في مدينة « شيفلد » بشمال إنجلترا .. وهي مدينة مشهورة بصناعة الصلب .. وتواجه حالياً بأحداث صناعية مختلفة أهمها البطالة .. وقد تم تصوير الفيلم داخل المدينة نفسها . واختار المخرج ممثلين مجهولين . لم يمثلوا من قبل .. بل ويعانون أيضاً من البطالة .. وكان أول أجر يقبضونه هو نظير عملهم في هذا الفيلم ..

وبطولة الفيلم لشابين وفتاة تتراوح أعمارهم بين ١٧ ــ ١٩ عاماً .. يعانون من مشاكل مع أسرهم .. فرص العمل مغلقة أمامهم .. فرص اللقاء يسودها الحزن والقلق .. وتظل رحلتهم طوال الفيلم يبحثون عن وظيفة يتقاضون منها أجراً .. ولا يتحقق لهم هذا ..

قد يقول البعض .. إن مثل هذه الأفلام تثير الكآبة والتعاسة .. وماذنب المتفرج الذي يذهب للسينما للمتعة والتسلية فيجد مايسد نفسه ويقتل شهيته ؟ !

وربما لهذا السبب بالذات .. تفتح استوديوهات السينما الإنجليزية أبوابها لأفلام « جيمس بوند » ليواصل مغامراته السحرية وألاعيبه الفذة . ولتربح السينما الأمريكية من ورائه مئات الملايين ..

فمنذ أول أفلام جيمس بوند « دكتور نو » عام ١٩٦٢ .. وحتى هذه اللحظة .. صممت كل خرافات جيمس بوند داخل الاستوديوهات الإنجليزية .. وهم يفتخرون بهذا .. ويؤكدونه في نشراتهم دليلاً على اتقانهم الفني ..

ولكن من قال إن أفلام جيمس بوند تدخل تاريخ السينما ؟

رءوف توفيق



لقطة من فيلم غاندى الذى أخرجه « ريتشارد أتينبرو » وفاز الفيلم بثمان جوائز أوسكار ..

عندما كتب نعمان عاشور مقاله الممتع (لغة الحوار في المسرح) المنشور في العدد (١٠١) من الدوحة ، إختلف معه الكاتب والناقد حافظ أمين حول عدة قضايا من بينها أن المسرح فن المشاركة وليس الفرجة ، وأن الحوار الجيد يعتمد على الأسلوب أكثر من اعتماده على اللغة .

وفى هذا المقال يعاود الكاتب الكبير نعمان عاشور الدفاع عن وجهة نظره التي أثارها حول قضايانا المسرحية ..

عودة إلى لغة الحوار المسرحي

بقلم : نعمان عاشور

أعود اليكم مرة أخرى لأعاود الكتابة فلا أجد ما يصل الخيط بيننا الا هذا الرد الرقيق الذى عارض به نظرتي عن طبيعة الحوار المسرحى الأخ الصديق حافظ أمين في عدد سابق من الدوحة (١٠٤) أغسطس/آب ١٩٨٤ وقد يلزم ان أتوجه لمجلة الدوحة بالشكر على موقفها الحيادى بطرح الموضوع للمناقشة بقدر ما أشكر الصديق حافظ على متابعته الواعية لما كتبت . وليسمح لى بداية أن أصارحه بعجزى عن مجاراته فى لهجته الهذبة التى ساق الى بها خلافنا فى الرأى .. فالموضوع الذى طرحته عن لغة الحوار فى المسرح موضوع شائك كان ولا يزال من أبرز وأهم الموضوعات فى التطور بمسرحنا العربى لأننا نعانى من ازدواج لغوى فى كل قطر عربي . نكتب بلغة ونتكلم بلغة أخرى .. وهذه حقيقة لا سبيل الى انكارها وهى التى دفعتنى الى أن أعنون مقالى أو على الأصح أصف الحوار فى المسرح بأنه لغة وليس أسلوباً فى الكتابة .. ومن هنا جاء اللبس عند الصديق العزيز لأن صلب مناقشتى للموضوع أساسه التفرقة التى تميز الكتابة للمسرح عن بقية ألوان الكتابة الأدبية الأخرى .. فالمسرح لا تقوم له قائمة ولا يثبت له وجود ولا يتحقق له كيان الا اذا انتقل من مجرد كلام مكتوب على الورق الى كلام مجسد منطوق يشارك فيه الجمهور بالمشاهدة ، وعملية الانتقال هذه تجعل من المسرح فن فرجة جماعية أكثر منه فن قراءة فردية ..

المسرح فرجة حية

لا أدرى لماذ يختلف معى الصديق حافظ أمين فى استعمال كلمة « فرجة » ويطالب باستبدالها بعبارة « المشاركة الدرامية » .. فإذا كانت حجته أن المسرح لم يعد فرجة منذ انتشار التليفزيون فى المنازل كما يقول .. فإنها حجة مبتورة .. لأن هناك فرقاً كبيراً بين مشاهدة العرض المسرحى الحي المتجدد فى كل ليلة على خشبة المسرح وسط جمهور من المشاهدين .. ومشاهدة مسرحية مسجلة فى التليفزيون يمكن أن يشاهدها فرد واحد بمفرده .. فى حين يستحيل مشاهدة أو تقديم عرض مسرحى فى غيبة جمهور حي من المشاهدين .. وهذا ما يفرق المسرح عن السينما مثلاً لأنه فى تسجيله التليفزيونى يصبح مجرد صورة ناطقة أكثر منه أداء مجسدا حيا .. أي فرجة حقيقية فعلية حية يشترك فيها الجمهور مع الممثلين ومع المخرج فى مشاهدة فصل غير مكتوب على ورق أو مسجل على شرائط من السليلويد .. يعاد عرضه على شاشة تليفزيون .. والا افتقد وجود المسرح وفقد أبرز مميزاته عن بقية فنون المشاهدة الأخرى .. أما المشاركة الدرامية التى يقول بها الأخ حافظ .. فيمكن تحقيقها بواسطة أى تسجيل سواء كان فيلماً سينمائياً أو مسلسلة تليفزيونية أو برنامجاً إذاعياً مسموعاً وليس مرئياً .. وبسبب هذا لم ينكر مناجزى العزيز أن المسرح فن فرجة أصلا ولكنه لم يعد كذلك منذ انتشار التليفزيون .. وبهذا المفهوم الذى تخطى به الحقيقة الأصلية للمسرح كفن فرجة حية حتى بعد وجود التليفزيون .. وقع الصديق حافظ أمين فى خطأ كبير أدى به الى المطالبة الساذجة بأن يغير المسرح من طبيعته ليقدم عروضاً أخرى مختلفة عما تقدمه وسائل التعبير الفنية الأخرى ..

ولكن .. أى عروض ! !

إن المسرح رغم وجود التليفزيون وسابق وجود السينما لا يزال هو المسرح .وليس يلزم حتماً لكى يزداد المسرح انتشاراً أن نلغى طبيعته لنحيله الى تمثيلية تليفزيونية .. فهناك فرق شاسع وكبير بين الدراما التليفزيونية أو الاذاعية والدراما المسرحية وبالذات فى نوعية « المشاركة الدرامية » التى يقول بها .. لقد عينت منذ مدة عضواً فى لجنة شكلها المجلس الأعلى لرعاية الآداب والفنون فى مصر .. أطلقوا عليها اسم « لجنة التمثيلية المسرحية والتليفزيونية والاذاعية » .. فاعتذرت عن قبول عضوية مثل هذه اللجنة الا اذا كانت قاصرة على المسرح وحده .. لأن المسرح فن درامى قائم بذاته وهو فن الفنون الدرامية جميعاً ولا يمكن أن يتساوى مع أى فنون تعتمد فى كيانها على الدراما .. ولست أحسب أن الصديق العزيز يختلف معى فى ذلك .

إن مبعث الخلط الكامن وراء مثل هذه المفهومات ليس جديداً على الصديق حافظ أمين .. تتسم به معظم كتاباته عن المسرح وهو يجيء عن نية صادقة ورغبة مخلصة لمحاولة توسيع رقعة المسرح وزيادة انتشاره لكسب جمهور متزايد من المشاهدين .. وحديثنا هنا ينصب على المسرح الجاد ، بالطبع .. لكنه فى هذه المرة يصل برغبته او بالأحرى حرصه على المسرح الجاد وجمهوره الى ما قد يكون فيه تسخيراً للمسرح لخدمة وسائل التعبير الأخرى التى أصبحت أكثر جماهيرية وأكثر انتشاراً والا فكيف تجوز له مطالبة كتاب المسرح بتغيير أو تطويع مؤلفاتهم لكى تكون صالحة للتليفزيون حتى يشاهدها جمهور أكبر .. إن الكتابة للتليفزيون شيء مختلف تماماً عن الكتابة للمسرح .. لأن المسرح هو الأساس .. ودليلى على ذلك هو نفس دليله الذى ساقه عن نجاح مسلسل « عيلة الدوغري » فلولا وجود النص المسرحى لما نجح المسلسل التليفزيونى . ولعل هذا هو السبب الحقيقى لهبوط مستوى معظم المسلسلات التليفزيونية لأنها لاترتكز على الأصول الدرامية وانما تستمد موضوعاتها من قصص وروايات وكتابات تفتقر الى عنصر الدراما بمقوماته الراكزة التى لا يتكامل بدونها النص المسرحى نفسه .

مصدر المحنــة

ان المحنة ليست محنة الكتابة للمسرح الجاد ولا محنة انصراف الجمهور عنه . ولكن المحنة

تتمثل فى السيطرة على وسائل التعبير .. وهذه السيطرة .. قد تكون سيطرة رسمية من جانب السلطة أو تجارية من جانب ممولي القطاع التجارى .. وهذه السيطرة هى التى دفعت بالزملاء الراحلين ميخائيل رومان ونجيب سرور ومحمود دياب الى الاحباط القاتل .. وماتوا فى ريعان شبابهم وهم يؤلفون أنضج إنتاجهم كما تقول .. لأن هذه الكتابات لم تكن تتفق مع رغبات المسيطرين على مسرح القطاع العام فحرموا عرضها والمسيطرين على مسرح القطاع الخاص الذين يسخرونه تسخيراً تجارياً خالصاً لبيع الضحك والتسلية .. ولذلك تدهور المسرح الجاد ابان الستينات هذا التدهور الواضح ... لا بسبب عجز كتاب الستينيات ولكن بسبب اختلاق كتاب رسميين معتمدين لكتابة ما يراد عرضه في المسرح طبقاً لما تقتضى المناسبات السياسية . ويكفى أثباتا لذلك أن أى مسرحية جادة لها قيمتها الفنية وذات رؤية مخالفة لما يراد تقديمه للمسرح امتنع التليفزيون عن تسجيلها .. بل الأدهى والأمر أن معظم المسرحيات التى سجلها التليفزيون لكتاب الستينيات مسحت وأعدمت شرائطها ومن بينها مسرحياتى « الناس اللى تحت » و « وابور الطحين » و « ثلاث ليالى » و « بلاد بره » وحتى مسرحيتى « عيلة الدوغرى » فإن الشريط المسجل لها الذى يعرض من آن لآخر منقول من شريط احد التليفزيونات العربية التى سبق اقتناؤه له عن تسجيله .

ثم قد لا يعلم الصديق العزيز أن لي ثلاث مسرحيات عرضت ابان السبيعينيات وهي « الجيل الطالع » و « بشير التقدم » و « برج المدابغ » ولم يكلف التليفزيون خاطره بالتفكير في تسجيلها بل حوربت وهي تعرض لايقاف عرضها بشتى الوسائل.. هذا في الوقت الذي يسارع فيه التليفزيون إلى تسجيل وعرض كافة مسرحيات التسلية التي يقدمها المسرح التجاري وتكرار عرضها على مدار دورات برامجه .

المحنة إذن لسيت فى الكتابة المسرحية وتغيير أساليبها لتوائم وسائل التعبير الحديثة والا كان فى ذلك القضاء على المسرح .. وفى انجلترا وفرنسا بل وفى امريكا ذاتها رغم وجود عشرات المحطات والقنوات التليفزيونية هناك أيضاً عشرات المسارح التى تقدم ليلياً مئات المسرحيات الكلاسيكية وغير الكلاسيكية .. ولم تقفل أبوابها ولم تغير أساليب عروضها لتكون أكثر ملاءمة للشاشة الصغيرة التى تدخل كافة البيوت . المحنة عندنا اذن ليست فى الكتابة المسرحية ولكنها محنة السيطرة على وسائل التعبير رسميا وتجاريا وتسخير المسرح للأهداف السياسية والاجتماعية التى تتفق ومصالح أصحابها والمهيمنين عليها .. ولهذا فلا موضع للنصيحة الموجية التى ينصح بها الصديق حافظ أمين كتاب الستينيات اذا أرادوا أن ينتجوا فى السبعينيات أو الثمانينيات أن يراعوا حاجة الجمهور ومتطلباته حتى يقدر لمسرحياتهم النجاح والانتشار وخطف الكاميرا من التليفزيون الى قاعات المسرح . فليطمئن من هذه الناحية ولا يجب أن يراوده الشك فى ادراكهم لحقيقة مشاكل الثمانينيات والتصدى لمعالجتها .. فليس المهم أن تقدم نصاً مسرحياً جاداً جيداً يقبل عليه الناس .. ولكن الأهم أن يسمح بعرض هذا النص أولا .. فما بالك بتسجيله للتليفزيون ؟!!

الحوار المسرحى لغة وليس أسلوبـــاً

ونأتى للاختلاف الثانى بيننا .. وفيه يرى الصديق حافظ أمين أن الحوار المسرحى أسلوب وليس لغة كما وصفته . وهذه محاولة تعريفية جديدة لا تتفق بالذات مع طبيعة المسرح فى بلادنا العربية وتخرج بنا الى مفهوم مخالف للمسرح عامة كفن قوامه الحوار ولا دخل فيه للسرد .. ان الذى يدعونى لاستعمال كلمة « لغة » فى تعريفى للحوار المسرحي .. ما سبق أن أوضحته لاصقاً ببيئتنا العربية جميعها وهو هذا الازدواج اللغوى .. فنحن فى كل أقطارنا نتكلم بغير اللغة التى نكتبها ولا دخل هنا لاختلاف اللهجات .. وانما وجود لغة للتخاطب وأخرى للكتابة .. وهذا شىء لا نظير له فى كافة البلدان . ولذلك أوضحت بكل جلاء وبعرض تاريخى مركز لمشكلة اللغة فى مسرحنا المصرى على مدى تطوره خاصة بالنسبة لمعالجة القضايا والمشاكل الاجتماعية علاجا كوميديا .. وحتمية استعمال ما أسميه دائما « اللغة الدرامية » وهى اللغة التى يمكن التوجه بها الى مخاطبة الجماهير عن طريق الحوار .. وكان هذا هو صلب موضوع مقالى ..

فاذا أخذنا بتعريف الصديق العزيز وهو أن المسرح « مشاركة درامية » فإن فى هذا التعريف الذى ابتدعه هو بنفسه ما يثبت أن هذه المشاركة يستحيل تحقيقها الا عن طريق ما أسميه الحوار الدرامى لأن الحوار فى المسرح لا يعتبر أسلوباً وانما هو صلب البناء الدرامى ، فالمسرحية بداهة بناء حوارى .. أضف الى ذلك أن المسرح فن ناطق نابع من الشعر .. وكما أن للشعر لغته الخاصة (تركيبة لغوية مختلفة عن النثر) فمن باب أولى أن يكون للمسرح لغته الخاصة التى لا تعتمد على أسلوب الحوار وانما تعتمد على بناء الحوار وبالتالى اللغة التى تشكل هذا البناء تشكيلا ناطقاً مجسداً يحقق المشاركة الدرامية التى يقول الصديق عنها .

والأمر أبسط من أن يحتاج الى التدليل أو الايضاح لأن مبعث القضية هو ما أوجدته الازدواجية اللغوية التى تفرق بين لغة الكتابة المقروءة ولغة التخاطب المنطوقة .. أى .. الفصحى والعامية .. بينما ماناديت به بعد ممارسة متصلة فى الكتابة المسرحية مداها ثلاثون عاماً وحصيلتها ثلاث وعشرون مسرحية .. حتمية وجود لغة مسرحية .. تجمع بين أصالة الفصحى وطلاقة العامية . وهى اللغة التى أستعملها فى مسرحياتى وأعتقد أنها لم تعجز فى التعبير عن كل ما يمكن أن تعبر عنه اللغة الفصحى من فكر رفيع وخيال وثاب وعواطف جياشة وتأملات نفسية وفكرية ووجدانية بل وفلسفية .. وفى صور ابداعية جمالية .. أقرب الى الفصحى منها الى الحوار اليومى الدارج الذى نسميه اللغة العامية .

ولذلك سرعان ما تخلى الزميل حافظ أمين عن خلافه الثانى فلم يتشبث بما أطلقه على الحوار الدرامى من أنه أسلوب وليس لغة واندفع ليدلل على أن مشكلة المسرح ليست مشكلة حوار وانما مشكلة اختيار المؤلف لموضوع مسرحيته متفائلا بما يبدو من ارهاصات انبعاثة مقبلة للمسرح لافتاً النظر أن يحذر الكتاب من خطورة ظهور « الفيديو » بعد التليفزيون ومطالباً اياهم بتأليف مسرحيات مختلفة تماماً عن مسرحيات الستينيات . وهذا بالطبع خروج عن موضوع مقالى ..

ولذلك أحب أن استسمحه بأسلوبه المهذب فى متابعتى لهذا الاستطراد من جانبه لأطاليه بمراجعة موقفه الرجراج من مسرح الستينيات . فقد سبق أن فضل عليه ما سبقه من طفرات مسرحية على يد يوسف وهبى والريحاني وبقية الرواد .. ثم عاد يحبذ مهللا لما أنتج فى السبعينيات . مع أن ما قدمه مسرح الستينيات من نتاج مؤلف لا يمكن قياسه بحقبة الستينيات وحدها .. فهو نتاج أكثر نضجاً وتطوراً وقيمة فنية وفكرية واجتماعية عما سبقه وهو فى موضوعاته يغطى كافة الحقب التالية عليه ..

وتبقى النقطة الثالثة والأخيرة التى يختلف فيها معى وهى التى تحدثت فيها عن غياب الحرية .. وقد شرحت ذلك مطولا من قبل .. فما أقصده ليس حرية التعبير وانما ما يمكن أن أسميه حق التعبير الذى تولد عن السيطرة الرسمية ابان السبعينيات جنباً الى جنب مع غلبة وسيطرة المسرح التجارى .. فهذه السيطرة وحدها هى التى أدت الى انتكاس المسرح الجاد ومحاولة تحويله عن مفهومه فى الستينيات كمنبر اشعاع ثقافى ومنار توعية فكرية واجتماعية ومنطلق رؤية حضارية مستقبلية الى مجرد دور عرض تقدم مسرحيات مناسبات فى المسرح الجاد وهزليات إضحاك فى المسرح التجارى .. ولا عليك يا أخى من مزاعم الرقابة التى دأب البعض على أن يتخذها ذريعة لتبرير ضعف مؤلفاتهم أو يتخذها البعض الآخر لاضفاء صفة البطولة على أنفسهم . وأنا شخصياً لم يحدث أن اعترضت الرقابة على أى نص من نصوصى مع أنها كلها خالية من أدنى مجاراة للأوضاع القائمة التى تكتب فى ظلها ..

أشعر أننى أطلت .. ولكن الموضوع يستحق وقفة منا خصوصاً فى هذه المرحلة الفاصلة من حياة مسرحنا .. ولذلك أشكر الصديق العزيز على خلافه معى لأنه خلاف يهدف الى الوصول للحقيقة ولا يفقده مودتى وحبى .. وانما أدعوه الى مزيد من الخلاف .






استراحة الدوحة

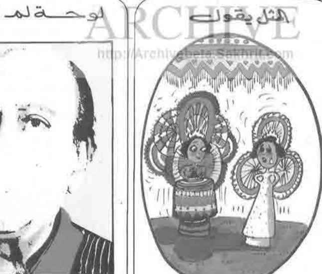
مجموعة مسابقات بالرسوم بريشة :
رؤوف

أصل وصورة




يعتبر الشاعر اللبناني جبران خليل جبران عميد أدباء المهجر وأوسعهم تأثيراً وإنتشاراً ..
ولهذا مطلوب منك أن تعرف الاختلافات السبعة البسيطة التي بين أصل وصورة الشاعر الكبير لتحصل على جائزة .

المثل يقول



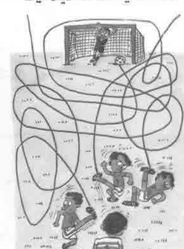
هذا الرسم الكاريكاتيري يعبر عن مثل شعبي عربي معروف .. إذا تعرفت على هذا المثل أرسله إلينا لتفوز بجائزة .

لوحة لم تتم



هذه اللوحة التي لم تتم لفنان عربي اشتهر باجادته للأدوار الشريرة في السينما .. حاول أن تكمل اللوحة لتتعرف على شخصية الفنان وتنال جائزة .

دوري الكاريكاتير



اقتحم أحد اللاعبين أرض الملعب كالصاروخ ، وسجل هدفاً قوياً في مرمى الخصم .. هل تستطيع أن تحدد من هو صاحب هذا الهدف ورقم فانلته ؟

لعبة الظلال



حاول أن تساعد هذا اللاعب في الحصول على ظله الحقيقي ، حتى تحصل على جائزة .

لأقوياء الملاحظة فقط !



أمامك رسوم لستة أشياء متداخلة .. إذا استطعت التعرف عليها فلك جائزة .



يخلق من الشبه أربعين









الصور الست المنشورة لست شخصيات قريبة الشبه من شخصية عميد الأدب العربي طه حسين .. من بين هذه اللوحات المنشورة واحدة تشبهه تماما .. تعرف عليها لتحصل على جائزة .

بقلم
عبد الله الجفري



احتجاج .. ضد التهجي !

• إني أتوقف على جناح ذبابة ، وأجيل النظر !

مسكون وجدان الانسان بالبغتة ، والعقاب ، والانطراح !

ينتمي شعوره إلى الرواسب والذكريات .. يتجمد على « الثانية » الفاصلة بين الضمير والخوف من شيخوخة العقل ، ومن هرم الوجدان ، ومن تضخم العمر !

إن قضية ما ــ انسانية ومبتذلة ، ومشروخة بالوجع ــ هي رجع فكره ، وهي معاناته وملابسات يومه .. هي الاشتهاء المنتصب في رغباته وعنعناته .. وهي في ذات الوقت : الاستهلاك البشع للطاقة .. في صحة التعبير الحياتي المطروح تحت أظلاف أحلام اليقظة !

ماهي ــ إذن ــ قضية انسان هذا الشرق .. المختفي في طيات هزائم النفس ؟!

إن الارهاص الأدبي في الفكر العربي يعاني من أزمة الانفلاش .

البحث الفلسفي تصرخ عباراته بارهاق التيارات المتصادمة .

الشعر ... لا أكثر من رسم بالطباشير في أفئدة الناس .. تمحوه البغتة !

القصة ... وصف لحالة ، تتضح فيها ــ أحياناً ــ المحاكاة ، وتضيع فيها ــ غالباً ــ التجربة الأصيلة .

إني أردد : (غيظي من هؤلاء المبدعين ، وأحزاني لهم . إنهم يعاقبونني بهزيمتهم أكثر مما يعاقبني هذا الذباب بوحشيته) !

إن شيئاً من التعبير ينبلج من أحزان الناس ، ولاتلبث أقدامهم أن تطأه في لحظة انسياق مللي .

لم يعد للوجدان العربي إلا شعراء المقاومة في أهازيجهم الوطنية ذات الايقاع المتأثر بطلقات الرصاص ، وأنين السجناء في أرضهم !

عفواً ... حتى شعراء المقاومة .. قاوموا ما في داخلهم !

لم تظهر رواية .. إلا وأكثر حوادثها تدور حول الانطراح الذاتي ، أو حول مشهد غرامي ساذج .

أيضاً .. إنني أردد : (إن منظر الذكاء مبايعاً للغباء وتابعاً له .. كان أقبح منظر يشتم عقلي) !

لقد جلدني سؤال قاله لي أحدهم : ماذا تقرأ هذه الأيام ؟!

أردت أن أضحك ساخراً ، أو حزيناً . حتى السخرية لم تعد ذات جدوى . قلت له :

ــ إني أعيد قراءة كتاب قديم للمرة الرابعة !

إني أبحث عن جديد . إن الخيال لا يريح في كل وقت .. وفي ذهني حروف تتهجى نفسها ، وهذا هو الأصعب !

في داخلي حشد من التثاؤبات الصدئة ، وأتذكر عبارة قديمة تقول :

ــ (إن كل إنسان لابد أن يستهلك حياته في تعبير ما .. ولكن شيئاً مالم يتغير ، لأن الناس رفضوه .. بل لأن نقيضه فرض عليهم) !

* * *

لأن الفكرة في خاطري قديمة ، والحرف في رؤيتي مكتوب مائة مرة . وأغلفة الكتب عليها رسوم تجريدية بدون عناوين .. « كأن العرب رسبوا في مادة الاملاء ! » ...

لأن ذلك كله « واقع » .. فنحن نحزن ، ونتجلط ، ونتكفي بالكلمات !

ربما أتذكر شيئاً آخر الآن !

أتذكر الكاتب اليوناني الذي ترك صوت « زوربا » ورحل ، واسمه : « نيكوس كازانتزاكيس » .. هو الذي قيل عنه انه « صنع الرؤية الكريتية ــ نسبة إلى جزيرة كريت ــ وبها أراد أن يوحد فكره وفنه بين الانطلاقة الروحية الحارة ، والتأمل العقلي المجرد » .

لهذا الكاتب حكاية رويت قبل وفاته ، مع زوجته « إلين » :

ــ قال لها : « أريد أن تكتبي كتاباً عني عندما أموت » .

ــ قالت له : « لا ... إن من يكتب عنك ، ينبغي أن يكون كاتباً عظيماً ، أما أنا ... » .

ــ قاطعها قائلاً : « لابد أن تكتبي أنت .. فان كثيرين سوف يقولون عني أشياء غير صحيحة ، وهذا مؤسف ، ولكنك الوحيدة التي تعرفينني جيداً . لكن ... لا تنسي أن تذكري كلمتي : لا أهاب شيئاً . لا أطمع في شيء .. لأني إنسان حر » !

وكان يعني : أن ماتكتب عنه دون معرفته .. هو تجسيد للأسف الذي يفرخ ادعاء وتشويهاً !

وكان يعني : أن دور الكاتب هو المعرفة الحقة ، وهو إيقاظ احتياجاته .. تلك التي تبدو متلاحمة مع تعامله اليومي في زحام الحياة !

إذن ؟!!

إني أتوقف على جناح ذبابة ، وأجيل النظر !

إني لاأتبجح ضد « الشطارة » الفكرية في رؤوس الأدباء ... لكني أحتج بعنف ضد استمرارية « تهجي » الحروف في أذهان المفكرين العرب ، وضد تفاقم تهجي القيم والضمير ! !

جدة